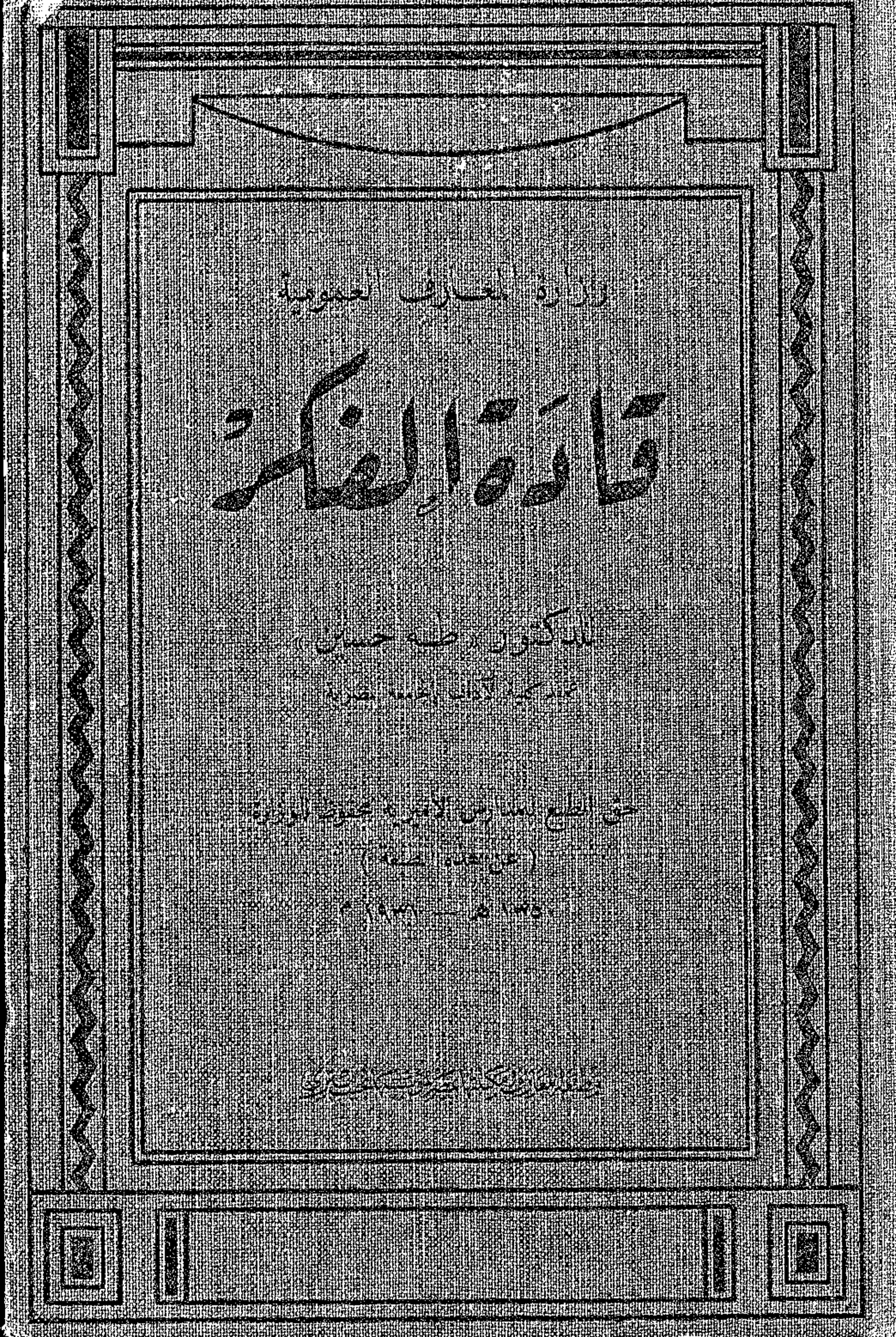

وزارة المعارف العمومية
قادة الفكر
للدكتور «طه حسين»
عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية
حق الطبع للمدارس الأميرية محفوظ للوزارة
(عن هذه الطبعة)
١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

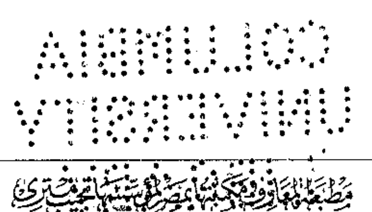
وزارة المعارف العمومية

قادة الفكر

للدكتور « طه حسين »

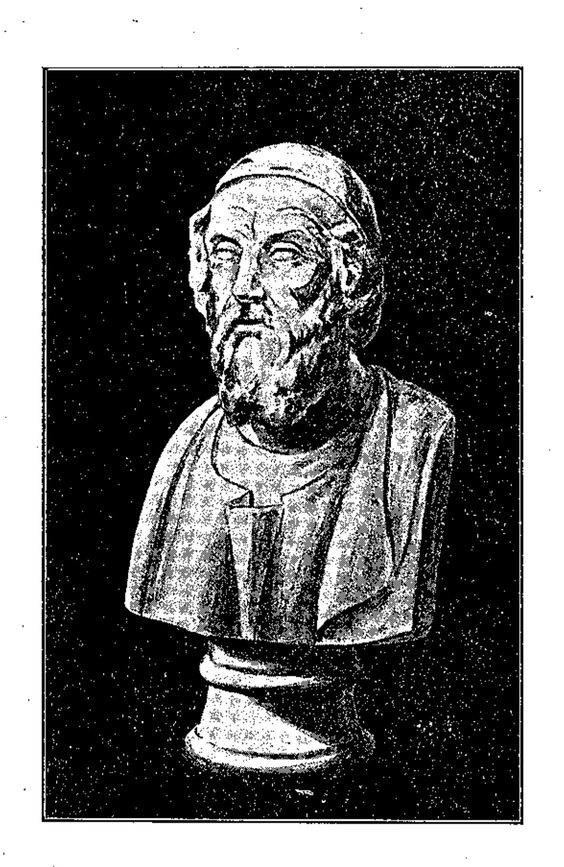
عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر لمؤسسها نجيب متري





هومیروس



هُومِيرُوس

أَرَادَتْ مَجَلَّةُ «الْهِلَالِ» الْغَرَّاءُ أَنْ تَكُونَ صِلَةً بَيْنِي وَبَيْنَ قُرَّائِهَا فِي نَشْرِ طَائِفَةٍ مِنَ الْفُصُولِ الَّتِي اقْتَرَحَتْ مَوْضُوعَهَا . فَمِنَ الْحَقِّ أَنْ أَبْدَأَ هَذِهِ الْفُصُولَ بِأَنْ أُقَدِّمَ إِلَى «الْهِلَالِ» أَجْمَلَ الشُّكْرِ، لِمَا تَفَضَّلَتْ بِهِ مِنْ إِيجَادِ الصِّلَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ قُرَّائِهَا، وَلِمَا وُفِّقَتْ إِلَيْهِ مِنَ اقْتِرَاحِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، الَّذِي قَدْ يَكُونُ عَسِيراً أَشَدَّ الْعُسْرِ، وَلَكِنَّهُ نَافِعٌ أَعْظَمَ النَّفْعِ . فَمَهْمَا يَتَكَلَّفِ الْكَاتِبُ مِنَ الْعَنَاءِ فِي الْبَحْثِ عَنْ دَقَائِقِهِ فَهُوَ وَاثِقٌ كُلَّ الثِّقَةِ بِأَنَّ عَنَاءَهُ لَيْسَ ضَائِعاً وَبِأَنَّهُ وَاجِدٌ فِي هَذَا الْعَنَاءِ نَفْسِهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْفَائِدَةِ مَا يُنْسِيهِ مَشَقَّةَ الْبَحْثِ وَآلَامَه . وَلَقَدْ أُجَاهِدُ نَفْسِي

جِهَاداً شَدِيداً لِأَمْنَعَهَا عَنِ ٱلإِسْهَابِ فِي بَيَانِ مَا لِهَـذَا ٱلْمَـوْضُوعِ مِنْ نَفعٍ وَخَطَرٍ؛ لِأَنِّى أَعْلَمُ أَنَّ ٱلْبَحْثَ نَفْسَهُ سَيُبَيِّنُ هَـذَا النَّفْعَ وَٱلْخَطَرَ أَحْسَنَ بَيَانٍ .

وَحَسْبُنَا أَنَّا سَنَعْرِضُ فِي هَـذِهِ ٱلْفُصُولِ لَا لِتَارِيخِ أَشْخَاصٍ بِعَيْنِهِمْ ، بَلْ لِتَارِيخِ ٱلْعَقْلِ الإِنْسَانِيِّ وَمَا ٱعْتَرَضَـهُ مِنْ ضُرُوبِ ٱلتَّطَوُّرِ وَأَلْوَانِ ٱلِاسْتِحَالَةِ وَالرُّقِيِّ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى حَيْثُ هُوَ ٱلآنَ .

عَلَى أَنِّى لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْدَأَ ٱلْبَحْثَ قَبْلَ أَنْ أُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَنْبِيهاً لِلْقُرَّاءِ أَرَى أَنْ لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ؛ فَقَدْ تَعَوَّدَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلشَّرْقِ عَامَّةً وَفِي مِصْرَ خَاصَّةً ، أَنْ يَفْهَمُوا مِنْ مِثْلِ هَذَا ٱلْعُنْوَانِ ٱلَّذِى قَدَّمْتُهُ ، أَنَّ عِنَايَةَ ٱلْـكَاتِبِ وَٱلْبَاحِثِ سَتَتَنَاوَلُ ٱلْأَشْخَاصَ وَتُقْصَرُ عَلَيْهِمْ؛ فَلَفْظُ « قَادَةِ ٱلْفِكْرِ » إِذَا سَمِعَهُ ٱلْقَارِئُ ٱلْمِصْرِىُّ أَو

الشَّرْقِيُّ، فَهِمَ مِنْهُ، لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، طَائِفَةً مِنَ الْأَشْخَاصِ لَهمْ أَثَرٌ يَخْتَلِفُ قُوَّةً وَضَعْفاً فِي تَكْوِينِ الْحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَامَّةِ، فِي جِيلٍ مِنَ الْأَجْيَالِ، أَوْ فِي بَلَدٍ مِنَ الْبِلَادِ، ثُمَّ اتَّصَلَ ذِهْنُه بِهؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ، وَانْتَظَرَ مِنَ الكَاتِبِ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْهِ أَطْرَافاً مِنْ حَيَاتِهِمْ، وَمَا اعْتَرَضَهَا مِنْ خُطُوبٍ، وما اخْتَلَفَ عَلَيْهَا مِنْ مِحَنٍ. وبِعِبارَةٍ مُوجَزَةٍ: انْتَظَرَ مِنَ الْكَاتِبِ أَنْ يَقُصَّ عليهِ تَرَاجِمَ هَؤُلَاءِ الأشخاصِ.

وهذَا النَّوْعُ مِنَ البَحْثِ مأْلُوفٌ شَائِعٌ فِي الشَّرْقِ والغَرْبِ، يُحِبُّهُ النَّاسُ وَيَكلَفُونَ بِهِ مُنْذُ كَتَبَ الكَاتِبُ اليُونَانِيُّ المَعْرُوفُ «فُلُوتَرْخُسْ» كِتَابَهُ المَشْهُورَ، الَّذِى تَرْجَمَ فِيهِ لِعُظَمَاءِ الرِّجَالِ مِنَ اليُونَانِ والرُّومَانِ، والَّذِى كانَ لهُ فِي الْعَصْرِ القَدِيمِ،

وَفِى القُرُونِ الْوُسْطَى وَفِى أوَّلِ هَذَا العَصْرِ الحَدِيثِ، أَثَرٌ لاَ يَكَادُ يَعْدِلُه أَثَرٌ، والذى مَا نَزَالُ نَقْرَؤُهُ الْآنَ بِلَذَّةٍ لاَ تَعْدِلُها لَذَّةٌ، وعِنَايَةٍ لا تُشْبِهُهَا عِنَايَةٌ. هَذَا النَّحْوُ مِنَ البَحْثِ مألوفٌ شَائعٌ، ولَـكِنِّى مَعَ ذَلِكَ سَأَعْدِلُ عَنْـه، وسأَكُونُ شَدِيدَ الِاقْتِصَادِ فى ذِكْرِ الحَوَادِثِ والأَخْبَارِ والتَّوَارِيخِ الَّتى تَتَّصِـلُ بحياةِ الأَشْخَاصِ الَّذِين سَأَعْرِضُ لهُمْ فى هَـذِهِ الفُصُولِ؛ لاَ لِأَنِّى أُهْمِلُ هؤلاَءِ الأَشْخَاصَ إِهْمالاً، أَوْ أَنْسَى تأْثيرَهمُ العظِيمَ فى البِيئَةِ التى نَشَأُوا فِيهَا، بَلْ لِأَنَّ لِى رَأْيًا أَظنُّ أَنَّهُ هُوَ الرَّأْىُ الْمُقَرَّرُ الآنَ عِنْدَ الَّذِينَ يُعْنَوْنَ بتَارِيخِ الآدَابِ والآراءِ؛ وهُوَ أنّ هَذِهِ الآدابَ وَالآراءَ عَلَى اخْتِلاَفِها وتَبَايُنِ فُنُونِها ومَنَازِعِها، ظَوَاهِرُ اجْتِماعِيَّةٌ أَكْثَرُ مِنْهــا ظَوَاهِرَ فَرْدِيَّـةً: أىْ أَنَّهَا أَثَرٌ من آثارِ

الْجماعَةِ وَالبِيئَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تكونَ أَثَراً من آثارِ الفَرْدِ الَّذِى رَآها وأَذَاعَها .

وَإِذَا كانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَقِّ فِي شَىْءٍ أَنْ تَنْسَى الْجَمَاعَةَ الَّتِي هِيَ المؤَثِّرُ الأوَّلُ فِي ظُهُورِ الآدَابِ والآراءِ الفَلْسَفِيَّةِ ، وتَقْصُرَ عِنايَتَكَ عَلَى الفَرْدِ الَّذِي كَانَ مَظْهَراً لِهَذِهِ الآدَابِ أَوْ لِهَذِهِ الآرَاءِ . وأُحِبُّ أَنْ نَتَّفِقَ قَبلَ كُلِّ شَىْءٍ ؛ فَالنَّاسُ يَذْهَبُونَ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْضُوعِ مَذْهَبَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ أَشَدَّ التَّبَايُنِ ؛ أُرِيدُ أَنَا ، كَمَا أَرَادَ غَيْرِى مِنَ المُؤَرِّخِينَ المُحْدَثِينَ ، أَنْ أَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا وأَنْ آخُذَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا خُلاَصَتَهُ . فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْلُو فِي إِكْبَارِ الْجَمَاعَةِ والبِيئةِ وإِضَافةِ كُلِّ شَىْءٍ إِلَيْهَا واسْتِنبَاطِ كلِّ شَىْءٍ مِنْهَا ، حَتَّى يَنْسَى الفَرْدَ نِسْيَاناً تَامًّا ، فَإِنْ ذَكَرَهُ فَإِنَّمَا يَذْكُرُهُ عَلَى أَنَّهُ

أَدَاةٌ مِنَ ٱلْأَدَوَاتِ وَمَظْهَرٌ مِنَ الْمَظَاهِرِ لَيْسَ لَه قُوَّةٌ وَلَا عَمَلٌ وَلَا إِرَادَةٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلُو فِي إِكْبَارِ الفَرْدِ ، فَيُضِيفُ إِلَيهِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَيَقْصُرُ عليه كلَّ عِنَايَةٍ ، ويُفْنِى الْجَمَاعَةَ فِيهِ كَمَا يُفْنِيهِ السابقونَ فى الجماعةِ . أولئكَ يَمْحُونَ الفَرْدَ مَحْواً ، وهؤلاءِ يَمْحُونَ الجماعةَ مَحْواً ، أُولئكَ وهؤلاءِ مُخْطِئونَ فِيمَا أَعتَقِدُ . فَلَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ الفَرْدَ قُوَّةٌ تَخْتَلِفُ عِظَماً وضَآلةً ولكِنَّهَا قُوَّةٌ عَلَى كلِّ حَالٍ ، قُوَّةٌ لَهَا أَثَرُها فِى تَكْوِينِ القُوَّةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، بَلْ لَهَا أَثَرُهَا العَظِيمُ فِى تَكْوِينِ هَذِهِ القُوَّةِ . وإِذاً ، فَلَيْسَ مِنَ البَحْثِ العِلْمِىِّ القَيِّمِ فِى شَيْءٍ أَنْ تَعْتَبِرَ هَذا الفَرْدَ كَمًّا مُهْمَلاً كَما يَقُولُونَ . ولَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ الفَرْدَ لَمْ يُنْشِئْ نَفْسَهُ ، وَلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى تَصَوُّرِهِ مُسْتَقِلاً ؛ وإِنَّما هُوَ فِى وُجُودِهِ المَادِّىِّ والمَعْنَوِىِّ ، أَثَرٌ اجْتِمَاعِىٌّ

وظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الاجْتِمَاعِ ، لاَ يُوجَدُ إلاَّ إذَا الْتَقَى الجِنْسَانِ ، فَإِذَا وُجِدَ فالْجَمَاعَةُ كُلُّهَا مُتَعَاوِنَةٌ مُتَظَاهِرَةٌ عَلَى تَنْشِيئِهِ وتَرْبِيَةِ جِسْمِهِ وعَقْلِهِ وشُعُورِهِ وَعَوَاطِفِهِ ؛ وَهَلْ التَّرْبِيَةُ المادِّيَّةُ والمَعْنَوِيَّةُ إلاَّ قَالَبٌ يُصَاغُ فِيهِ الفَرْدُ عَلَى صُورَةِ الجَمَاعَةِ الَّتِي يَنْشَأُ فِيها؟ يَتَعَلَّمُ الفَرْدُ بِهٰذِهِ التَّرْبِيَةِ اللُّغَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُهَا وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يُحْدِثُ هٰذِهِ اللُّغَةَ ، وَلَيْسَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَعْرِفَ الفَرْدَ الَّذِي أَحْدَثَ لُغَةً من اللُّغَاتِ ، بَلْ لَيسَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تُوجَدَ اللُّغَةُ إلاَّ إذَا كانتْ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ تُحْدِثُهَا ، لأَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ إليها ؛ ثُمَّ يَتَعَلَّمُ الفَرْدُ الدِّينَ الَّذِي يُنَظِّمُ حَيَاتَه الرُّوحِيَّةَ ، وليسَ هُوَ الَّذِي أَحْدَثَ هَذَا الدِّينَ ، بَلْ مَا مِنْ سَبِيلٍ إلَى وُجُودِ الدِّينِ إذَا لم تَكُنْ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ تَحْتَاجُ إليه . وقُلْ مِثْلَ هَذَا فِي

الأَخْلَاقِ ، وقلْ مِثْلَهُ في النُّظُمِ الاجْتِماعِيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ ، وَقُلْ مِثْلَهُ فِي جَمِيعِ الأوضَاعِ وَالآدَابِ .

الفَرْدُ إذاً ظاهِرَةٌ اجْتِماعِيَّةٌ ؛ وَإِذاً فليسَ من البَحْثِ القَيِّمِ العِلْمِيِّ في شَيْءٍ أن تَجْعَلَ الفَرْدَ كُلَّ شَيْءٍ وَتَمْحُوَ الجَمَاعَةَ التِي أنْشَأَتْه وكَوَّنته مَحْواً ؛ إنما السَّبيلُ أنْ تَقْدُرَ الجَمَاعَةَ وأنْ تقْدُرَ الفَرْدَ ، وأنْ تَجْتَهِدَ ما اسْتَطَعْتَ في تَحْدِيدِ الصِّلَةِ بَيْنَهُمَا ، وَفي تَعيينِ مَا لِكِلَيْهِمَا مِنْ أثَرٍ في الآدابِ وَالآرَاءِ الفَلْسَفِيَّةِ والنُّظُمِ الاجْتِماعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ . وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ هِيَ السَّبِيلَ المَعْقُولَةَ فَلَا يَنْبَغِي أنْ تَنْتَظِرَ مِنْ هٰذِهِ الفُصُولِ تَرَاجِمَ لِقَادَةِ الفِكْرِ كما تقْرَأُ في كِتَابِ « فلُوتَرْخُسْ » تَرَاجِمَ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ مِنَ اليُونَانِ والرُّومَانِ ؛ وَلَا يَنْبَغِي أنْ تَنْتَظِرَ مِنْ هٰذِهِ الفُصُولِ مَبَاحِثَ اجْتِماعِيَّةً أوْ جُغْرَافِيَّةً تَدْرُسُ مِنها البيئاتِ

والبُلْدانَ دَرْساً مُفَصَّلاً ، بِحُجَّةِ أَنَّهَا هِيَ المُؤَثِّرُ الأوَّلُ فى وُجُودِ الآرَاءِ والأفْكارِ الَّتِي خَضَعَتْ لهَا الأجْيالُ الإنْسَانيَّةُ . إنَّمَا هٰذِهِ الفُصُولُ مِزَاجٌ مِنَ البَحْثِ الفَرْدِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ ، سأجْتَهِدُ مَا اسْتَطَعْتُ فى أَنْ أُبَيِّنَ فيهَا شَخْصِيَّةَ الفَلاسِفَةِ والمُفَكِّرِينَ الَّذِينَ سَأعْرِضُ لهم ، ولٰكِنْ عَلَى أنْ تَكونَ هٰذِهِ الشَّخْصِيَّةُ مُتَّصِلَةً بِالْبِيئَةِ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا ، مُتَأَثِّرَةً بِهَا ، وَمُؤَثِّرَةً فِيهَا أيْضاً .

*
* *

وَبِأَيِّ هٰؤُلاءِ المُفَكِّرِينَ والفَلاسِفَةِ تُرِيدُ أنْ أبْدَأَ هٰذِهِ الفُصُولَ ؟ هُمْ كَثِيرُنَ ، هُمْ أكْثَرُ مِنْ عَشَرَةٍ ، بَلْ هُمْ أكْثَرُ من مِائَةٍ ، بَلْ أحسبُ أنَّ العَدَّ لا يَكَادُ يُحْصِيهِمْ ، بَلْ أزْعُمُ أنَّا نَجْهَلُ مِنْهُم أفراداً كَثِيرِينَ ، فَكَمْ مِنْ مُفَكِّرٍ ، وكَمْ مِنْ فَيْلَسُوفٍ كَانَ له الأَثَرُ

الأعْظَمُ فى تَرْقِيَةِ بيئَتِهِ وتَهْيِئَتِهَا لِلتَّطَوُّرِ ، وَلَكِنَّ الزَّمَانَ مَحَا شَخْصِيَّتَهُ مَحْواً ، وأخْفَاها على الأجْيالِ إخْفاءً ، فَلَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ مِنْ أمْرِهِ قَلِيلًا وَلَا كَثِيراً ، وَإِنَّمَا اُسْتَمْتَعُوا بِآثَارِهِ وانْتَفَعُوا بِآرَائِهِ وهُمْ يجْهَلونَهُ ، ثُمَّ قَدْ يَخْطُرُ لهمْ أحيانًا أن يَبْحَثُوا عنه وَيَتَلَمَّسُوا شَخْصِيَّتَهُ . فَإِذَا لَمْ يجِدُوا إلَيها سَبِيلًا اُخْتَرعُوها اُخْتِرَاعًا واُبْتَكَرُوها اُبْتِكَاراً وخَلَقُوهَا مِنْ عِنْدِ أنفُسِهِمْ .

وَلَقَدْ أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ اليَوْمَ عَنْ شَخْصٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ ، أوْ عَنْ طَائفةٍ مِنْ هٰؤلَاءِ الأشْخَاصِ ، كانَ لهمْ أعظَمُ أثَرٍ فى تَكْوِينِ أُمَّةٍ بأسْرِهَا ، وَفِى تَصْوِيرِ النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الَّتِى خَضَعَتْ لَهَا هٰذِهِ الأُمَّةُ عُصُوراً طِوَالاً . وَفى تَهْيِئَةِ هٰذهِ الأُمَّةِ لِلرُّقِيِّ والتَّطَوُّرِ ، اللَّذَيْنِ جَعَلَاها مَصْدَرَ الْحَيَاةِ العَقْلِيَّةِ الَّتى

لَا تَزَالُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَأَثِّرَةً بِهَا إِلَى اليوم وَإِلَى غَدٍ وَإِلَى آخِرِ الدَّهْرِ . أُرِيدُ بِهٰؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ أُولَئِكَ الشُّعَرَاءَ الَّذِينَ أَنْشَأُوا « الْإِلْيَاذَةَ » « وَالْأُودِسَّا » وَغَيْرَهُمَا مِنَ الأَنَاشِيدِ القَصَصِيَّةِ اليُونَانِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْهَا إِلَّا طَرَفٌ قَلِيلٌ، وَالَّتِي كَانَتْ قِوَامَ الْحَيَاةِ اليُونَانِيَّةِ عُصُوراً طِوَالاً حَتَّى خَلَفَتْهَا الفَلْسَفَةُ . ولَعَلَّكَ تُدْهَشُ حِينَ تَرَانِي أُحَدِّثُكَ عَنْ مُنْشِئِ « الْإِلْيَاذَةِ » « وَالْأُودِسَّا » ، ولَعَلَّكَ كُنْتَ تُقَدِّرُ أَنِّي سَأُحَدِّثُكَ عَنْ فَيْلَسُوفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ الفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ خَلَّدَ التَّارِيخُ القَدِيمُ وَالْحَدِيثُ أَسْمَاءَهُم وَآرَاءَهُم : عَنْ « سُقْرَاطْ » أَوْ « أَفْلَاطُونْ » أَوْ « دِيكَرْتْ » أَوْ « جَانْ جَاكْ رُوسُّو » أَوْ « كَنْتْ » أَوْ « أُوجِسْتْ كُمْتْ » أَوْ « سِبِنْسَرْ » . سَأُحَدِّثُكَ عَنْ

هٰؤلاءِ ، وَلكنْ بعدَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ « هُومِيرُوسْ » وَخُلَفَاءِ « هُومِيرُوسْ » .

وَفَكِّرْ مَعِي قَلِيلًا فى تَارِيخِ اليُونَانِ ، الَّذِى تَرْجِعُ إِليهِ الحضَارَةُ الإِنْسَانِيَّةُ الْحَدِيثَةُ والقَدِيمَةُ ، وَفَكِّرْ مَعِي قَلِيلًا فى تَارِيخِ العَرَبِ أيضاً الَّذِى تَرْجِعُ إِليهِ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ . عَلَامَ كَانَتْ تَقُومُ الْحَيَاةُ اليُونَانِيَّةُ فى بَدَاوَةِ اليُونَانِ وَأَوَّلَ عَهْدِها بِالْحَضَارَةِ ؟ وَعلَامَ كَانَتْ تَقُومُ الحيَاةُ العَرَبِيَّةُ فى بَدَاوَةِ العَرَبِ وَأَوَّلَ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ ؟ عَلَى الشِّعْرِ !

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ : عَلَى الشِّعْرِ وَحْدَهُ ؛ فَالْعَرَبُ وَاليُونَانُ يَتَشَابَهُونَ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ تَشَابُهاً كَامِلاً ؛ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ فَلَاسِفَتِهِمْ وَحُكَمَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ وَسَاسَتِهِمْ وَمُدَبِّرِى أُمورِهِمْ الاجْتِمَاعِيَّةِ أَيَّامَ البَدَاوَةِ

فَلاَ تجدُ إلَّا الشُّعَرَاءَ . ثُمَّ تَستَطِيعُ أنْ تبحَثَ عَنْ فَلسَفَتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَنُظُمِهِمْ المُختَلِفَةِ وَحيَاةِ عُقُولِهِمْ وَعوَاطِفِهِمْ فَلاَ تَجدُهَا إلَّا فِي الشِّعْرِ .

الشعرُ إذاً هُوَ أَوَّلُ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْحيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ القَوِيَّةِ لِهَاتَينِ الأُمَّتَيْنِ . وتَستَطِيعُ أنْ تَقُولَ ، فى غَيْرِ حَرَجٍ : إنَّ الشِّعْرَ هُوَ أَوَّلُ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الحيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ القَوِيَّةِ لِكُلِّ الأُمَمِ الْمتَحَضِّرَةِ الَّتى عرَفَهَا التَّارِيخُ . وإذاً فالشُّعَرَاءُ هُمْ قَادَةُ الفِكْرِ فى هَـذِهِ الأُمَمِ ؛ تَأثَّرُوا بحيَاتِهَا البَدَوِيَّةِ ، فنَشَأوا مُلائِمِينَ لهـا ؛ وتَميَّزَتْ شَخْصِيَّاتُهُمْ فَأثَّرُوا فِيمَنْ حَوْلَهُمْ ، ثُمَّ فى الأَجْيَالِ الَّتى خَلَفَتْهُمْ .

وهَلْ كانَتْ تُوجَـدُ الْحضَارَةَ اليُونَانِيَّةُ الَّتى أنشَأَتْ « سُقْرَاطْ » و « أرِسْطَاطَالِيسْ » والَّتى أنْشَأَتْ

« إِسْكُولُوسْ » و « سُوفُكْلِيسْ » وَالَّتِي أَنْشَأَتْ « فِدْيَاسْ » و « بِيرِكْلِيسْ » ، لَوْ لَمْ تُوجَدْ البَدَاوَةُ اليُونَانِيَّةُ الَّتِي سَيْطَرَ عَلَيْهَا شِعْرُ « هُومِيرُوس » وخُلَفَائِهِ ؟ وَهَلْ كَانَتْ توجَدُ الحَضَارَةُ الإِسْلَامِيَّةُ ، الَّتِي ظَهَرَ فيهَا مَنْ ظَهَرَ مِنَ الْخُلَفَاءِ والعُلَمَاءِ وأَفذَاذِ الرِّجَالِ ، لَوْ لَمْ تُوجَدْ البَدَاوَةُ العَرَبِيَّةُ ، الَّتِي سَيْطَرَ عَلَيهَا أمْرُؤُ القَيْسِ والنَّابِغَةُ والأَعْشَى وزُهَيْرٌ وَغَيْرُهُمْ مِنْ هؤُلاَءِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ نَبْخَسُهُمْ أَقْدَارَهم ولاَ نَعْرِفُ لهمْ حَقَّهم ؟ غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا عَظِيماً بَيْنَ بَدَاوَةِ العَرَبِ وَبَدَاوَةِ اليُونَانِ : بَدَاوَةُ العَرَبِ أَثَّرَتْ فى العَرَبِ وَفِى الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، ولَمْ تُجَاوِزِ الحَضَارَةَ الإِسْلَامِيَّةَ إِلَّا قَلِيلاً ؛ وَإِذاً ، فَشُعَرَاءُ الجَاهِلِيَّةِ العَرَبِيَّةِ عَرَبٌ ، لاَ أَكْثَرُ ولَا أَقَلُّ . أَمَّا بَدَاوةُ اليُونَانِ فَقَدْ أَثَّرَتْ فى

اليُونَانِ ، وأثَّرَتْ فى الرُّومَانِ ، وأَثَّرَتْ فى العَرَبِ ، وأَثَّرَتْ فى الإِنْسَانِيَّةِ القَدِيمَةِ والمُتَوَسِّطَةِ ، وهِىَ تُؤَثِّرُ الآنَ فِى الإِنْسَانِيَّةِ الحَدِيثَةِ ، وَسَتُؤَثِّرُ فيهَا إِلى مَا شَاءَ اللّٰهُ ؛ وَإِذاً ، فَشُعَرَاءُ البَدَاوَةِ اليُونَانِيَّةِ يُونَانُ ولٰكِنَّهُمْ مِلْكٌ لِلإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا .

وَمِنْ هٰؤُلاَءِ الشُّعَرَاءِ مَنْ نَسِيَتْهُمْ الإِنْسَانِيَّةُ نِسْيَاناً تَامًّا وعاشَتْ بِآثَارِهِمْ عُصُوراً طِوَالاً ، ثُمَّ تَنَبَّهَتْ لِجَمَالِ هٰذِهِ الآثَارِ ، فأَخَذَتْ تَبْحَثُ عَنْ أَصْحَابِهَا ، وَمَا تَزَالُ تَبْحَثُ عنهمْ إِلى الآنَ دُونَ أَنْ تَجِدَهم ؛ وأَكْبَرُ الظَنِّ أَنَّهَا لَنْ تَجِدَهم أَبَداً ؛ وَإِذَنْ فَقَدْ خَلَقَتْهُمْ خَلْقاً ، وابْتَكَرَتْهُمْ ابْتِكاراً . وَبَيْنَ أَيْدِينَا مِنْهُمْ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الأَجْيَالِ الَّتِى أَنْشَأَتْهَا . بَيْنَ أَيْدِينَا الصُّورَةُ اليُونَانِيّةُ الَّتِى اخْتَرَعَها اليُونَانُ فى

القَرْنِ السّابِعِ قَبْلَ المَسِيحِ وفى القرُونِ الّتِى وَلِيَتْه ، والّتِى تُمَثِّلُ لنَا « هُومِيرُوسَ » بَطَلاً مِنَ الأبْطَالِ نَشَأَ مِنَ الزَّوَاجِ بَيْنَ نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ آسِيَا الصُّغْرَى وامْرَأَةٍ مِنْ عامّةِ النِّسَاءِ ، وَتَقُصُّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِ أَقَاصِيصَ نُعْجَبُ بها ، ولـكِنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ أنْ نُؤْمِنَ لَهَا . ثُمَّ بَيْنَ أَيْدِينَا صُورَةٌ أُخْرَى ظَهَرَتْ فى أُورُبَّا فى القَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ ، وصُورٌ أُخْرَى ظَهَرَتْ فى أُورُبَّا فى القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ ، تُمَثِّلُ « هُومِيرُوسَ » رَجُلاً مِنَ الرِّجَالِ ، وتَجتَهِدُ فى أَنْ تُنْشِئَ له سِيرَةً تُشْبِهُ سِيَرَ النَّاسِ . ثُمَّ بَيْنَ أَيْدِينَا صُورَةٌ أُخْرَى ، ظَهَرَتْ فى أُورُبَّا أَوَائلَ القَرْنِ المَاضِى ، تُنْكِرُ شَخْصَ « هُومِيرُوسَ » ، وتَجْحَدُه جُحُودًا تَامًّا ، وتَزْعُمُ أَنّ « هُومِيرُوسَ » هُوَ الأُمَّةُ اليُونَانِيَّـةُ البَدَوِيَّةُ كُلُّها ، وأَنّ « الإِلْيَاذَةَ »

و « الأُودِسَّا » أثَرَانِ مِنْ آثارِ الأُمَّةِ اليُونَانِيّةِ كُلِّهَا .
ثُمَّ بَيْنَ أيدِينَا هٰذِهِ الصُّورَةُ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا البَحْثُ
الْحَدِيثُ إِلى حِينٍ ، إِلى يَوْمٍ يَظْهَرُ باحِثٌ جَدِيدٌ يُظهِرُ
لنَا صُورَةً أُخْرَى . وهٰذِهِ الصُّورَةُ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا
البَحْثُ الآنَ تُنْكِرُ شَخْصَ « هُومِيرُوسَ » كما رَوَتْهُ
الأَسَاطِيرُ ، وَتَزْعُمُ أَنَّ هُنَاكَ أُسْرَةً كَانَتْ تُسَمَّى أُسْرَةَ
« الهُومِرِيِّينَ » تَوَارَثَتْ الشِّعْرَ القَصَصِيَّ فِيما بَيْنَها ،
وأَذَاعتْه فى البِلَادِ اليُونَانِيَّةِ . ولَسْتَ تُرِيدُ ، فِيما أَظُنُّ ،
أَنْ أُوغِلَ بِكَ فِي هَذِهِ المَبَاحِثِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُعَقَّدَةِ حَوْلَ
شَخْصِ « هُومِيرُوسَ » أَوْ أشْخَاصِ الشُّعَرَاءِ القَصَصِيِّينَ
الَّذِينَ أَنْشَأُوا « الإِلِيَاذَةَ » و « الأُودِسَّا » وغَيْرَهُما
من الشِّعْرِ القَصَصِيِّ اليُونَانِيِّ ؛ فَذَلِك شَيْءٌ لَا غَنَاءَ فيهِ
الآنَ ؛ وإِنَّما الَّذِى تَسْتَطِيعُ أَنْ تأْخُذَنِى بِهِ هُوَ أَنْ

أُبَيِّنَ لَكَ كَيْفَ كَانَ هٰؤلَاءِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ نَسِيَهُمُ التَّارِيخُ قَادَةَ الفِكرِ أَثْنَاءَ البَدَاوَةِ اليُونَانِيَّةِ وأَثْنَاءَ عَصْرٍ طَوِيلٍ مِنَ الْحَضَارَةِ اليُونَانِيَّةِ، وكَيْفَ لَا يَزَالُ هٰؤُلَاءِ الشُّعَرَاءِ يُؤَثِّرُونَ فى الْحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ إِلَى الآن؟

تَصَوَّرْ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ لَا يَقْرَءُونَ ولَا يَكْتُبُونَ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ إلى مَدْرَسَةٍ، ولَا يَسْتَمِعُونَ إلى فَيْلَسُوفٍ، ولَا يَطْمَحُونَ فى حَيَاتِهِمْ إلى أَكْثَرَ مِنَ الأَكْلِ والشُّرْبِ وَالأَمْنِ والدَّعَةِ. هَذِهِ الْجَمَاعَةُ الَّتِي تَعِيشُ هٰذِهِ العِيشَةَ الْخَشِنَةَ، تَجِدُهَا فى البِلَادِ اليُونَانِيَّةِ قَدِيمًا، وَفى البِلَادِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ، وَفى بِلَادٍ أُخْرَى لَمْ تَبْلُغْهَا الْحَضَارَةُ اليَوْمَ. تَصَوَّرْ هٰذِهِ الْجَمَاعَةَ وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا فى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ رَجُلٌ فى يَدِهِ أَدَاةٌ مُوسِيقِيَّةٌ تُشْبِهُ الرَّبَابَةَ، فَأَخَذَ يُلَحِّنُ عَلَى أَدَاتِهِ الْمُوسِيقِيَّةِ، وَاجْتَمَعَ

النَّاسُ حَوْلَهُ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، وَمَا هِيَ إِلاَّ أَنْ أَضَافَ إِلَى أَلْحَانِهِ غِنَاءً أَخَذَ يُنْشِدُهُ ، فَغَنَّى النَّاسَ بِهِ وَشَجَّعُوهُ ، وَانْدَفَعَ هُوَ فِي غِنَائِهِ ، وَإِذَا هُوَ يَقُصُّ عَلَيْهِمْ ، فِي لُغَةٍ عَذْبَةٍ سَاذَجَةٍ رَائِعَةٍ . أَخْبَارَ طَائِفَةٍ مِنَ الأَبْطَالِ يُمَثِّلُونَ الثَّرْوَةَ الَّتِي يَطْمَحُونَ إِلَيْهَا ، وَالقُوَّةَ الَّتِي يَعْتَزُّونَ بِهَا ، وَالشَّجَاعَةَ وَالبَأْسَ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْخِلَالِ الَّتِي يُكْبِرُهَا الْبَدْوُ وَيَحْرِصُونَ عَلَيْهَا لِأَنَّهَا قِوَامُ حَيَاتِهِمْ ؛ انْدَفَعَ الشَّاعِرُ فِي قَصَصِهِ يُغَنِّيهِ وَيُلَحِّنُهُ ، وَأَغْرَقَ النَّاسُ فِي الِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ ، وَإِذَا هُمْ مُعَلَّقُونَ بِشَفَتَيْهِ ، وَإِذَا هُوَ يَخْلِبُ أَلْبَابَهُمْ وَيَسْتَهْوِي عُقُولَهُمْ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ قَصَصِهِ وَغِنَائِهِ الْتَفُّوا حَوْلَه يُهَنِّئُونَه وَيُكَرِّمُونَه ، وَاسْتَبَقُوا إِلَيهِ يُضِيفُونَه وَيَمْنَحُونَهُ الْمِنَحَ ، حَتَّى إِذَا قَضَى بَيْنَهُمْ أَيَّامًا يُنْشِدُهُم وَيُجِيزُونَهُ ،

تركهم وقد حفظوا عنه كثيراً ، وقد أحيا عواطفهم وغذا عقولهم ، تركهم وانتقل إلى جماعة أخرى وقد شجعه ما لقي من الجماعة الأولى فكان أمره مع الجماعة الثانية كأمره مع الجماعة الأولى ، تصور هذه الجماعات وهؤلاء الشعراء المغنين ، توجد لنفسك صورة مقاربة للحياة اليونانية ، وتأثير الشعر فيها أيام البداوة ، تصور الشعراء العاميين الذين يقصون على الناس في قرى مصر أخبار الهلالية والزناتية يلحنونها على الربابة ؛ ولكن لا تتصور الناس الذين يستمعون لهؤلاء الشعراء متحضرين تحضر المصريين ، يلتمسون آدابهم وأخلاقهم ونظمهم المختلفة في الدين والعلم والفلسفة والسياسة ، وإنما تصورهم قوماً ليس لهم دين منظم ولا أدب مدون ولا فلسفة ولا سياسة

وإِنَّمَا الشُّعَرَاءُ يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمْ منْ هَـذَا كُلَّ شَىْءٍ ؛ تَصَوَّرْ هَـذَا تَتَمَثَّلْ تَأْثِيرَ « الإِلْيَاذَةِ » و « الأُودِسَّا » فِى الْحَيَاةِ اليُونَانِيَّـةِ الأُولَى .

ثُمَّ أَضِفْ إِلَى هَـذَا كُلِّهِ شَيْئًا آخَرَ ، وهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْأَنَاشِيدَ الَّتِي كَانَ يَتَغَنَّى بِهَا الشُّعَرَاءُ ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِى قَدَّمْتُهُ ، لم تَكُنْ كَأَخْبَارِ الهِلَالِيَّـةِ والزَّنَاتِيَّـةِ ، وإِنَّمَا كَانَتْ تَمتَازُ بِشَىْءٍ مِنَ الْجَمَالِ والرَّوْعَةِ لَيْسَ إِلى وَصْفِهِما مِنْ سَبِيلٍ ؛ فَلَمْ يَقِفْ تَأْثِيرُهَا عِنْدَ هَـذِهِ الْجَمَاعَاتِ البَادِيَةِ ، وإِنَّمَا تَحَضَّرَتْ هَـذِهِ الْجَمَاعَاتُ والْتَمَسَتْ آدَابَهَا وفَلْسَفَتَهَا ونُظُمَهَا فِى مَصَادِرَ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ الأَنَاشِيدِ ، ولَـكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لم تَسْتَطِعْ أَن تَنْسَى هَـذِهِ الأَنَاشِيدَ أَوْ تَسْلُوَهَا ، وإِنَّمـا أَخَـذَتْ تَسْتَظْهِرُهَا وتَرْوِيهـا وتَحْرِصُ عَلَيْهَا الْحِرْصَ كُلَّهُ ،

وبَالَغَتْ فِي ذَلِكَ حَتَّى عُنِيَتْ حُكُومَاتُهَا الْمُنَظَّمَةُ بِتَدْوِينِهَا عَلَى نَحْوِ ما عُنِيَتْ حُكُومَةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِتَدْوِينِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

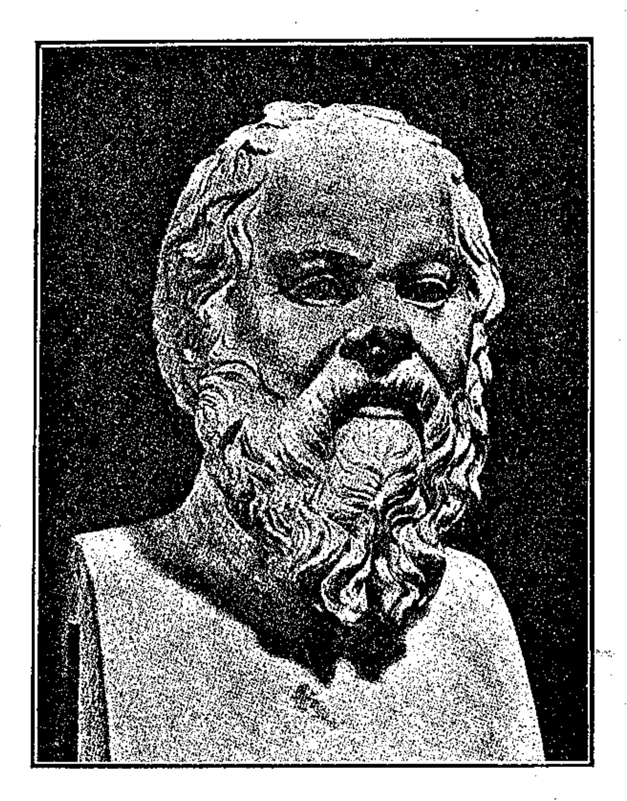
ثُمَّ لَمْ يَقِفِ الأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، وإِنَّمَا ظَهَرَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ الْيُونَانِيَّةِ شُعَرَاءُ عَدَلُوا عَنِ الْقَصَصِ إِلَى الْغِنَاءِ ، أَوْ قُلْ عَدَلُوا عَنْ هَذَا الشِّعْرِ الَّذِي يَقُصُّ سِيَرَ الأَبْطَالِ إِلَى شِعْرٍ آخَرَ يَتَغَنَّى الْعَوَاطِفَ الإِنْسَانِيَّةَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنْ حُزْنٍ وَابْتِهَاجٍ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ هَؤُلاَءِ الشُّعَرَاءُ أَنْ يَسْتَغْنُوا عَنِ الشِّعْرِ الْقَصَصِيِّ الْقَدِيمِ وإِنَّمَا الْتَمَسُوا فِيهِ مَوْضُوعَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَقِفِ الأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، وإِنَّمَا ظَهَرَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ الْيُونَانِيَّةِ شُعَرَاءُ آخَرُونَ عَدَلُوا عَنِ الْقَصَصِ والْغِنَاءِ إِلَى التَّمْثِيلِ فِي الْمَلاَعِبِ ، فَلَمْ يَبْتَكِرُوا قِصَصَهُمْ ابْتِكَاراً وإِنَّمَا الْتَمَسُوا أَكْثَرَهَا فِي

الشِّعْرِ القَصَصِيِّ القَدِيمِ . ولم يَقِفِ الأمْرُ عِنْدَ هَذا الْحَدِّ ، بَلْ ظَهَرَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ اليُونَانِيَّةِ فَلاَسِفَةٌ ومُفَكِّرُونَ عَدَلُوا عَنِ القَدِيمِ كُلِّهِ وجَدَّدُوا كُلَّ شَيْءٍ ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أنْ يَسْتَغْنُوا عَنِ الشِّعْرِ القَصَصِيِّ القَدِيمِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مُسْتَوْدَعَ المُثُلِ العُلْيَا فِي الأَخْلاَقِ والْحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ السَّاذَجَةِ البَرِيئَةِ من الفَسَادِ ، فَرَجَعُوا إِلَيْهِ فِي فَلْسَفَتِهِمْ وأَخْلاَقِهِمْ . ثُمَّ دَالَتِ الدُّوَلُ وتَغَيَّرَ الزَّمَانُ وكَانَ العَصْرُ الحَدِيثُ وأَرادَ الشُّعَرَاءُ المُحْدَثُونَ أنْ يُنْشِئُوا القِصَصَ التَّمْثِيلِيَّةَ والقَصَائِدَ الغِنَائِيَّةَ ، فالْتَمَسُوا نَمَاذِجَهُمْ عندَ شُعَرَاءِ اليُونَانِ فَإِذَا هُمْ يُنْشِئُونَ قِصَصَهُمْ وقَصَائِدَهُم عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَفْعَلُ اليُونَانُ ، مُتَأَثِّرِينَ « بِالإِلْيَاذَةِ » و « الأُودِسَّا » . ثُمَّ بَدَا لهم أنْ يُمَثِّلُوا القِصَصَ اليُونَانِيَّةَ نَفْسَهَا فَتَرْجَمُوهَا إِلَى لُغَاتِهِمْ ، وأَخَذُوا

يُمَثِّلُونَهَا حِيناً فِي اللُّغَاتِ الْحَدِيثَةِ وحِيناً فى اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ القَدِيمَةِ نَفْسِهَا . و « بَيْتُ مُلْيِيرَ » الآنَ مَعْنِيٌّ بِتَمْثِيلِ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ « سُوفُكْلِيسَ » هِيَ « أُودِيبُ فِي فِي كُولُونَا » ، أَشْتَغَلَ الْمُتَرْجِمُ بِنَقْلِهَا إِلى الفِرَنْسِيَّةِ عِشْرِينَ سَنَةً . ومِنْ قَبْلِ ذَلِكَ أَشْتَغَلَ عَمِيدُ « بَيْتِ مُلْيِيرَ » بِنَقْلِ قِصَّةِ « الفُرْسِ » « لإِسْكِيلُوسَ » وتَمْثِيلِهَا . ومِنْ قَبْلِ ذَلِكَ أَشْتَهَرَ المُمَثِّلُ الفِرَنْسِيُّ النَّابِغَةُ « سُولِي » بِتَمْثِيلِ « أُودِيبُ مَلِكا » وفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ لاَ تُوجَدُ مَدْرَسَةٌ تَحْتَرِمُ نَفْسَهَا فِي أُورُبَّا لاَ يَدْرُسُ فِيهَا الشَّبَابُ الأُورُبِّيُّ « الإِلياذَةَ » و « الأُودِسَّا » فى نُصُوصِهَا اليُونَانِيَّةِ أَوْ مُتَرْجَمَةً إِلَى اللُّغَاتِ الحَدِيثَةِ .

أَكُنْتُ مُصِيباً إِذاً حِينَ زَعَمْتُ أَنَّ شُعَرَاءَ « الإِلْيَاذَةِ » و « الأُودِسَّا » يُعَدُّونَ بِحَقٍّ مِن قَادَةِ الفِكرِ

الإِنْسَانِيّ ؟ ولَـكِنَّكَ سَتَسْأَلُنِى : مَا « الإِلْيَاذَةُ » ؟ وَمَا « الأُودِسَّا » ؟ وَلَسْتُ أُجِيبُكَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ ، وإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ تُجِيبَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ ، أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَ « الإِلْيَاذَةَ » و « الأُودِسَّا » ، لِتَعْرِفَ ما هُما ؛ وَكُلُّ ما أَطْمَحُ إِليهِ فى هَذِهِ الفُصُولِ هُوَ أَنْ أُشَوِّقَكَ إِلَى أَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا قَلِيلًا أَوْ كَثِيراً مِن آثَارِ الْمُفَـكِّرِينَ الَّذِينَ أَتَّخِذُهُمْ مَوْضُوعًا لهذِهِ الأَحَادِيثِ .



سقراط

سُقْرَاط

رَأَيْتَ فِي الفَصْلِ الْمَاضِي كَيْفَ كَانَتْ قِيَادَةُ الفِكْرِ إِلَى الشُّعَرَاءِ فِي العُصُورِ الأُولَى مِنْ حَيَاةِ الأُمَّةِ اليُونَانِيَّةِ وغَيْرِها مِنَ الأُمَمِ الَّتِي تُشْبِهُهَا قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً . وَرَأَيْتَ كَيْفَ كَانَ هؤلاَءِ الشُّعَرَاءِ يَقُودُونَ الفِكْرَ فِي شُعُوبِهِمْ المُخْتَلِفَةِ ، وَرَأَيْتَ الطُّرُقَ الَّتِي كَانُوا يَسْلُكُونَهَا لِتَكْوِينِ الآرَاءِ والسَّيْطَرَةِ عَلَى العُقُولِ . وأُرِيدُ فِي هَذَا الفَصْلِ أَنْ أُبيِّنَ لَكَ ، فِي شَيْءٍ مِنَ الإِيجَازِ الشَّدِيدِ الَّذِي أَنَا مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ اضْطِرَاراً ، كَيْفَ انْتَقَلَتْ قِيَادَةُ الفِكْرِ مِنَ الشُّعَرَاءِ إِلَى طَائِفَةٍ أُخْرَى هِيَ طَائِفَةُ الفَلاَسِفَةِ ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ هؤلاَءِ الفَلاَسِفَةُ أَنْ يَقُودُوا

الفِكْرَ وَيُدَبِّرُوهُ ، وماذا اتَّخَذَ هؤلاءِ الفَلاسِفَةُ مِنْ طَرِيقٍ لِقِيادَةِ الفِكْرِ وتَدْبِيرِهِ .

وفي الحقِّ أَنَّ قِيادَةَ الفِكْرِ لم تَنْتَقِلْ مِنَ الشُّعَرَاءِ إلَى الفَلاسِفَةِ فى يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، بَلْ لم تنتقِلْ إليْهِمْ فى عامٍ ولاَ أعوامٍ ، بَلْ لمْ تنتقِلْ إليهِمْ فى عَشَرَاتِ السِّنِينَ ، وَإنَّما احْتَاجَتْ إلى القُرُونِ الطِّوَالِ لِتُصْبِحَ مِلْكَ الفَلاسِفَةِ بَعْدَ أَنْ كانَتْ مِلْكَ الشُّعَرَاءِ . احْتَاجَتْ إلى القُرُونِ الطِّوَالِ ، واحتاجتْ مَعَهَا إلى أشْيَاءَ كَثِيرَةٍ نَسْتَطِيعُ أنْ نَخْتَصِرَها فى هَذِهِ الكلمةِ الصَّغِيرَةِ الَّتى تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ لا تَكَادُ تُحْصَى ، وهِىَ كلمةُ « التَّطَوُّر » . ذَلِكَ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَشْعُرَ بِهَذَا الفَرْقِ العَظِيمِ بَيْنَ الشِّعْرِ مِنْ جِهَةٍ وَالفَلْسَفَةِ من جهَةٍ أُخْرَى لِتَعْلَمَ أَنْ ليسَ مِنَ السَّهْلِ وَلاَ مِنَ اليَسِيرِ أَنْ يَخْضَعَ

كَانتْ إليهِ قِيَادَةُ الرَّأى فِى العُصُورِ الأُولَى ، مَظْهَراً مِنْ مَظَاهِرِ الطُّفُولَةِ الإِنْسَانِيَّـــةِ وصُورَةً مِنْ صُوَرِ الحَيَاةِ السَّاذَجَةِ الغَلِيظَةِ ؟ وإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَالْفَرْقُ بَيْنَ الشِّعْرِ وَبَيْنَ الفَلْسَفَةِ عَظِيمٌ ، ذَلِكَ أَنَّ الفَلْسَفَةَ لاَ تَعْتَمِدُ عَلَى الخَيَالِ ولاَ تَعْتَزُّ بِهِ ، وإِنَّمَا هِىَ مَظْهَرُ الحياةِ العَقْلِيَّةِ القَوِيَّةِ ؛ هِىَ وَسِيلَةُ الإِنْسَانِ إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الحقَائِقَ كَمَا هِىَ ويَحْكُمَ عَلَيْهَا الأَحْكَامَ الَّتِى تُلاَئِمُ طَبَائِعَهَا ، أَوْ قُلْ : إِنَّهَا الوَسِيلَةُ إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الإِنْسَانُ الحقَائِقَ ويَحْكُمَ عَلَيْهَا بِعَقْلِهِ لاَ بِخَيَالِهِ ولاَ بِحِسِّهِ ولاَ بِشُعُورِهِ . تَعْتَمِدُ الفَلْسَفَةُ عَلَى النَّقْدِ ، وَيَعْتَمِدُ الشِّعْرُ عَلَى التَّصْدِيقِ . وَلِأَجْلِ أَنْ يَنْتَقِلَ الإِنْسَانُ مِنْ هَــــذِهِ الحيَاةِ ، الَّتِى يَبْهَرُهُ فِيهَا كُلُّ شَىْءٍ وَيَسْتَأْثِرُ بِهِ فِيهَا كُلُّ شَىْءٍ ، إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى

لاَ يَخْضَعُ فِيهاَ لِتأْثِيرِ الأشْيَاءِ ، وإِنَّما يُحَاوِلُ ، أَوْ يعْتَقِدُ أَنَّهُ يُحَاوِلُ ، أَنْ يُخْضِعَ الأشْيَاءَ لِتَأْثِيرِهِ وسُلْطَانِهِ ، أَقولُ : لِأجْلِ أَنْ يَنْتَقِلَ الإنْسَانُ مِنْ تِلْكَ الْحَياةِ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ عُصُورٍ طِوَالٍ تَنْمُو فيهاَ مَلَكَاتُه وتَسْتَحِيلُ .

تَصَوَّرْ هَـذِهِ الشُّعُوبَ الأُولَى الَّتِي كَانَتْ تَرْهَبُ كُلَّ شَىْءٍ وَتَتَأَثَّرُ بِكُلِّ شَىْءٍ وتَرَى فِى كُلِّ شَىْءٍ إِلٰهًا تَخَافُه وتَتَمَلَّقُهُ وتَتَرَضَّاه : تَرَى فى الهَوَاءِ إِلٰهاً ، وفى المَاءِ إِلٰهاً ، وفى الأَرْضِ إِلٰهاً ! ماذَا أقولُ ؟ بَلْ تَرَى فى الأَحْجَارِ والْحَشَرَاتِ والأشْجَارِ والأنْهارِ وأَلْوَانِ النَّبَاتِ آلِهةً تُقَدِّمُ إِليها الصَّلَوَاتِ وضُرُوبَ القُرْبانِ ، وتُنَظِّمُ حيَاتَها عَلَى إِكْبارِ هٰـذِهِ الأَشْياءِ وإِجْلاَلِها ؛ وتَتَّخِذُ مِنْ هَذَا الإِكْبارِ والإِجْلاَلِ قَوَاعِدَها الْخُلُقِيَّةَ

والسِّيَاسِيَّةَ والِاجْتِماعِيَّةَ . ثُمَّ تَصوَّرْ هَـذِهِ الشُّعُوبَ وقَدْ تَغيَّرَتْ واُستَحالَتْ ، فهِيَ لاَ تَرْهَبُ الأشْياءَ وَلا تَخَافُها ، بَلْ تُحَاوِلُ إخْضاعَها وتَذْلِيلَها واُسْتِخْدَامَها ؛ فهي لا تَرَى فى الهَوَاءِ إِلٰهاً ، وإِنَّما هِيَ تُحَاوِلُ أنْ تَفْهَمَ الهَوَاءَ وأَنْ تَسْتَخْدِمَه فى حَاجَاتِها وَمَنافِعِها . وهِيَ لا تَرَى فى الماءِ إِلٰهاً ، وَإِنَّما تَرَى فيه عُنصُراً مِن العَنَاصِرِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُسْتَخْدَمَ لحَاجةِ الإِنْسَانِ ولَذَّتِهِ . وَعَلَى الْجُمْـلَةِ هِيَ لا تَعبُدُ الأشْيَاءَ ، وإِنّما تَسْتَذِلُّها وتَسْتَخْدِمُها . تَصوَّرْ هَذِهِ الشُّعُوبَ فى هَاتَيْنِ الحالَيْنِ تَشْعُرْ بالفَرْقِ العَظِيمِ بينَ هَـــذَينِ العَصْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يُسَيْطِرُ الشِّعْرُ فى أَحَدِهما عَلَى الحياةِ وتُسَيْطِرُ الفَلسفةُ فى أَحَدِهما الآخَرِ عَلَيْها ، ثُمَّ تَشْعُرْ بِهَذَا الزَّمَنِ الطَّويلِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَقْضِيَه الشُّعُوبُ لِتَنْتَقِلَ مِن إحدَى

هاتَيْنِ الحياتَيْنِ إلى الأُخْرَى . ونَحْنُ إذَا سأَلْنَا التَّارِيخَ عَنْ مِقْدَارِ القُرُونِ الَّتِي قَضَتْها الأُمَّةُ اليُونَانِيَّةُ مَثَلاً لِتَسْتَبْدِلَ العَقْلَ بِالْخَيَالِ ولِتُدِيلَ لِلْفَلْسَفَةِ من الشِّعْرِ ، أَنْبأَنَا بأَنّ هَذِهِ القُرُونَ ليستْ أَقَلَّ مِنْ خمسةٍ أَوْ سِتَّةٍ . فَقَدْ كَانَ سُلْطانُ الشِّعْرِ القَصَصِيّ مُسَيْطِراً عَلَى الحَيَاةِ اليُونَانِيَّةِ سَيْطَرَةً كامِلةً فِي القَرْنِ الحادِيَ عشَرَ والعاشرِ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، ثم أَخَذَ العَقْلُ اليُونَانِيُّ يُوجَدُ ويَنْمُو وَيُسَيْطِرُ قَلِيلاً قَلِيلاً عَلَى الحَيَاةِ . وَالغَرِيبُ أَنَّ سَيْطَرتَهُ الأولى عَلَى الحَيَاةِ لم تَأْخُذْ مَظْهَراً فَلسَفِيًّا وإنَّما احْتَفَظَتْ بالصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ — أُرِيدُ أَنَّ العَقلَ أَثَّرَ فِي الشِّعْرِ فَجَعَلَ حَظَّه مِنَ الفَهْمِ والحُكْمِ أَعْظَمَ مِنْ حَظِّه مِن الْخَيَالِ والحِسِّ ، وأَخَذْنَا نَجِدُ فِي الشِّعْرِ القَصَصِيِّ ضُرُوباً مِن الفَهْمِ أَوْ مُحَاوَلَةِ الفَهْمِ ، وَأَلوانًا من الحُكْمِ أَوْ

مُحَاوَلَةِ الْحُكْمِ لَمْ نَكُنْ نَجِدُهَا فِيهِ مِنْ قَبْلُ . وَمَعْنَى ذٰلِكَ أَنَّ العَقْلَ أَخَذَ يَخْتَلِسُ سَبِيلَه إِلى الحَيَاةِ اُخْتِلَاساً ويَسْلُكُ إِلَيْها طُرُقاً خَفِيَّةً ، يَسْلُكُها شَيْئاً فشَيْئاً دُونَ أَنْ يَشْعُرَ النَّاسُ بِذَلِكَ أَوْ يَلْتَفِتُوا إِليهِ . وأَخَذَ الشِّعْرُ كُلَّمَا عَظُمَ فِيهِ تأْثِيرُ العَقْلِ يَفْقِدُ جَمَالَه الأَوّلَ وسَذَاجَتَه الطَّبِيعِيَّةَ شَيْئاً فَشَيْئاً ، حَتَّى اُسْتَحَالَ إِلى شَيْءٍ لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُسَمِّيَه شِعْراً ، وإِنَّما نَحْنُ مُضْطَرُّونَ إِلَى أَنْ نُسَمِّيَه نَظْماً . ورُبَّما كَانَ أَحسَنَ مَظْهَرٍ لِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِى يَنْتَصِرُ فيهِ سُلْطانُ العَقْلِ عَلَى سُلْطانِ الْخَيَالِ ، والَّذِى هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِكُتُبِ التَّعْلِيمِ وفُصُولِ الفَلْسَفَةِ ، وأَبْعَدُ شَيْءٍ عَنْ هَذَا الشِّعْرِ الرَّائِعِ الْخَلَّابِ ، هَذِهِ القَصَائِدُ الَّتِى تُنْسَبُ إِلى الشَّاعِرِ اليُونَانِيِّ « هِسيُودُس » ولَا سِيَّمَا هٰذِهِ القَصِيدَةُ الطَّوِيلَةُ الَّتِى تُسَمَّى « الأَعْمَالَ والأَيَّامَ » والَّتِى

تجدُ فِيها ضُرُوباً مِنَ الأدَبِ وألْوَاناً مِنَ العِلْمِ مُخْتَلِفَةً ، تَجِدُ فِيها الأخْلاقَ مُنظَّمةً مُرَتَّبةً ، يَسْتَدِلُّ الشَّاعِرُ عَلَى خَيْرِهَا وعَلَى شَرِّها اُسْتِدْلالاً لَيْسَ فَلْسَفِيًّا كاُسْتِدْلالِ « سُقْرَاطَ » ، ولٰكِنَّهُ لَيْسَ شِعْرِيًّا كاُسْتِدْلالِ شُعَرَاءِ « الإِليَاذَةِ » و « الأُودِسَّا » ، وإِنَّما هُوَ شَيْءٌ بَيْنَ بَيْنَ ، لَه نَصِيبٌ مِن الْخَيَالِ ، وفيهِ حَظٌّ مِن التَّفكيرِ والتأمُّلِ والتَّجْرِبَةِ ، ثُمَّ تَجِدُ فِيها إِلى جَانِبِ الأَخْلاقِ ضُرُوباً منَ التَّعْلِيمِ العَمَلِيِّ يَمَسُّ الزِّرَاعَةَ وفُصُولَهـا وحَاجاتِهَا ونُظُمَهَا ، ثُمَّ تَجِدُ فيهَا ضُرُوباً مِنَ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ يَصِفُ الآلِهةَ وأخْلاقَهُم ، وَالصِّلَةَ بَيْنَهم وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا أعْظَمَ الفَرْقَ بَيْنَ الآلِهَةِ فى هَذَا الشِّعْرِ وَبَيْنَهمْ فى الشِّعْرِ القَصَصِيِّ القَدِيمِ . وَكَان سُلْطانُ هَذَا الشِّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ مُنْبَسِطاً عَلَى الأُمَّةِ اليُونَانِيَّةِ فى القَرْنِ الثامِنِ

قَبْلَ الْمَسِيحِ ، وكانَ الْمُنْشِدُونَ يَنْتَقِلُونَ بِهِ فى الْمُدُنِ وَالقُرَى وَيُلْقُونَهَ عَلَى الْجماعَاتِ ، كما كانَ الْمُنْشِدُون يَنْتَقِلُونَ « بالإلياذَةِ والأُودِسَّا » مِنْ قَبْلُ .

غيْرَ أَنَّهُ مِنَ الحقِّ أَنْ نَتَبَيَّنَ بَعْضَ الأسْبابِ الَّتى دَعَتْ إِلَى هَذَا التَّطَوُّرِ ، وجَعَلَتْه أمْراً مَحْتُوماً ، إذا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نُحْصِيهَا كُلَّها . وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْها إلاَّ سَبَبيْنِ اثْنَيْنِ ، أعتقِدُ أَنَّ لَهُمَا أَعْظَمَ الأَثَرِ فِي هَذَا التَّطوّر : أَحَدُهما سَبَبٌ اقْتِصَادِيٌّ ، والآخَرُ سِياسِيٌّ واجْتِماعِيٌّ .

فأمَّا السَّبَبُ الاقْتِصَادِيُّ فَهُوَ هَـذَا التَّغَيُّرُ الَّذِى طَرَأَ عَلَى الحياةِ اليُونَانِيَّةِ فأقَرَّهَا فى الْمُدُنِ والقُرَى ، ونَظَّمَ لَهَا الحُكُومَاتِ وأنْوَاعَ السُّلْطَانِ ، وجَعَلَها حَاضِرَةً بَعْدَ أَنْ كَانتْ بَادِيةً فِى هٰذِهِ الحَيَاةِ الحَضَرِيَّةِ

تَغَيَّرَ شعُورُ اليُونَانِ بِالأشْيَاءِ وفَهْمُهم إِيَّاها وحُكْمُهمْ عَلَيها ، وأَخَذُوا بِحُكْمِ الزِّرَاعَةِ والتِّجارَةِ والصِّناعَةِ يَشْعُرُونَ بسُلْطَانِهمْ عَلَى الطَّبِيعَةِ وأَخَذُوا يَرْهَبُونَ هٰـذِهِ الطَّبِيعةَ أَقَلَّ مِمَّا كَانُوا يَرْهَبُونَهَا مِنْ قَبْلُ . كَانُوا فى العُصُورِ الأُولَى يَجْنُونَ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ عَلَى أَنَّها نِعْمَةٌ مِنَ الآلِهَةِ ؛ أَمَّا الآنَ فَهُمْ يُكْرِهُون هٰذِهِ الأَرْضَ عَلَى أَنْ تُعْطِيَهُم ثَمَرَاتِها . أَضِفْ إِلَى هٰذَا أَنَّهُـمْ كَانُوا يَجْهَلُونَ المِلْـكِيَّةَ ونَتَائِجَهَا ، أَمَّا اليَوْمَ فَقَدْ عَرَفُوا المِلْـكِيَّةَ ، وأَخَذَتْ كُلُّ أسْرَةٍ تَحْرِصُ عَلَى حَظِّهَا مِنَ الأَرْضِ ، ونَشَأَتِ الخُصُـوماتُ بَيْنَ الأُسَرِ واشْتَدَّ تَنَازُعُ المَنَافِعِ . فلَيْسَ غَرِيباً أَنْ يَكُونَ لِهٰذَا كُلِّه تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فى تَكْوِينِ العَقْلِ وبَسْطِ سُلْطَانِه عَلَى الحياةِ .

السَّبَبُ الثَّانى أَنَّ هَذِهِ الجماعاتِ اليُونَانِيَّـةَ الَّتى

اُسْتَقَرَّتْ فى الأَرْضِ وتَحَضَّرَتْ بَعْدَ بَدَاوةٍ وأَخَذَتْ تَجْنِى ثَمَرَاتِ الْحَضَارَةِ الْحُلْوةَ ، أَخَذَتْ فى الوَقْتِ نَفْسِهِ تَبْلُو ثَمَرَاتِهَا الْمُرَّةَ : ضَاقَتْ بِهَا الأَرْضُ ، واُشْتَدَّتْ بَيْنَهَا الْخُصُوماتُ ، فَعَرَفَتِ الحَرْبَ الدَّاخِلِيَّةَ والحَرْبَ الخارِجِيَّةَ ؛ واضْطُرَّتْ ، بِحُكْمِ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ من الحَرْبِ ، الى ضُرُوبٍ مِنَ الْمُهَاجَرَةِ والضَّرْبِ فى الأَرْضِ فَاسْتَعْمَرَتْ بِلاَداً بعِيدَةً فى أَقطَارٍ مِن الأَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ ، فى آسِيَا وفى إِيطَالِيَا وصِقِلِّيَّةَ وفَرَنْسَا وأَسْبَانِيَا بَلْ فى إِفْرِيقِيَّةَ أيضاً . وأَنْتَ تَعْلَمُ هٰذِهِ النَّتِيجَةَ الْمَحْتُومَةَ الَّتِى يُحْدِثُهَا اُخْتِلَاطُ الشُّعُوبِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وما يَنْشَأُ بَيْنَهَا مِن حَرْبٍ وجِهَادٍ . تَنَبَّهَ العَقْلُ اليُونَانِىُّ بِحُكْمِ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وأَخَذَ يَفْهَمُ الْحَيَاةَ عَلَى نَحْوٍ جدِيدٍ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفاً لَهُ مِنْ قَبْلُ . وكَانَ رُقِىُّ العَقْلِ مُصَاحِباً لِرُقِىٍّ

آخَرَ هُوَ الرُّقِيُّ السِّيَاسِيُّ ، فَلَمْ تَكُنِ الأُمَّةُ اليُونَانِيَّةُ
فى حَيَاتِهَا السِّيَاسِيَّةِ أَثْنَاءَ القَرْنِ الثَّامِنِ والسَّابِعِ كَمَا
كانتْ أَثْنَاءَ القَرْنِ العَاشِرِ والتَّاسِعِ ، إِذْ بَيْنَمَا كانَتِ
الْحَيَاةُ السِّيَاسِيَّةُ فى العُصُورِ الأُولَى مَلَكِيَّةً خَالِصَةً
تَعْتَمِدُ عَلَى سُلْطَانِ الدِّينِ وَحْدَه إِذَا بِهَا أَصْبَحَتْ فى هَذَا
الطَّوْرِ الثَّانى أَرِسْتُقْرَاطِيَّةً يَنْتَقِلُ فيها الْحُكْمُ مِنَ المَلِكِ ،
الَّذِى كَانَ مِثَالاً لإِلٰهٍ مِنَ الآلِهَةِ ، إِلى الأَشْرَافِ الَّذِين
يُمَثِّلُونَ الأُسَرَ ومَنَافِعَهَا وحَاجَاتِهَا ، أَى أَنَّ الْحُكْمَ انْتَقَلَ
مِنَ الفَرْدِ إِلى الجَمَاعَةِ ، أَىْ أَنَّ الجَمَاعَةَ وأَفْرَادَها أَخَذُوا
يَشْعُرُونَ بِوُجُودِهِمْ وشَخْصِيَّاتِهِمْ ويُحاوِلُون أَنْ يَجْعَلُوا
هَذَا الوُجُودَ وهٰذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ أُمُوراً مُعْتَرَفاً بها
لا تَقْبَلُ نِزَاعاً ولا جِدَالاً ؛ وبِعِبَارَةٍ مُجْمَلَةٍ : أَخَذَتْ
شَخْصِيَّةُ الفَرْدِ تَظْهَرُ قَليلاً قَليلاً ، وسُلْطَانُ الفَرْدِ

يَتَغَلَّبُ عَلَى سُلْطَانِ الجَمَاعَةِ ؛ ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا إلاَّ نتيجةً لِتَنَبُّهِ العَقْلِ وعِظَمِ حَظِّهِ من الْحياةِ . ثُمَّ تَتَبَّعْ هَذِهِ الشُّعُوبَ اليُونانيَّةَ ، سَوَاءٌ فى بِلاَدِها الأولَى أوْ فى مُسْتَعْمَرَاتِها الجديدَةِ ، تَجِدْ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ التَّطَوُّرِ مُطَّرِدَيْنِ ، يَنْمُو العَقْلُ فتقْوَى شَخْصِيَّةُ الفَرْدِ وتَشْتَدُّ مَطَامِعُه ، وتَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الثَّوْرَاتُ السِّيَاسِيَّة ؛ ثُمَّ تَنْمُو المَنَافِعُ الاقْتِصَادِيَّةُ العَامَّةُ فتَظْهَرُ الْخصُوماتُ بَيْنَ الْمُدُنِ وتَنْشَأُ بَيْنَهَا الْحُرُوبُ ، ويَنْتُجُ عَنْ هَـذَا كُلِّه أَنواعٌ مِنَ النُّظُمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ ؛ والدَّوْلِيَّةِ لَمْ تَكُنْ مألوفةً مِنْ قَبْلُ . ومِن هُنَا لَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ القَرْنُ السَّابعُ حَتَّى نَجِدَ بلادَ اليُونَانِ كلَّها ، أو أكْثَرَها ، فى ثَوْرَةٍ سِياسِيَّةٍ اجتماعِيَّةٍ مُتَّصِلَةٍ . فليْسَ النِّزَاعُ الآنَ بَيْنَ المُلُوكِ وَالأرِسْتُقْرَاطِيَّةِ

كما كانَ في القَرْنِ الماضي ، وإنّما هُوَ بَيْنَ الأرستقْرَاطِيَّةِ وأفْرَادِ الشَّعْبِ . وليسَ لِهَذَا مَعْنًى إلاَّ أنّ سُلْطانَ الحياةِ العَقْلِيَّةِ قد أخَذَ ينمُو ويَمْتَدُّ ، حَتى أخَذَ الأفرادُ جَمِيعاً عَلَى اخْتِلاَفِ طَبقَاتِهِمْ يَشْعُرُونَ بِشَخْصِيَّاتِهِم وحَقِّهِم ، لا فِي الوُجُودِ وَحْدَه ، بل في الوُجُودِ وفي الحُكمِ أَيْضاً .

هَذَا التَّطَوُّرُ الَّذِى لَمْ يَعْرِفْه العَالَمُ القَدِيمُ إلاَّ فِي البِلاَدِ اليُونَانِيَّةِ وفي البِلاَدِ الرُّومَانِيَّةِ مِنْ بَعْدُ ، والَّذِى لم يَحْدُثْ وَحْدَه ، وإنَّما حَدَث مَعَه تَطَوُّرٌ عَقْلِيٌّ لم يَعْرِفْه العَالَمُ القَدِيمُ مِنْ قَبْلُ ، وكانَ له الأَثَرُ كُلُّ الأثَرِ في حَيَاةِ الإنسانيّةِ مِنْ بَعْدُ ، يَدْعُونَا إلى أن نَعْرِضَ لِمَسْألةٍ تَحْتَاجُ إلَى شَىْءٍ مِنَ التَّفْكِيرِ .

بين الشرق والغرب

هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ العَلَاقَةُ بَيْنَ اليُونَانِ والشَّرْقِ الْمُتَحَضِّرِ. فأنتَ تعلَمُ أنّه بَيْنَمَا كانَتِ الأُمَّةُ اليُونَانِيَّةُ خَاضِعَةً لسُلْطَانِ الشِّعْرِ القَصَصِيِّ الَّذِى يُمَثِّلُها سَاذَجَةً جَاهِلَةً قَلِيلَةَ الْحَظِّ مِنَ النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ والِاجْتِمَاعِيَّةِ الرَّاقِيَةِ، كَانَ الشَّرْقُ قَدِ انْتَهَى إِلى دَرَجَاتٍ من الحَضَارَةِ مُخْتَلِفَةٍ ولَـكِنَّها رَاقِيَةٌ لا تُقَاسُ إِليها حَيَاةُ اليُونَانِ: كَانَ السَّامِيُّونَ فى بَابِلَ وآشُورَ وغَيْرِهِمَا، قَدْ بَسَطُوا سُلْطَانًا ضَخْمًا، وأَسَّسُوا حُكُومَاتٍ قَوِيَّةً مُنَظَّمَةً، وانْتَهَوْا إِلى أَلْوَانٍ من الفَنِّ والعِلْمِ لا تَزَالُ تَبْهَرُنَا إِلى الآنَ؛ ولَسْتَ فى حَاجَةٍ إِلَى أَن أُحَدِّثَكَ عمّا كانتْ مِصْرُ قَدِ انْتَهَتْ إِليهِ من الحَضَارَةِ. وإِذًا، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ

فى أَنَّ الِاتِّصَالَ قَدْ وُجِدَ واشْتَدَّ بَيْنَ هٰذِهِ الأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ الرَّاقِيةِ وهٰـذِهِ الأُمَّةِ اليُونَانِيَّةِ السَّاذِجَةِ . وُجِدَ هَذَا الِاتِّصالُ واشْتَدَّ ، وتأَثَّرَتْ الأُمَّةُ اليُونَانِيَّةُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ بالحضَارَاتِ الشَّرْقِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ ، وأَخذَتْ عَنِ السَّامِيِّينَ فى آسْيا ، وعَنِ المِصْرِيِّينَ فى إِفرِيقيَّةَ ، أَشياءَ كَثِيرةً مُخْتَلِفَةً . ولَمْ تَـكُنِ الأَمَّةُ اليُونَانِيَّةُ جاحِدَةً ولا مُنْـكِرةً للْجَمِيلِ ، وإِنَّما كَانَتْ شَدِيدَةَ الِاعْتِرَافِ بالْجمِيلِ ، ورُبَّما بالَغتْ فِيهِ مُبَالَغَةً شَدِيدَةً أيْضاً ، فنسَبَتْ كثِيراً مِنَ الأشياءِ إِلَى الشَّرْقِيِّينَ ، بَلْ نَسبَتْ مُدُناً مُخْتَلِفَةً إِلى المِصْرِيِّينَ حِيناً ، وإِلى الفِينِيقِيِّينَ حِيناً آخرَ ، وعَدَّتْ نَفْسَها دائماً تِلْميذَةً للأُمَّةِ المِصْرِيَّةِ وغَيْرِها مِنَ الأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ الآسِيَوِيَّةِ فى الحضَارَةِ وأَلْوَانِ الفَنِّ .

فإِلى أىِّ حَدٍّ كَانَ تأْثيرُ هٰذِهِ الأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ فى الأُمَّةِ

اليُونَانِيَّةِ ؟ ثم إلى أىِّ حَدٍّ كَانَ تأثيرُ هذه الأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ فى تَكْوِينِ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ ، الَّتِى لا تَزَالُ تُدَبِّرُ حَيَاةَ العَقْلِ الإنْسَانِىِّ إلى الآنَ ؟ هٰذِهِ هِىَ المَسْأَلةُ الَّتِى نُرِيدُ أَنْ نقولَ فِيها كَلِمَةً مُوجَزَةً ؛ ونأسَفُ لِأَنَّ قَوْماً قد لا يَرْضَوْنَ ، ولٰكِنَّ الحقَّ أحقُّ أَنْ يُتَّبَعَ .

نَعْتَقِدُ — ونَظُنُّ أَنَّ غيْرَنَا مِن مُؤَرِّخِى الفَلْسَفَةِ المُحْدَثِينَ يَعْتَقِدُ أيْضاً — أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلشَّرْقِ فى تَكْوِينِ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ والعَقْلِ اليُونَانِىِّ والسِّيَاسَةِ اليونانيَّةِ تأثيرٌ يُذْكَرُ ؛ إنَّما كانَ تأثيرُ الشَّرْقِ فى اليُونانِ تأثيراً عَمَلِيًّا مَادِّيًّا ليسَ غَيْرُ . فَقَدْ أَخَذَ اليُونانُ عَنِ الشَّرْقِيِّينَ أشياءَ كَثِيرَةً ولٰكِنَّها عَمَلِيَّةٌ مَادِّيَّةٌ كما قلنا ، أَخَذُوا عنهمْ — مَثَلاً — نِظَامَ النَّقْدِ ، وأَخَذُوا عنهمْ نظامَ المَقَايِيسِ ، وأَخَذُوا عنهمْ شَيْئاً مِنَ المُوسِيقى ،

وَتَعَلَّمُوا مِنهم فُنُونًا عَمَلِيَّةً كَالْحِسَابِ والهَنْدَسَةِ ؛ ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا عنهم شَيْئًا عَقْلِيًّا يُذْكَرُ . فَلَئِنْ كَانَ البَابِلِيُّونَ قَدْ رَصَدُوا النُّجُومَ ووَصَلُوا مِنْ ذَلِكَ إِلى نَتَائِجَ قَيِّمَةٍ ، فهُمْ لَمْ يَضَعُوا عِلْمَ الفَلَكِ ؛ وإِنَّمَا هَذَا العِلْمُ يُونَانِيٌّ ، لم يَنْشَأْ عَنِ النَّتَائِجِ البَابِلِيَّةِ وَإِنَّمَا نَشَأَ عَنْ البَحْثِ اليُونَانِيِّ والفَلسفةِ اليُونَانِيَّةِ . ولَئِنْ كَانَ المِصْرِيُّونَ قَدْ وَصَلُوا إِلى نَتَائِجَ قَيِّمَةٍ مِنَ الهَنْدَسَةِ العَمَلِيَّةِ والآلِيَّةِ فليْسَ المِصْرِيُّونَ هُمُ الَّذِينَ وَضَعُوا عِلْمَ الهَنْدَسَةِ ، وإِنَّمَا اليُونَانُ هُمُ الَّذِينَ ابْتَكَرُوهُ ابْتِكَارًا . هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ ، ومِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى نَجِدُ عِنْدَ اليُونَانِ أشياءَ لا نَجِدُ شَيْئًا يُشْبِهُهَا فى الشَّرْقِ القَدِيمِ : نَجِدُ عندَهم هَذِهِ المَذَاهِبَ الفَلْسَفِيَّةَ المختلفَةَ الَّتِي حَاوَلَتْ مُنْذُ القَرْنِ السَّادِسِ قَبْلَ المَسِيحِ فَهْمَ الكَوْنِ وتَفْسِيرَهُ وتَعْلِيلَه ، ثُمَّ نَجِدُ عِنْدَهم

هٰذِهِ الفَلْسَفَةَ ، فَلْسَفَةَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ ، وما نَشَأَ عنها مِنْ أَنْوَاعِ البَحْثِ الَّتِي نَظَّمَتِ العَقْلَ الإِنْسَانِيَّ ، وَلاَ تَزَالُ تُنَظِّمُهُ إِلَى الآنَ ، ثُمَّ نَجِدُ عِندَهم هـذه الفَلْسَفَةَ الْخُلُقِيَّةَ الَّتِي أَنْشَأَتْ عِلْمَ الأَخْلاَقِ ، والَّتِي لَمْ يَعْرِفْها العَالَمُ القَـدِيمُ مِنْ قَبْلُ . ونُحِبُّ أَنْ نُلاَحِظَ أَنَّ العَقْلَ الإِنْسَانِيَّ ظَهَرَ فِى العَصْرِ القَدِيمِ مَظْهَرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ : أَحَدُهما يُونَانِىٌّ خَالِصٌ ، هُوَ الَّذِى انْتَصَرَ ، وهُوَ الَّذِى يُسَيْطِرُ على الْحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّـةِ إِلَى اليَوْمِ ؛ والآخَرُ شَرْقِيٌّ انْهَـزَمَ مَرَّاتٍ أمامَ المَظْهَرِ اليُونَانِيِّ ، وَهُوَ الآنَ يُلْـقِي السِّلاَحَ ويُسَلِّمُ لِلمَظْهَرِ اليُونَانِيِّ تَسْلِيماً . . .

بَيْنَمَا نَجِدُ العَقْلَ اليُونَانِيَّ يَسْلُكُ فِى فَهْمِ الطَّبِيعَةِ وتَفْسِيرِها هَـذَا المَسْلَكَ الفَلْسَفِيَّ الَّذِى نَشَأَتْ عنه فَلْسَفَةُ سُقْرَاطَ وأَفْلاَطونَ وأَرِسْطَاطَالِيسَ ، ثُمَّ

فلسَفَةُ « دِيكَرْت » « وكَنْت » « وكُنْتْ » « وهِجْل » « وسبِنْسَر » ، نَجِدُ العقْلَ الشَّرْقِيَّ يَذْهَبُ مَذْهَباً دِينِيًّا قَائِماً فى فَهْمِ الطَّبِيعَـةِ وتَفْسِيرِها : خَضَعَ لِلكُهَّانِ فى عُصُورِهِ الأولَى ، ولِلدِّيَانَاتِ السَّماوِيَّةِ فى عُصُورِه الرَّاقِيـةِ ، وامتَازَ بالأنبياءِ كما امتـاز العالَمُ اليُونَانِىُّ الغَرْبِىُّ بالفَلاَسِفَةِ .

هُنَاكَ شَىْءٌ آخَرُ نَجِدُه عِندَ اليُونَانِ ، ولا نَجِدُه فى الشَّرْقِ ، وَهُوَ هَذَا التَّطَوُّرُ السِّيَاسِىُّ الخِصْبُ الَّذِى أحدَثَ النُّظُمَ السِّيَاسِيَّةَ المخْتلِفةَ فى المُدُنِ اليُونَانِيَّةِ مِنْ مَلَـكِيَّةٍ وجُمْهُورِيَّةٍ وأَرِسْتُقْرَاطِيَّةٍ ودِيمُقْرَاطِيَّةٍ مُعْتَدِلَةٍ أَوْ مُتَطَرِّفةٍ ، والَّذِى لا يَزَالُ أَثَرُهُ قَوِيًّا فى أُورُبَّا إِلَى اليومِ ، والَّذِى أَخَذَ الشَّرْقُ يَتَأَثَّرُ بِهِ فى نُظُمِه السِّيَاسِيَّةِ أيْضاً . وَبَيْنَمَا كانت المُدُنُ اليُونَانِيَّةُ تَخْضَعُ لِهَـذَا

التَّطَوُّرِ الغَرِيبِ الَّذِى حَقَّقَ حُرِّيَّةَ الأفْرَادِ والْجماعاتِ والَّذِى انْتَصَرَ حَتَّى أصْبَحَ المَثَلَ الأعْلَى للحَيَاةِ الحَدِيثةِ فِى الشَّرْقِ والغَرْبِ ، كانَ الشَّرْقُ خَاضِعاً لِنِظَامٍ سِيَاسِيٍّ واحدٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ ولَم يَتبَدَّلْ ، وهو نِظَامُ المَلَكِيَّةِ المُطْلَقَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ الَّذِى تَفْقِدُ فيهِ الجماعاتُ والأفرادُ كلَّ حَظٍّ مِنَ الْحُرِّيَّةِ . فَكَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفَسِّرَ هَذَا الِاخْتِلَافَ بَيْنَ الشَّرْقِ والْغَرْبِ ؟ ولِمَ نُفَسِّرُ ؟ ومَا حاجَتُنَا إلى هَذَا التَّفْسِيرِ ؟ يَكْفِي أَنْ نُسَجِّلَ الْحَقِيقَةَ الواقِعَةَ ، وَهِيَ أَنَّ الْحَيَاةَ اليُونَانِيَّةَ الَّتِي خَضَعتْ لِلشِّعْرِ فِي أَوَّلِ أمْرِها ، ثُمَّ خَضَعتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْعَقْلِ ، كانتْ أَخْصَبَ حَيَاةٍ عَرَفَهَا الإِنْسَانُ فِي العالَمِ القَدِيمِ .

سقراط

بين يدىَّ الآن كتابٌ ظهرَ فى هذهِ الأيَّامِ ، مَوْضُوعُه تَارِيخُ الفِكْرِ اليُونَانِيِّ ، لأُسْتَاذٍ مِنْ عُلماءِ الفِرَنْسِيِّينَ هُوَ الْمُسْيُو « لِيُون رُوبَانْ » . ولَيْسَ هَذَا الكِتَابُ الضَّخْمُ القَيِّمُ أَوَّلَ كتابٍ ظَهَرَ فى هَـذَا الْمَوْضُوعِ ، ولَنْ يَكُونَ آخِرَ كتابٍ ؛ بل ليسَ هُوَ الكِتَابَ الوَحِيدَ الَّذِى ظَهَرَ فى هٰذِهِ الأَيَّامِ مِنْ نَوْعِهِ ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ ظَهَرَتْ ، وتَظْهَرُ وسَتَظْهَرُ ، فى هَذَا الْمَوْضُوعِ ؛ لِأَنَّ الأُورُبِّيِّينَ يَتَّخِذُونَ هٰذِهِ القَاعِدَةَ قَانُونًا لَهُمْ ، وهِىَ أَنْ لَيْسَ إِلَى فَهْمِ الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُوهِها مِنْ سَبِيلٍ إِلاَّ إِذَا فُهِمَتْ مَصَادِرُها الأُولَى ؛ وَمَصَادِرُها الأُولَى هِىَ الْحَيَاةُ اليُونَانِيَّةُ مِنْ جِهَةٍ ، والرُّومَانِيَّةُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ؛ أَوْ قُلْ : هِىَ الْحَيَاةُ

اليُونَانِيَّةُ ؛ لِأَنَّ حَيَاةَ الرُّومَانِ كَانَتْ مِنْ أَكْثَرِ وُجُوهِها مُتَأَثِّرَةً بالحياةِ اليُونَانِيَّةِ . وإذْ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا فى هَذَا العَصْرِ الحديثِ نَسْلُكُ سَبِيلَ الأورُبِّيِّينَ ، لاَ فى حَيَاتِنَا العَقْلِيَّةِ وَحْدَها ، بل فى حَيَاتِنا العَمَلِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ فُرُوعِها أَيْضًا ، فليسَ لَنَا بُدٌّ مِنْ أَنْ نَسْلُكَ سَبِيلَ الأُورُبِّيِّينَ فى فَهْمِ هٰذِهِ الحياةِ الَّتِى اسْتَعَرْنَاها . أَقُولُ : إِنَّنا أَخَذْنَا فى هَـذَا العَصْرِ الحديثِ نَسْلُكُ السَّبِيلَ الأُورُبِّيَّةَ فى جَمِيعِ فُرُوعِ الحيـاةِ ونَعْدِلُ عَنْ حياتِنا القَدِيمةِ عُدُولاً يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ تامًّا . وأَحْسَبُ أَنَّكَ لَنْ تُطَالِبَنِى بالدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ ، فأَنْتَ فى المَدْرَسَةِ تَتَعَلَّمُ العِلْمَ الأُورُبِّيَّ ، وأَنْتَ إِذَا قَرَأْتَ تقرَأُ العِلمَ الأُورُبِّيَّ ، وَإِذَا فَكَّرْتَ فعَلَى النَّحْوِ الأُورُبِّيِّ ، وأَنْتَ فى بَيْتِكَ وفى صِلَاتِكَ المختلفةِ تَسْلُكُ المَسْلَكَ الأُورُبِّيَّ ، وَأَنْتَ

فى حَيَاتِكَ السِّيَاسِيَّةِ وفى نِظَامِكَ الإِدَارِىِّ وَالِاجْتِمَاعِىّ تَنْهَجُ الْمَنْهَجَ الأُورُبِّىَّ . وما أَحْسِبُ أننا نكْتَفِى مِنْ هذه الحياةِ بِتَقْلِيدِ القِرَدَةِ ، وإِنَّما أَعْلَمُ أَنَّنا نُرِيدُ أنْ نتَّخِذَها حيَاتاً لنَا عَنْ فَهْمٍ وبَصِيرَةٍ . وإِذاً فَلْنَفْهَمْهَا قَبْلَ كُلِّ شَىْءٍ ، وَلْنَتَبيَّنْ — إِذَا كَانَ الأَمْرُ كذلك — كَيْفَ كَانتْ حالةُ الفِكْرِ فى تِلْكَ العُصُورِ اليُونَانيَّةِ الْخِصْبَةِ ، وكَيْفَ كانتْ قِيَادَةُ الفَلْسَفَةِ إِيَّاهُ . وَلْنَبْدَأْ مِنْ هؤلاءِ الفَلاَسِفَةِ الَّذِينَ أشْرَفُوا عَلَى قِيادَةِ الفِكْرِ اليُونَانِىِّ ولاَ يَزَالُون يُشْرِفُون عَلَى قِيَادَةِ الفِكْرِ الإِنْسَانِىِّ ، بأَبِيهِمْ وَزَعِيمِهِمْ جَمِيعاً « سُقْرَاطَ »

وَلسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عن سُقْرَاطَ ، دونَ أَنْ أَلْفِتَكَ إلى أنَّه لم يتَوَلَّ قِيادَةَ الفِكْرِ اليُونَانِىِّ إِلاَّ بعْدَ أَنِ ارْتَقَى هذا الفِكْرُ وَانْتَهَى مِنَ الرُّقِىِّ إلى حَدٍّ عَجِيبٍ ،

وَأَنَّ الفَلْسَفَةَ سَلَكَتْ مِنْ قَبْلِهِ طُرُقاً مُخْتَلِفَةً شَدِيدَةَ الِالْتِوَاءِ وأَفْلَسَتْ فِيهَا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَأَنَّ هٰذِهِ الفَلْسَفَةَ الَّتِي أَفْلَسَتْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ كانتْ أَيَّامَ انْتِصَارِهَا مشْرِفَةً عَلَى العقْلِ اليُونانِيِّ ، تَقُودُهُ وَتُدَبِّرُهُ ، وَتَنْتَهِي بِهِ إِلى الْخَيْرِ . وَلٰكِنَّ هَذَا العَقْلَ كانَ شَدِيدَ التَّطَوُّرِ سَرِيعَ الِاسْتِحَالَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ لِتِلْكَ المَذَاهِبِ الفَلْسَفِيَّةِ مِنْ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلى مَا انْتَهَتْ إِلَيهِ من إفلَاسٍ . ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَظْهَرَ مَذْهَبٌ فَلْسَفِيٌّ جَدِيدٌ يُلَائِمُ هَذهِ الحَيَاةَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي انْتَهَى إِليهَا العَقْلُ اليُونانِيُّ فِي آخِرِ القَرْنِ الخامِسِ قَبْلَ المَسِيحِ

تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْرَأَ فِي غَيْرِ هَذَا الفَصْلِ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ الفَلْسَفِيِّ ، كَيْفَ نَشَأَتِ الفَلسَفَةُ اليُونانِيَّةُ ، وكَيْفَ جَاهَدَتْ لِتَنْتَصِرَ عَلَى الشِّعْرِ والدِّينِ ، وَكَيْفَ

أَلْتَمَسَتْ تَفْسِيرَ هَذَا الكَوْنِ، فى الأَرْضِ مَرَّةً، وفى السَّماءِ مَرَّةً أُخْرَى، وفى الماءِ حِيناً، وفى الْجَوِّ حِيناً آخَرَ، ثُمَّ كَيْفَ عَدَلَتْ عَنِ الْمَادَّةِ إِلى الْمَعْنَى، وَكَيْفَ تَعَمَّقَتْ فى بَحْثِها الْمَعْنَوِىِّ دُونَ أَنْ تَنْتَهِىَ إِلى شَىْءٍ قَيِّمٍ، وَكَيْفَ كَانَتْ أَثْنَاءَ هَـذَا البَحْثِ والِاضْطِرَابِ مَصْدَراً لِهَذَا التَّطَوُّرِ السِّيَاسِىِّ الَّذِى أَقَرَّ النِّظَامَ الدِّيمُقْرَاطِىَّ فى أَثِينَا وغَيْرِها من الْمُدُنِ اليُونَانِيَّةِ. أَمَّا أَنَا فَلَنْ أُحَدِّثَكَ مِنْ هَـذَا كُلِّهِ بِشَىْءٍ، وإِنَّما أُحَدِّثُكَ فى كَلِمَاتٍ مُوجَزَةٍ عَنْ حالِ العَقْلِ اليُونَانِىِّ أَيَّامَ سُقْرَاطَ، لِتَسْتَطِيعَ أَنْ تَفْهَمَ فَلْسَفَةَ سُقْرَاطَ وما نَشَأَ عَنْهَا مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ. أَمَّا الحياةُ العامَّةُ الأَثِينِيَّةُ فكانت مُتَأَثِّرَةً بِشَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: أَحَدُهما النِّظَامُ الدِّيمُقْرَاطِىُّ المُتَطَرِّفُ الَّذِى يُقَوِّى حُرِّيَّةَ الفَرْدِ

إِلَى أَقْصَى حَدٍّ مُمْكِنٍ ، وَيَجْعَلُ شَخْصِيَّتَه بَارِزَةً تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعَانِدَ الدَّوْلَةَ وتَنْتَصِرَ عَلَيْها أَحْيانًا . والثَّانِى هَذَا الِاخْتِلَاطُ الشَّدِيدُ بَيْنَ الشُّعُوبِ المُخْتَلِفَةِ المُتَبَايِنَةِ الَّذِى كَانَ يَبْعَثُ عَلَى الْحَيَاةِ العَقْلِيَّةِ القَوِيَّةِ وَيَجْعَلُهَا مُضْطَرِمَةً أَبَدًا ، والَّذِى كَانَ يَبْعَثُ عَلَى اصْطِدَامِ الْمَنَافِعِ وتَنَازُعِها وتَعَقُّدِها إِلى حَدٍّ عَظِيمٍ . أَضِفْ إِلى هٰذَيْنِ السَّبَبَيْنِ ما أَشَرْتُ إِليه مِنْ إِفْلَاسِ الْمَذَاهِبِ الفَلْسَفِيَّةِ الأولَى ، تَنْتَهِ إِلَى هٰذِهِ النَّتِيجَةِ ، وَهِىَ أَنَّ العَقْلَ اليونانِىَّ فى ذَلِكَ العَصْرِ كانَ قَدْ وَصَلَ إِلى حالٍ من الشَّكِّ لم يَعْرِفْها مِنْ قَبْلُ : شَكٌّ فى الفَلسفَةِ التى عَجَزَتْ عَنْ تَفْسِيرِ الكَوْنِ ، وشَكٌّ فى الدِّينِ الَّذى أَصْبَحَ مِنَ السُّخْفِ بِحَيثُ لايَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ عَقْلٌ يَحْتَرِمُ نَفْسَه ، وشَكٌّ فى الحياةِ السِّياسِيَّةِ الَّتِى اشْتَدَّ فِيها الاضْطِرَابُ وعَبِثَتْ

بِها الحُرُوبُ من جِهَةٍ ، والثَّوْرَاتُ من جِهَةٍ أُخْرَى ، والأَهْوَاءُ الشَّخْصِيَّةُ من جِهَةٍ ثالثةٍ ، وشَكٌّ فى النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِىِّ الَّذِى لا قِيمَةَ لَهُ إِذَا لَمْ يَعتَمِدْ عَلَى فَلْسَفَةٍ قَوِيَّةٍ ، أو دِينٍ مَتِينٍ ، أو سِيَاسَةٍ ثَابِتَةٍ — شَكٌّ فى كُلِّ شَىْءٍ وحَرَصَ عَلَى المَنْفَعَةِ الخاصَّةِ الَّتِى يُمْكِنُ أَنْ يُؤْمِنَ بها الفَرْدُ حَقًّا ، لِأَنَّهُ يَمَسُّها ويَسْتَمْتِعُ بها ويَسْعَى إِليها .

فى هٰذِهِ الحالِ نَشَأَتْ فَلْسَفَةُ « السُّوفِسْطَائِيِّين » (Sophistes) الَّتِى كانتْ فى حَقِيقَةِ الأَمْرِ مِرْآةً صَادِقَةً لِلْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ والَّتِى كانتْ تُنْكِرُ كُلَّ شَىْءٍ فى نَفْسِهِ ، ولا تَعْتَرِفُ إِلاَّ بِشَىْءٍ واحدٍ وهُوَ المَنْفَعَةُ الفَرْدِيَّةُ ، والَّتِى كانَ زُعَمَاؤُها يَطُوفُونَ الأَرْضَ كَما كَانَ يَفْعَلُ الشُّعَرَاءُ القُدَمَاءُ يَحْمِلُون الشَّكَّ والإِنْكارَ ،

وَيَخْدُمُون الْمَنْفَعَةَ الفَرْدِيَّةَ ، ويُعَلِّمونَ الفَرْدَ كَيْفَ يَلْبِسُ الْحَقَّ بِالباطِل ، وكَيْفَ يَعبَثُ بعُقُولِ القُضَاةِ في الْمَحْكَمَةِ ، وبِعقُولِ الْجماعاتِ في الْمَجالِسِ السِّياسِيَّةِ الْعُلْيَا ، وكَيْفَ يَعْبَثُ بِعُقُولِ الأفرادِ ومَنافِعِهِمْ فِيما يكونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ من حِوَارٍ .

في هٰذهِ الحالِ السَّيِّئَةِ نَشَأ سُقْرَاطُ . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أُسْرَةٍ مُمْتَازَةٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أُسْرَةٍ مُتَوَسِّطَةٍ ، وإِنَّما كانَ إلى الطَّبَقةِ الدُّنْيَا أَقْرَبَ مِنْهُ إلى الطَّبقَاتِ الأُخْرَى : كانَ أبوهُ حَفَّاراً وكانَتْ أُمُّه قَابِلَةً . وَلَمْ يَكُنْ حَسَنَ الْخَلْقِ ولا جَميلَ الطَّلْعَةِ ، وإنَّما كانَ قَبِيحَ الْمَنظَرِ مَمْقُوتَ الشَّكْلِ ، ولٰكِنَّهُ كانَ ذَكِيَّ القَلْبِ نَافِذَ البَصيرَةِ شَديدَ الفِطْنَةِ . ولَمْ يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الأَثِينِيِّينَ في عَصْرِهِ ، وإنَّما سَلَكَ السَّبِيلَ الَّتِي

كانَ يَسلُكها غَيْرُه مِنَ النَّاسِ ؛ يقال : إنه تعلَّمَ مِهْنَةَ أبيهِ ولكنَّه لم يَمْضِ فِيها . ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فقَدْ كانَ كَغَيْرِهِ مِنَ الشُّبَّانِ الأثينيِّينَ : يَخْتَلِفُ إِلَى المَجَالِسِ العامَّةِ ، والى الحَمَّامِ ، وإلى مَحَالِّ الألعابِ الرِّيَاضِيَّةِ ، وكانَ يَسْتَمِعُ لِلخُطَباءِ السِّيَاسِيِّينَ في جَمَاعَةِ الشَّعْبِ والقَضَائِيِّينَ في المَحْكمةِ ، وكانَ يَجْلِسُ إِلى « السُّوفِسْطَائيِّينَ » فَيَسْمَعُ مِنْهم ويحَاوِرُهم ، وكانَ يَدْرُسُ المَذاهِبَ الفَلْسَفِيَّةَ المخْتلِفةَ ، حَتَّى إذا قَضَى مِنْ هَذا كلِّه وَطَرَه وبَلَغَ سِنَّ الرُّجُولةِ ، أحَسَّ أنَّ في نَفْسِه شَيْئًا يُخالِفُ ما في أَنْفُسِ الأثينِيِّينَ ، وأنَّ له مُيُولاً تُخَالِفُ مُيُولَهم ، وأهْواءً تُخَالِفُ أهْواءَهُم ؛ وأخَذَ يُحَاوِرُ السُّوفِسْطَائِيِّينَ من جِهَةٍ والشُّبَانَ مِنْ جهةٍ أُخْرَى ، لا يَصْرِفُه ذَلِكَ عَنْ وَاجِباتِهِ الوَطَنِيَّةِ ؛

فَقَدْ كانَ يَشْتَرِكُ فِي الِانْتِخَابَاتِ ، ويَجْلِسُ فى جَمَاعَةِ الشَّعْبِ ، بَلِ انْتُخِبَ فى مَجْلِسِ الشُّورَى ورَأَسَ جَمَاعَةَ الشَّعْبِ ؛ وكانَ يُؤَدِّى واجِبَهُ العَسْكَرِىَّ ، فَقَدِ اشْتَرَكَ فى الحَرْبِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وأَظهَرَ فِيها بَلاءً حَسَنًا وشَجَاعةً قَيِّمَةً وتَضْحِيَةً بالنَّفْسِ فى سَبِيلِ الأَصْدِقاءِ . ولٰكِنَّهُ كانَ يُحَاوِرُ كلَّ مَنْ لَقِيَهُ ضُرُوبًا مِنَ الحِوَارِ غَرِيبةً لَمْ يَألَفْهَا النَّاسُ ، فى أَلْفاظٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ رَاقِيةً مُهَذَّبَةً ، فَقَدْ كانَتْ قَوِيَّةً خَلَّابَةً سَاحِرَةً ، وَمَا هِىَ إلاَّ أَنْ كَلِفَ بِهِ الشُّبَّانُ وكَلِفَ بِهِمْ فَسَعَوْا إليْهِ ، أَوْ قُلْ : سَعَى إِلَيْهِم ؛ فلَمْ تَكُنْ له مَدْرَسةٌ ؛ وإِنَّما كانَ هُوَ مَدْرَسَةً مُتَنَقِّلَةً ، يُحَاوِرُ فِى المَيَادِينِ العامَّةِ وفِى حَوَانِيتِ الحَذَّائِينَ وغَيْرِهِم من الصُّنَّاعِ وفِى أَرْوِقَةِ الحَمَّامِ وفِى المَلاعِبِ الرِّيَاضِيَّةِ ، وقَدْ فُتِنَ بِهِ الشُّبَّانُ

فِتْنَةً لَمْ يُفْتَنُوهَا بأحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ ، فالْتَفُّوا حَوْلَه الْتِفَافاً شَدِيداً ، واُستغْرَقَ حِوَارُه إِيَّاهُمْ يَوْمَهُ كُلَّهُ أوْ أَكثَرَه . وكانَ حَسَنَ الدُّعَابَةِ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ حِوَارُه إلَّا دُعَابَةً مُتَّصِلَةً وهَزْلاً مُسْتَمِراً . ولٰكِنَّ هٰذِهِ الدُّعَابَةَ الْحُلْوَةَ وهَذَا الهَزْلَ اللَّذِيذَ، لَمْ يَكُونَا إلَّا سِتَاراً لَطِيفاً شَفَّافاً يَنِمُّ بِما دُونَهُ مِنْ حَقٍّ وَجِدٍّ . لَمْ تَكُنْ له مَدْرَسَةٌ ثَابِتَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَه مَوْضُوعٌ بِعَيْنِهِ يَدْرُسُهُ أوْ يُحَاوِرُ فِيهِ ، وإِنَّما كانَ يَدْرُسُ كُلَّ شَيْءٍ ، ويُحَاوِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَتَّخِذُ كُلَّ شَيْءٍ وَسِيلَةً لِلبَحْثِ والجِدَالِ وطَرِيقاً إلى غَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ سَنَرَاها بَعْدَ حِينٍ . كانَ إِذَا يُخَالِفُ غَيْرَه مِنْ فَلَاسِفَةِ عَصْرِه مِن هٰذَيْنِ الوَجْهَيْنِ : مِنْ حَيْثُ إنّه لَمْ يَكُنْ يَلْتَزِمُ مكاناً لِلدَّرْسِ، ومِنْ حَيْثُ إنّهُ لَمْ يَكُنْ يَلْتَزِمُ

مَوْضُوعًا لِلدَّرْس . وكانَ يُخالِفُهم مِنْ جِهَةٍ أُخْرى ؛ فقَدْ كانَ هؤلاءِ الفَلاسِفَةُ مِنْ السُّوفِسْطائِيِّينَ ، سَواءٌ مِنْهُم مَنْ طَوَّفَ فى الأَرْضِ وانْتَقَلَ مِنْ مَدِينَةٍ الى مَدِينَةٍ يَسْعَى إِلى الطُّلَّابِ ويَلْتَمِسُهُم ومَنْ أَقامَ فى مَدِينَةٍ بِعَيْنِها يَسْعَى إِليه الطُّلَّابُ وَيلْتَمِسُونَه ؛ كانُوا جَميعًا يَتَّخِذُونَ الفَلسفةَ والدَّرْسَ وَسِيلَةً إِلَى الْمَجْدِ وَكَسْبِ الْمالِ : وَسِيلةً إِلَى الْمَجْدِ ، فَكانُوا يُنْشِئونَ الفُصُولَ والرَّسائِلَ يَتْلُونَها فى الْمَحافِلِ والْمَشاهِدِ العامَّةِ لِيُفْتَنَ بِهِمُ الْجُمْهُورُ ويُعْجَبَ بِهِمُ النَّاسُ ، كما كانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِلْفَلاسِفَةِ وزُعَماءِ العَصْرِ يُحاوِرُونَهُمْ ويُجادِلُونَهُمْ ، ويَخْلُبُونَ النَّاسَ بِهذِهِ الْمَقْدِرَةِ الَّتِي كانتْ تُتِيحُ لَهُمْ أَنْ يَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالباطِلِ ، ويُسْبِغُوا عَلَى الخطإِ ثَوْبَ الصَّوابِ . ووَسِيلَةً إِلى كَسْبِ الْمالِ ، فَكانُوا لا يُلْقُونَ

دُرُوسَهُمْ مَجَّانًا ، بَلْ كانوا يَتَقَاضَوْنَ عَلَيها الأُجُورَ الضَّخْمَةَ ، وكانُوا يُحَاسِبُونَ الطَّالِبَ حِسَاباً دَقِيقاً عَلَى مَا أَلْقَوْا إليه مِنْ عِلْمٍ : أَتُرِيدُ دَرْساً وَاحِداً أَمْ دُرُوساً عِدَّةً ؟ أم أنتَ تُرِيدُ أنْ تَتَعَلَّمَ الفَلسفةَ كُلَّها ؟ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَجْرُهُ .

أَمَّا سُقْرَاطُ فلَمْ يَكُنْ يَلتَمِسُ مَجْداً ولا كَسْباً ، ولم يَكُنْ يَحْفِلُ بالْمَجَامِعِ العامَّةِ يُلْقِي فِيها الْخُطَبَ أوْ يَقْرَأُ فِيها الفُصُولَ ، وإِنَّما كانَ يَفِرُّ مِنْ ذَلِكَ فِرَاراً ولاَ يَأْتِيهِ إلاَّ إذَا اُضْطُرَّ إليهِ اضْطِرَاراً فى جَمَاعةِ الشَّعْبِ أَوْ مَجْلِسِ الشُّورَى . وكَانَ لا يُعِدُّ الْخُطَبَ لِلنَّاسِ يُلقُونَها فى الْمَحَاكِمِ أَوْ الجماعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، وكانَ لا يَتَقَاضَى على عِلمِهِ أجْراً ، لِأَنَّه كان يَعتَقِدُ أنَّه لا يُعلِّمُ النَّاسَ شَيْئاً ؛ فليسَ غَرِيباً أنْ يُفْتَنَ بِهِ الْجُمْهُورُ مِنْ

شَبَابِ أثينا ، وليْسَ غَرِيباً أَنْ يَتَسَامَعَ به النَّاسُ فى « أَتِّيكَا » ثُمَّ فى البِلاَدِ اليُونَانِيَّةِ الأُخْرَى ، وَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ يَفِدَ اليُونَانِيُّونَ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ عَلَى أَثِينَا لِيَلْقَوا سُقْرَاطَ وَيَتَحَدَّثُوا إليه . ولَـكِنَّ حَادِثَةً حَدَثَتْ فَغَيَّرَتْ مِنْ سِيرَةِ سُقْرَاطَ ورَأْيِهِ فى نَفْسِهِ شَيْئاً كَثِيراً ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ الْمُعْجَبِينَ بِهِ ، وكانُوا كَثِيرِينَ ، ذَهَبَ إلى « دِلْفْ » (Delphes) وسَأَلَ « أَبُلُّونَ » (Apollon) : أَيْنَ فَلاَسِفَةِ اليُونَانِ وحُكَمَائِهِمْ مَنْ يَفُوقُ سُقْرَاطَ أو يَبْلُغُه فَلْسَفَةً وحِكْمَةً ؟ فَأَجابَتِ الْكاهِنَةُ أنْ لاَ . وبَلَغَ ذَلِكَ سُقْرَاطَ ، فحمله عَلَى أنْ يَتَبَيَّنَ السَّبَبَ الَّذِى بَعَثَ الإلٰهَ « أبُلُّونَ » على أنْ يُعْلِنَ أنّه أحْكَمُ النَّاسِ وأحْسَنُهُم فلسفةً . ولَمْ يَكُنْ سُقْراطُ يَرَى فى نَفْسِهِ هَذَا الرَّأْىَ ، وإنَّما كَانَ

يَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ النَّاسِ جَهْلاً وأَقَلُّهم حَظًّا مِنْ عِلْمٍ أَوْ فَلْسَفَةٍ ؛ وَمَا هِيَ إِلاَّ أَنْ أَخَذَ فِي البَحْثِ والتَّحْقِيقِ ، فَأَلَمَّ بِالْحُكَمَاءِ والفَلاَسِفَةِ ، وبِالشُّعَرَاءِ والكُتَّابِ ، وبِالصُّنَّاعِ وأَهْلِ الفَنِّ ، يُحَادِثُهم ويَسْأَلُهُم وَيَعْلَمُ عِلْمَهُمْ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى هٰذِهِ النَّتِيجَةِ ، وهِيَ أَنَّه أَحْكَمُ النَّاسِ حقًّا ؛ ذٰلِكَ لِأَنَّه رَأَى هٰذِهِ الطَّبَقَاتِ كُلَّهَا شَدِيدَةَ الغُرُورِ قَوِيَّةَ الإِيمانِ بِحَظِّهَا مِنَ الْعِلْمِ أَوِ الفَلْسَفَةِ أَوِ الشِّعْرِ أَوِ الفَنِّ ، شَدِيدَةَ الْجَهْلِ بِنَفْسِهَا ، ورَأَى أَنَّهُ هُوَ الرَّجُلُ الوَحِيدُ الَّذِي لا يَغُرُّهُ شَيْءٌ ، ولا يَعْلَمُ إِلاَّ شَيْئًا وَاحِداً ، هُوَ أَنَّهُ شَدِيدُ الْجَهْلِ بِكُلِّ شَيْءٍ . وكَانَ القُدَمَاءُ قَدْ كَتَبُوا عَلَى مَعْبَدِ « دِلْفَ » هٰذِهِ الحِكْمَةَ القَدِيمَةَ « اِعْرِفْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ » ، فَمَا أَسْرَعَ مَا اتَّخَذَهَا سُقْرَاطُ شِعَاراً له ، وقَاعِدَةً لِحَيَاتِهِ وحِوَارِهِ ، وتَعْلِيمِهِ ! ؛

وَمَا أَسْرَعَ ما اُعْتَقَدَ أنَّه قَدْ أَصْبَحَ شَيْئًا يُشْبِهُ الأَنْبِيَاءَ ، وأَنَّ « أَبُلُّونَ » قَدْ كَلَّفَهُ مُهِمَّةً عَظِيمَةَ الْخَطَرِ ، هِيَ أَنْ يَبُثَّ الحِكْمَةَ فِي النَّاسِ ويُعَلِّمَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا أَنْفُسَهُمْ بأَنْفُسِهِمْ . مِنْ ذَلِكَ الوَقْتِ ، جَدَّ سُقْرَاطُ فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ ، وتَحْقِيقِ الْوَاجِبِ الَّذِي كَلَّفَهُ إِيَّاهُ « أَبُلُّونُ » فَتَتَبَّعَ الشَّبَابَ الأَثِينِيَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وأَخَذَ عَلَيْهِ كُلَّ سَبِيلٍ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَمْشِي فِي طَرِيقِهِ ، فإِذَا رَأَى شَابًّا يَمْضِي لِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ ، أَخَذَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ومَنَعَه أَنْ يَمْضِيَ ، وأَخَذَ يُلْقِي عليهِ أَسْئِلَةً عَادِيَّةً لاَ قِيمَةَ لهَا ؛ فَيُجِيبُهُ الشَّابُّ أَجْوِبَةً تُلاَئِمُ هَذِهِ الأَسْئِلَةَ ؛ ولَكِنَّهُ يَمْضِي فِي السُّؤالِ ، ويَمْضِي الشَّابُّ فِي الْجَوَابِ ، وإِذَا هُمَا فِي حِوَارٍ فَلْسَفِيٍّ قَدْ أَنْسَى الشَّابَّ عَمَلَهُ ، وجَمَعَ حَوْلَهُمَا النَّاسَ . وقَدْ ظَهَرَ تَأَثُّرُ الْجَمَاعَةِ الأَثِينِيَّةِ بِسُقْرَاطَ

وجَزَعُ الطَّبقَاتِ الأَرستُقْرَاطِيَّةِ مِنْ سُلْطَانِه عَلَى الشُّبَّانِ
فى نَحْوِ سنةِ ٤٢٥ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، حِينَ أَخَذَ الشَّاعِرُ
التَّمْثِيلِيُّ الْمَشْهُورُ « أَرستُفَانُ » (Aristophane) الَّذِى
كَانَ لِسَانَ الأَحْزَابِ الأَرستُقْرَاطِيَّةِ الْمُحَافِظَةِ ، يُعَرِّضُ
بِسُقْرَاطَ فِى قِصَصِهِ التَّمْثِيلِيَّةِ الْمُضْحِكَةِ ، ولاَ سِيَّمَا فِى
قِصَّةِ الطَّيْرِ والضَّفَادِعِ ، ولاَ سِيَّمَا فى قِصَّةِ السَّحَابِ الَّتِى
خُصِّصَتْ كُلُّهَا لِسُقْرَاطَ والْهُزُؤِ به ، وأَصْبَحَ سُقْرَاطُ
شَيْئًا يُخِيفُ الأَرستُقْرَاطِيَّةَ ، لأَنَّه كَانَ شَدِيدَ العَبَثِ
بالعَادَاتِ والأَخْلاَقِ الْمَوْرُوثَةِ . ولٰكِنَّهُ ، لِسُوءِ حَظِّه ،
لَمْ يُرْضِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ ، بَلْ كَانَ بِهَا شَدِيدَ العَبَثِ أَيْضًا .
أَلَمْ يَكُنْ يَتَّخِذُ الدِّينَ مَوْضُوعًا لِحِوَارِهِ ؟ أَلَمْ يَكُنْ
يَتَّخِذُ النُّظُمَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ مَوْضُوعًا لِهَـذَا الْحِوَارِ ؟ أَلَمْ
يَكُنْ يُظْهِرُ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَه الفُرْصَةُ سُخْطَه عَلَى حُكْمِ

الشَّعْبِ واُسْتِهْزَاءِه بهذا الْحُكْمِ ؟ ثُمَّ أَلَيْسَ هُوَ الذِى عَارَضَ أشَدَّ الْمُعَارَضَةِ حِينَ أَرَادَتْ جَمَاعَةُ الشَّعْبِ أنْ تُحَاكِمَ القُوَّادَ الأَثِينِيِّينَ الْمُنْتَصِرِينَ الَّذِينَ اُتُّهِمُوا بِالتَّقْصِيرِ فى جَمْعِ الغَرْقَى فى مَوْقِعَةِ « أَرْجِينُوسُ » (Arginus) ؟ أَبَى سُقْرَاطُ عَلَى جَمَاعةِ الشَّعْبِ مُحَاكَمةَ هؤلاَءِ القُوَّادِ ، وكَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الجَلْسَةِ فى ذَلِكَ اليَوْمِ . ولَـكِنَّ جَمَاعةَ الشَّعْبِ حاكَمَتْ هؤلاَءِ القُوَّادَ ، وقَضَتْ عَلَيْهِم بالمَوْتِ ، وأَنْفَذَتْ فِيهِمْ هَذَا القَضَاءَ ، وكَرِهَتْ سُقْرَاطَ ؛ ثُمَّ لَمْ تَلبَثْ أَنْ نَدِمَتْ عَلَى مَا قَدَّمَتْ ، وأَحَسَّتْ أَنَّهَا قَدْ حَرَمَتْ أَثِينَا ظُلْماً عَشَرَةً مِنْ قُوَّادِهَا المَاهِرِينَ حِينَ كَانَ اُحْتِيَاجُهَا إِلَى الرِّجَالِ شَدِيداً .

كَانَ سُقْرَاط قَلِيلَ الْمَيْلِ إِلى الدِّيمُقْرَطِيَّةِ ، كما كَانَ شَدِيدَ الْبُغْضِ لِلاِسْتِبْدَادِ ، عَدُوًّا لِلأَرِسْتُقْرَاطِيَّةِ ؛ وقَدْ

أَغْضَبَ هٰذِهِ الطَّبَقَةَ كما أَغْضَبَ الشَّعْبَ : أَغْضَبَهَا حِينَ أَبَى عَلَى الطُّغَاةِ الثَّلاثِينَ مَا أَرَادُوه عَلَيْهِ مِنَ الْمَعُونَةِ ، وحِينَ عَرَّضَ نَفْسَه بذلك لِلْخَطَرِ . ومِنْ هُنَا لم يَنْتَهِ القَرْنُ الْخَامِسُ حَتَّى كَانَ سُقْرَاطُ قَدْ أَلَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ الْمُنْتَصِرَةَ والأُرستُقْرَاطِيَّةَ الْمُنْهَزِمَةَ ، كما أَنَّه كَانَ قَدْ أَلَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الشُّعَرَاءَ والفلاسِفةَ والْمُعلِّمِينَ، لِأَنَّه صَرَفَ عَنْهُمُ الشَّبَابَ مِنْ جِهَةٍ ، ولِأَنَّه كَانَ شَدِيدَ السُّخْرِ بِهِمْ من جِهَةٍ أُخْرَى . فما هِيَ إِلَّا أَنْ تَمَّ انتصارُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ عَلَى الطُّغَاةِ الثَّلاثِينَ ، حَتَّى تَقَدَّمَ اثْنَانِ مِنْ الأَثِينِيِّينَ ، أَحَدُهما شاعرٌ ، بِقَضِيَّةٍ إِلَى الشَّعْبِ يَتَّهِمَانِ فِيها سُقْرَاطَ تُهَماً عِدَّةً : مِنْهَا أَنَّه أَفْسَدَ الشَّبَابَ ؛ ومنها أَنّه لا دِينَ له ، ومنها أنَّه يَعْبَثُ بِالنُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ القَائِمَةِ . وحُوكِمَ سُقْرَاطُ ، فَلَمْ يَكُنْ مَوْقِفُه مِنْ قُضَاتِهِ

مَوْقِفَ الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ حَقًّا وَيُثْبِتَ بَرَاءَتَهُ حَقًّا ، وَإِنَّمَا كَانَ مَوْقِفُهُ مِنَ الْقُضَاةِ مَوْقِفَ السَّاخِرِ بِهِمْ ، الْمُزْدَرِي لَهُمْ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَرَ الْحُكْمُ عَلَيْهِ بِأَغْلَبِيَّةٍ قَلِيلَةٍ جِدًّا . وَكَانَتِ الْعَادَةُ عِنْدَ الْأَثِينِيِّينَ وَغَيْرِهِم من الْقُدَمَاءِ أَنْ يَصْدُرَ فِي مِثْلِ هَٰذِهِ الْقَضَايَا الْجِنَائِيَّةِ حُكْمَانِ : الْأَوَّلُ يُثْبِتُ إِدَانَةَ الْمُتَّهَمِ أَوْ يَنْفِيهَا ، وَالثَّانِي يُقَرِّرُ الْعُقُوبَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الْمُتَّهَمُ إِذَا ثَبَتَتْ إِدَانَتُهُ . وَكَانَتِ الْعَادَةُ إِذَا ثَبَتَتْ إِدَانَةُ الْمُتَّهَمِ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي يَرَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّهَا ، وَأَنْ يُسْأَلَ الْمُدَّعِي عَنِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي يَرَى أَنَّ الْمُتَّهَمَ خَلِيقٌ بِهَا ، ثُمَّ تَفْصِلُ الْمَحْكَمَةُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْجَوَابَيْنِ ، فَتُقِرُّ إِحْدَى الْعُقُوبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ اقْتَرَحَهُمَا الْمُتَّهَمُ وَالْمُدَّعِي . فَلَمَّا صَدَرَ الْحُكْمُ بِإِدَانَةِ سُقْرَاطَ سُئِلَ عَنِ الْعُقُوبَةِ

الَّتِي يَرَى أَنَّه يَسْتَحِقُّها ، فأجابَ سَاخِراً مُسْتَهْزِئاً : أَنَّهُ يَرَى أَنْ تُطْعِمَهُ الدَّوْلَةُ مَجَّاناً بَقِيَّةَ حَيَاتِه ، لِأَنَّه أَنفقَ هَذِهِ الْحَيَاةَ فِي تَعْلِيمِ الأَثِينِيِّينَ وَتَهْذِيبِهِمْ ؛ وسُئِل الْمُدَّعُونَ فطَلَبُوا الْمَوْتَ ؛ وكانَ الْقُضَاةُ قَدْ سَخِطُوا لِهٰذِهِ السُّخْرِيَةِ القاسِيَةِ فأَقَرُّوا فى حُكْمِهِمْ مَا طَلَبَ الْمُدَّعُونَ وقُضِيَ بالموتِ عَلَى سُقْرَاطَ .

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فى أَنَّه لَوْ أَحْسَنَ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ لَبُرِّئَ . وَليسَ مِنْ شَكٍّ فى أَنَّه لَوْ لَمْ يَسْخَرْ مِنَ الْقُضَاةِ بَعْدَ إِدَانَتِهِ لمَا حُكِمَ عليهِ إِلاَّ بِغَرَامَةٍ تَخْتَلِفُ قُوَّةً أَوْ ضَعفاً ، وَلٰكِنَّ مَوْقِفَه أَحْنَقَ عَلَيهِ الْقُضَاةَ ؛ ثمَّ انْتهت بِهِ هٰذِهِ السُّخْرِيَةُ إِلى أَنِ اعْتُبِرَ مُهِيناً لِلدَّوْلَةِ فعُوقِبَ مُعاقَبَةَ مَنْ تَثْبُتُ عليهِ الْخِيَانَةُ الْعُظْمَى أَوِ الْخُرُوجُ عَلَى النِّظَامِ القائِمِ .

أَمّا إِذا أَرَدْنا أَنْ نتبيّنَ نَصِيبَ هَذَا الْحُكْمِ مِنْ العَدْلِ أَو الْجَوْرِ ، فَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ إِلى أَنْ نَرَى فِيهِ رَأْيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ : أَحَدُهما أَنَّ أَثِينَا لَمْ تَكُنْ ظَالِمَةً حِينَ قَضَتْ بِالموتِ عَلَى هَـــذَا الرَّجُلِ الَّذِى خَرَجَ بِفَلْسَفَتِهِ وتَعْلِيمِه عَلَى النِّظَامِ القائِمِ وَاتَّخَذَ القَوَانِينَ سُخْرِيَةً وهُزُءًا وانْتَهَى إِلى أَنْ أَهَانَ الشَّعْبَ مُمَثَّلاً فى الْمَحْكَمَةِ . والثَّانِي أَنّ أَثِينَا وإِنْ كانتْ قَدْ عَدَلَتْ فى حُكْمِهَا ، بالقِيَاسِ إِلى نُظُمِها وقَوَانِينِها ، فليسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّها قَدْ أَسَاءَتْ حِينَ قَضَتْ بالمَوتِ على رَجُلٍ لاَ لِشَيْءٍ إِلاَّ أَنَّه خَالَفَ الْجُمْهُورَ فى الرَّأْيِ . وَبِهَذَا الْحُكْمِ كانتْ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الأَثِينِيَّةُ عَدُوَّةً لِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ . وَحَسْبُكَ بِهَذَا سُبَّةً وعَاراً ؛ وَحَسْبُكَ بِهِ مَجْداً وَفَخَاراً لِسُقْرَاطَ .

صَدَرَ الْحُكْمُ عَلَى سُقْرَاطَ وَالأَثِينِيُّون فى حَفْلَةٍ مِنْ حَفَلاَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ قَدْ أَرْسَلُوا وَفْدَهُمْ إِلى « أَبُلُّونَ » فى جَزِيرَةِ « دِلُّوسَ » (Dellos) وكان « أَبُلُّونُ » صاحِبُ « دِلُّوسَ » هٰذِهِ إِلٰهـاً خاصًّا (لِليونَانِيِّينَ) يُخَالِفُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ « أَبُلُّونَ » صاحِبَ « دِلْفَ » الَّذِى كانَ إِلٰهاً لِلدُّورِيِّينَ خاصَّةً ولليُونانِ جَمِيعاً ، فكانتْ أَثِينَا تُعْنَى عِنَايَةً خاصَّةً بِإِلٰهِ « دِلُّوسَ » وَتُرْسِلُ إليه وَفْداً من الْحَجِيج فى كُلِّ سَنَةٍ يُقِيمُون الحفَلاَتِ حَوْلَ مَعْبدِهِ فى الْجَزِيرَةِ الَّتِى يُقَالُ إِنهَا كانتْ سَابِحَةً عَلَى وَجْهِ الماءِ حِينَماَ هَبَطَتْ أَمُّ أَبُلُّونَ مِنَ السَّماءِ وكانتْ حامِلاً وكانتْ هَارِبَةً مِنْ زَوْجِ « زُوسَ » (Zeuss) كَبِيرِ الآلِهَـةِ ؛ فأَوَتْ إلى هٰذِهِ الجَزِيرةِ السَّابِحَةِ ، وَلَمْ تَكَدْ تأْوِى إِليها حَتَّى اُسْتَقَرَّتْ فى مَكَانِها ، وولَدَتْ

هٰذِهِ الآلِهَةُ «أبُلُّونَ» و«أَرْتَمِيسَ» أُخْتَه . وكانَتْ العادةُ عندَ الأَثينيِّينَ ألاَّ يُنَفَّذَ حُكْمُ الموتِ أثْناءَ هَذَا العِيدِ ؛ فاذَا قُضِيَ بالموتِ عَلَى مُتَّهَمٍ أثناءَ هَذَا العِيدِ أُنْتَظَرَ فِي السِّجْنِ حَتَّى يؤُوبَ الحَجِيجُ ثمَّ يُنَفَّذُ فِيهِ الْحُكْمُ . فاُضْطُرَّ سُقْرَاطُ إلى أنْ يَنْتَظِرَ أيَّاماً فى سِجْنِه ، وَأخَذَ أصحابُه وتَلامِيذُه يَخْتَلِفُونَ إليه فى السِّجْنِ كُلَّ يَوْمٍ يَقْضُونَ مَعَه بَيَاضَ النَّهَارِ فى حِوَارٍ وجِدَالٍ كأَنْ لَمْ يَصْدُرْ عليه حُكْمٌ وكأَنَّه لَم يَكُنْ يَنْتَظِرُ الموتَ ، حَتَّى آبَ الحَجِيجُ وآنَ تَنفيذُ الْحُكْمِ . فى هَذَا اليومِ أقبلَ تلاميذُ سُقْرَاطَ عَلَى أُسْتاذِهِم كَعَادَتِهِمْ ، وَلٰكِنَّهُمْ كانوا جَزِعِينَ مُضْطَرِبِينَ ، وَكانَ هو كعَادَته هادِئاً مُطْمَئِنًّا مُبْتَسِماً ، فكَانَ بَيْنَه وَبَيْنَهم حِوَارٌ مَعْرُوفٌ هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الفَلْسَفَةِ

والبَلاَغَةِ الإنْسانِيَّةِ ، وهُوَ الحِوارُ الَّذِى صَوَّرَهُ أفْلاَطُونُ فى كِتابه « فِيدُونَ » (Phèdon) ، والَّذِى يُثْبِتُ فِيهِ سُقْراطُ خُلُودَ النَّفْسِ ، والَّذِى كَانَ لَهُ التأثِيرُ العَظِيمُ فى الحَياةِ الرُّومانِيَّةِ أيَّامَ الأَمْبَراطُورِيَّةِ ، حِينَ كَانَ القَياصِرَةُ يَقْضُونَ بالموتِ عَلَى زُعَماءِ الرُّومانِ وأَشْرافِهِمْ ، فإِذَا أُنْفِذَ إِلَيْهِم أَمْرُ قَيْصَرَ أَنْ يَمُوتُوا اسْتَعَدُّوا لِلْمَوْتِ هَذَا الِاسْتِعْدَادَ الْجَمِيلَ ، فَعُنُوا بأجسامِهِمُ العِنايَةَ العَادِيَّةَ ، وأَخَذُوا فى أُمُورِهِمْ كَمَا كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ قَبْلُ : فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجِدُّ ومِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَلْهُوا ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا مِنْ ذَلِكَ قَرَءُوا « فِيدُونَ » ثُمَّ قَتَلُوا أَنْفُسَهم تَنْفِيذاً لِأَمْرِ قَيْصَرَ .

ولَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ دُونَ أَنْ أُشِيرَ إِلى هَذِهِ القِصَّةِ الَّتِى اتَّفَقَ عَلَيْها الْمُؤَرِّخُونَ

مِنْ أَنَّ بَعْضَ تَلاَمِيذِ سُقْرَاطَ هَيَّأَ لَه الهَرَبَ وأَعَدَّ لَه وَسَائِلَه وأَلَحَّ عَلَيْهِ فِيهِ ، ولٰكِنَّ سُقْرَاطَ أَبَى أَنْ يَهْرَبَ وَلَوْ شَاءَ لَنَجَا : أَبَى الهَرَبَ إِكْبَاراً لِقَوَانِينِ الدَّوْلَةِ وأحْتِرَاماً لأَحْكَامِهَا . الْحَقُّ أَنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ الصِّلَةَ بَيْنَ هَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِى وَقَفَه سُقْرَاطُ بَعْدَ الْحُكْمِ والَّذِى يُمَثِّلُه خَاضِعاً لِنِظَامِ الدَّوْلَةِ مُحْتَرِماً لَه وَبَيْنَ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الَّذى وَقَفَه أَثْنَاءَ الْمُحَاكَمَةِ والَّذى يُمَثِّلُه سَاخِراً مِنْ نِظَامِ الدَّوْلَةِ عَابِثاً بِهِ . وأَكْبَرُ ظَنِّنَا أَنَّ هٰذِهِ القِصَّةَ لاَ تَخْلُوا مِنْ مُبَالَغةٍ ، أَوْ قُلْ إِنْ سُقْرَاطَ لَمْ يَأْبَ الهَرَبَ إِلاَّ أزْدِرَاءً لِلحَيَاةِ وشَوْقاً إِلى الْمَوْتِ ؛ فَنَحْنُ نَرَاهُ فى حِوَارِهِ يَنْتَظِرُ الموتَ انْتِظارَ مُشْتَاقٍ إِليهِ مُؤْمِنٍ بأَنّه سَيَكُونُ سَعِيداً بِهِ . وقد تَنَاوَلَ السُّمَّ وجَادَ بِنَفْسِهِ بَيْنَ تَلاَمِيذِهِ فى فَبْرَايرَ أوْ مَارِسَ سَنَةَ ٣٩٩ قبلَ الْمَسِيحِ

وهو فى نَحْوِ السَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِه .

أَوْجَزْتُ لكَ حَيَاةَ سُقْرَاطَ ، ولٰـكِنِّى أشَدُّ حِرْصاً عَلَى الأمانَةِ التَّارِيخِيَّةِ مِنْ أنْ أُخْفِى عَلَيْكَ شَيْئاً يَضْطَرِبُ فى بَعْضِ أَذْهَانِ العُلَماءِ العَصْرِيِّينَ مِنْ أمْرِ سُقْرَاطَ ؛ ذَلِكَ أَنَّ مِنَ العُلَماءِ المُعَاصِرِينَ مَنْ يَشُكُّ فى وُجُودِ سُقْرَاطَ أَوْ يُنْكِرُهُ ويُرِيدُ أَنْ يَرَى فِيهِ رَأْياً يُشْبِهُ رَأْىَ النُّقَّادِ فِى وَاضِعِ « الْإِلْيَاذَةِ » و « الْأُودِسَّا » أىْ يُرِيدُ أنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ سُقْرَاطَ شَخْصٌ خُرَافِىٌّ اُخْتَرَعَه القُدَمَاء لِيُضِيفُوا إِلَيْهِ هَذِهِ الفَلْسَفَةَ الَّتِى تُسَمَّى السُّقْرَاطِيَّةَ والَّتِى نَشَأَتْ عَنْهَا فلسفةُ أَفْلَاطُونَ وأَرِسْطَاطَالِيسَ وغَيْرِهما من الفَلَاسِفَةِ . ولَسْتُ أُخْفِى عليكَ أَنَّ هَذَا الرَّأْىَ لا يَزَالُ شاذًّا وأَنَّ الكَثْرَةَ المُطْلَقَةَ مِنَ العُلَماءِ والمُؤَرِّخِينَ لا تَكَادُ تَحْفِلُ بِهِ . ولٰـكِنْ مَنْ يَدْرِى !

فَقَدْ كَانَ رَأْيُ الَّذِينَ أنكَرُوا شَخْصَ « هُومِيرُوسَ » شَاذًّا فى عَصْرٍ من العُصُورِ وكانَتِ الكَثْرَةُ المُطْلَقَةُ مِنَ العُلَمَاءِ والمُؤَرِّخِينَ لا تَحْفِلُ بِهِ، ثُمَّ تَمَّتْ لَه السِّيَادَةُ الآنَ . أَلَيْسَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَتِمَّ السِّيَادَةُ فى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ لِهَذَا الرَّأْيِ الَّذِى يُنْكِرُ وُجُودَ سُقْرَاطَ ؟ نَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ سُقْرَاطَ لَمْ يَعِشْ فى عُصُورٍ جَاهِلِيَّةٍ، وإِنَّمَا عَاشَ فى عَصْرٍ تَارِيخِيٍّ مَعْرُوفٍ لاَ يَخْفَى فِيهِ عَلَى النَّاسِ شىءٌ ولا يُمْكِنُ أَنْ يَجْرِىَ فِيهِ عَلَى النَّاسِ خِدَاعٌ غَلِيظٌ كَهَذَا الخِدَاعِ . ليسَ عِنْدَنَا شَكٌّ فى أَنَّ سُقْرَاطَ قد وُجِدَ وَعَلَّمَ وأَثَارَ العَقْلَ الأَثِينِىَّ وأَغْضَبَ الأَثِينِيِّينَ وحُوكِمَ وقُضِىَ عليهِ بالموتِ وأُنفِذَ فِيهِ هَذَا القَضَاءُ . ولَكِنَّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ شَخْصَ سُقْرَاطَ مَعْذُورُونَ .

أَوَّلاً — لِأَنَّ الآثارَ التَّارِيخِيَّةَ المُبَاشِرَةَ الَّتِي تُثْبِتُ وُجُودَ سُقْرَاطَ وما اُعْتَرَضَ حَيَاتَه مِنَ الْخُطُوبِ قَدْ فُقِدَتْ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ ، فنَحْنُ لا نَكَادُ نُحَقِّقُ تَارِيخَ مِيلَادِهِ ، وليستْ لَدَيْنَا نُقُوشٌ مُعَاصِرَةٌ فيها اُسمُه أوْ فِيها إِشارَةٌ إلى ما أَصَابَه . ولَكِنَّ هَذَا كُلَّه لا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ ، فَقَدْ فَقَدْنَا مِنْ آثارِ القُدَماءِ مُعْظَمَها ولَمْ يَكَدْ يَبْقَ لنا مِنْها شَيْءٌ .

وثَانِياً — لِأَنَّ سُقْرَاطَ لم يَكْتُبْ شَيْئاً ، وإِنَّما كانَ تَعلِيمُه حِوَاراً لا يُسجَّلُ ، فلم يَبْقَ لنا مِن سُقْرَاطَ كِتَابٌ يُمَثِّلُ شَخْصِيَّتَه تَمثِيلاً مَّا ، وإِنَّمَا نَحْنُ مُضْطَرُّونَ إلى أَنْ نَلتَمِسَ شَخْصِيَّةَ سُقْرَاطَ فِيما تَرَكَ تَلامِيذُه من الكُتُبِ : نَلتَمِسُها عندَ أفْلَاطُونَ وعِنْدَ زِينُوفُونَ (Xénophon) وعِنْدَ أَرِسْطَالِيسَ وعِندَ غيرِهِم مِن

الفَلاَسِفَةِ والكُتَّابِ الَّذِينَ حَاوَرُوه أوْ حَاوَرُوا تَلاَمِيذَه ، وهؤلاَءِ الفلاسفةُ والكُتَّابُ لا يَتَّفِقُون فى تَصْوِيرِ سُقْرَاطَ بَلْ لاَ يَكَادُونَ يَتَشَابَهُونَ فى هَذَا التَّصْوِيرِ . أَضِفْ إلى هَذَا كُلِّه أَنَّ آثارَ هؤلاَءِ الفَلاَسِفَةِ والكُتَّابِ قَدْ أصابَهَا شىءٌ كثيرٌ مِنْ عَبَثِ الزَّمانِ ، فهِىَ لا تُؤَدِّى إلينا شَخْصِيَّةَ سُقْرَاطَ عَلَى وَجْهٍ مُرْضٍ .

وثالثاً — لِأَنَّ الفَلاَسِفَةَ الَّذِينَ حاوَرُوا سُقْرَاطَ وأَخَذُوا عَنْه قَدْ عَلَّمُوا الفلسفَةَ بعدَه فى مُدُنٍ مُخْتلِفَةٍ بَلْ فى قَارَّاتٍ مختلِفةٍ ؛ وكانَ مِنَ المَعْقُولِ أنْ تَتَشَابَهَ فلسفتُهم وَيَتَقَارَبَ تعليمُهم ، إِذْ كانَ كُلُّه مُنْتَهِياً إلى مَصْدَرٍ واحِدٍ هو سُقْرَاطُ . ولٰـكِنَّ هَذِهِ الفلسفةَ مختلِفةٌ وهَذَا التَّعلِيمَ مُتَنَاقِضٌ ؛ فإِذَا نَطَقْتَ بلَفْظِ الفَلْسَفَةِ السُّقْرَاطِيَّةِ لم تَفْهَمْ مِنْها شَيْئاً مُتَشَابِهاً ، وإنَّما فَهِمتَ

منها أشياء متباينة تباينًا شديدًا كما سترى .

رابعًا — لأن حياة سقراط وموته وما اعترضه من الخطوب ، كل ذلك قد أحدث في نفوس الناس أثرًا عظيمًا ، وما هي إلا أن كثرت الأساطير والأكاذيب حول سقراط وحياته ، وأخذ الكتاب المتأخرون هذه الأساطير والأكاذيب يخلطونها خلطًا ومزجوها بالصواب مزجًا ، فأصبح من العسير جدًا تمييز الحق في أمر سقراط من الباطل . ولكن كل هذا لا يثبت أن سقراط لم يوجد ، وإنما يثبت شيئًا واحدًا لا يختلف فيه اثنان ، وهو أن شخصية سقراط شيء عسير الإثبات والتمييز ؛ وما أكثر الفلاسفة والأبطال الذين بعد بهم العهد فأصبح من العسير إثبات شخصياتهم وتمييزها ! على أن مثل هذا

البَحْثِ يَخْرُجُ بِنَا عَنِ الْخُطَّةِ الَّتِى رَسَمْناها لِأَنْفُسِنا فى هَذِهِ الفُصُولِ؛ فَلْنَتْرُكْهُ وَلْنَمْضِ فِيما نَحْنُ فِيهِ مِنْ إِيجَازِ فَلْسَفَةِ سُقْرَاطَ وأثَرِها فى الْحَياةِ العامَّةِ بَعْدَه.

الفلسفة السقراطية

قُلْنَا: إِنَّ سُقْرَاطَ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ قَاعِدَةً جَعَلَها إِمَاماً لَه فى سِيرَتِهِ وفى تَعْلِيمِه، وهِىَ هٰذِهِ الحِكْمَةُ الَّتِى كانتْ مَكْتُوبةً عَلَى مَعْبَدِ «دِلْفَ»: «اِعْرِفْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ». وهٰذِهِ الحِكمةُ نَفْسُها إِذَا تأَمَّلْنَاها أَوْضَحَتْ لَنَا جُمْلَةَ الفَلسفةِ السُّقْرَاطِيَّةِ، فهٰذِهِ الفَلسفةُ تَنْحَصِرُ، أوْ تَكادُ تَنْحَصِرُ، فى شَيْئَيْنِ:

الْأَوَّلُ — أنَّ الإِنْسانَ قَدْ جَهِلَ نَفْسَه فى جَمِيعِ العُصُورِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وأَنَّ جَهْلَه نَفْسَهُ هُوَ الَّذِى حَمَلَه عَلَى أَنْ يَلْتَمِسَ العِلْمَ فى الخَارِجِ، فَيَبْحَثَ عنه مَرَّةً فى

الأَرْضِ وأُخْرَى فى السَّماءِ ، وحِيناً فى الْجَوِّ وحِيناً فى الماءِ ، وكانَ الْحقُّ عليهِ أَنْ يَبْدَأَ بِنفْسِهِ فيَدْرُسَها ويَتَبَيَّنَ أَمْرَها ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ منها اُسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَقِلَ إلى الخارِجِ ؛ وليسَ هُوَ فى حَاجةٍ إلى ذلك ، لِأَنَّه لَنْ يَفْرُغَ مِنْ دَرْسِ نفْسِهِ أبداً ، ولِأَنَّه سَيَجِدُ فى نَفْسِهِ إِذَا دَرَسَها كلَّ شَىْءٍ .

الثَّانى — أَنَّ الفَلْسَفَةَ يَجِبُ أَنْ تَقُومَ مُنْذُ اليومِ عَلَى مَعْرِفَةِ النَّفْسِ والعِلْمِ بِهَا ، أَىْ أَنَّ الفَلسفةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ إِنْسَانِيَّةً ، أَىْ أَنَّ الفَلسفةَ يَجِبُ أَنْ تَقُومَ قَبْلَ كُلِّ شَىْءٍ عَلَى الأَخْلَاقِ .

فأَنْتَ تَرَى أَنَّ هٰذِهِ القاعِدةَ السُّقْرَاطِيَّةَ قَدْ حَمَلَتْه قَبْلَ كلِّ شَىْءٍ عَلَى أَنْ يُعْلِنَ جَهْلَه ؛ لِأَنَّه لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئاً قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ نَفْسَهُ ؛ وإِذْ كانَ يَجْهَلُ

نَفْسَهُ فَهُوَ يجْهَلُ كُلَّ شَىْءٍ . ثُمَّ حَمَلَتْه بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ نَفْسَه فَيَبْحَثَ عَنْ جَوْهَرِها وخِصالِها وعَمَّا يُلائِمُها ومَا يُخالِفُها . وبِهذا البَحْثِ وَضَعَ سُقْرَاطُ أَساسَ عِلْمِ النَّفْسِ مِنْ جِهَةٍ وأَساسَ عِلْمِ الأَخْلاقِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . أَمَّا عِلْمُ النَّفْسِ فَلَمْ يَتَعَمَّقْ فِيهِ سُقْرَاطُ ؛ لِأَنَّ سُقْرَاطَ لَمْ يَكُنْ نَظَرِيًّا ولا مَفْتُونًا بالبَحْثِ الخالِصِ الَّذِى لَيسَ بَيْنَه وبَيْنَ الْحَيَاةِ العَمَلِيَّةِ صِلَةٌ ، وإِنَّما كانَ يُشْبِهُ السُّوفِسْطَائِيِّينَ شَبَهًا قَوِيًّا ويُخالِفُهم مُخالَفَةً قَوِيَّةً : كانَ يُشْبِهُهُمْ مِنْ حَيْثُ إنه كانَ يَمْقُتُ البَحْثَ النَّظَرِيَّ الخالِصَ ، وكانَ شَدِيدَ المَيْلِ إلى البَحْثِ الَّذِى يَمَسُّ الْحَيَاةَ العَمَلِيَّةَ ويَهْدِى إلى سُبُلِ الخيرِ فِيها ؛ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ كانَ يُنْكِرُ المَذاهِبَ الفَلْسَفِيَّةَ القَدِيمَة كما كانَ يُنْكِرُها

السُّوفسْطائيُّونَ ، وكانَ يَعْبَثُ بالعادَاتِ والنُّظُمِ المَوْرُوثَةِ كما كَانَ يَعْبَثُ بها السُّوفسْطَائيُّون . ولَـكِنَّهُ كانَ يُخَالِفُ السُّوفسْطَائيِّينَ خِلاَفًا شَدِيداً ؛ فَقَدْ كانَ هٰؤُلاَءِ يُعْرِضُونَ عَنِ النَّظَرِ الخالِصِ إلى المَنْفَعَةِ العَمَلِيَّةِ الخالِصَةِ ، وكانُوا يَبْتَغُونَ المَنْفَعَةَ فى أَغْلَظِ وُجُوهِها وأَحَطِّها : يَبْتَغُونَ المَجْدَ والصَّوْتَ ، والمالَ ولَذَّاتِ الحَيَاةِ ؛ ويَسْلُـكُونَ إلى هذا كُلِّه أيْسَرَ السُّبُلِ وأَسْهَلَها ، لا يَعُوقُهم عنه عائقٌ ولا يَمْنَعُهُم منه مانعٌ . أَمَّا سُقْراطُ فَكانَ يُعْرِضُ عَنِ النَّظَرِ الخالِصِ ، لا إلى هٰذِهِ المَنَافِعِ المُبْتَذَلَةِ ، بَلْ إلى المَنْفَعَةِ المُحققَةِ إلى مَنْفَعَةِ النَّفْسِ مِنْ حَيْثُ هِيَ ، فلَمْ يَكُنْ يَحْفِلُ بِالمَجْدِ ولا بالثَّرْوَةِ ولا بالشُّهْرَةِ ، وإِنَّما كانَ يَبْتَغِى السَّعادَةَ ، وقَدْ بَحَثَ عنها كَثِيراً واهْتَدَى إليها آخِرَ الأمْر ، فعَرَفَ أَنَّ

السَّعَادَةَ إِنما هِيَ الْخَيْرُ ، أىْ أَنْ يَكُونَ الإِنسانُ خَيِّراً ، عَدْلاً مُؤْثِراً لِلْحَقِّ من حَيْثُ هُوَ ، مُطْمَئِناً إِلى الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ . فَبَيْنَما كانَ السُّوفِسْطَائِيُّونَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ أَنْ يَكُونُوا نَفْعِيِّينَ مَادِّيِّين ، كانَ سُقْرَاطُ يُعَلِّمُ النَّاسَ أَنْ يَكُونُوا نَفْعِيِّينَ ، ولٰكِنْ عَلَى الوَجْهِ الرُّوحِيِّ الَّذِى يُؤْثِرُ البَاقِيَةَ عَلَى الفَانِيَةِ ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَيِّزَ الْجَوْهَرَ مِنَ العَرَضِ وأَنْ يَزْدَرِىَ زُخْرُفَ الْحَيَاةِ فى سَبِيل السَّعادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ . وبينما كانَ السُّوفِسْطَائِيُّونَ يُنْكِرُونَ كُلَّ شَىْءٍ ويَجْحَدُونَ كُلَّ حَقِيقَةٍ ، فيَهْدِمُونَ بذلك كُلَّ عِلْمٍ وكُلَّ فلسفةٍ ، كانَ سُقْرَاطُ يُثْبِتُ الْحَقَائقَ ويُعْلِنُ أَنَّ هَذَا العالَمَ ليسَ لَغْواً وَلا عَبَثاً ولا باطِلاً ، ويَسْلُكُ فى إِثْبَاتِ هَذَا كُلِّه سَبِيلاً تَقْرُبُ كُلَّ القُرْبِ مِنَ السَّبِيل الَّتِي سَلَكَها

دِيكَرْتُ بَعْدَهُ بِعِشْرِينَ قَرْنًا ، وهِيَ أَنْ يُثْبِتَ وُجُودَ نَفْسِهِ أَوَّلاً . فإِذَا ثَبَتَ له وجودُ نفسِهِ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ فِي العَالَمِ حَقَائِقَ ثابتةً ، وأَنَّ فَلسفةَ السُّوفِسْطَائِيَّةِ كُلَّهَا تقومُ عَلَى شَيْءٍ مِن العَبَثِ وَالْمُغَالَطَةِ ؛ ذٰلِكَ أَنَّكَ مَهْمَا تُنْكِرْ فلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُنْكِرَ نَفْسَك ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُنْكِرَ أَنَّكَ تُفَكِّرُ وتُحِسُّ وتَشْعُرُ ؛ وإذاً فَنَفْسُكَ وما يَصْدُرُ عنها مِنْ تفكيرٍ وحِسٍّ وشُعُورٍ ، كُلُّ ذلكَ حقائقُ ثابتةٌ لا تَحْتَمِلُ شَكًّا وَلا جِدَالاً . ومِنْ هُنَا قامتِ الفَلسفةُ السُّقْرَاطِيَّةُ ، أَوَّلاً عَلَى مُحَارَبَةِ السُّوفِسْطَائِيَّةِ وإِثباتِ أَنَّ هُنَاكَ حقائقَ موجودةً ، وَثَانِياً عَلَى أَنَّ هٰذِهِ الحقائقَ إِنَّما تُعْلَمُ إِذَا عُلِمَتِ النَّفْسُ الإِنسانِيَّةُ الَّتِي هِيَ السَّبِيلُ الْحَقِيقِيَّةُ إِلَى إِدرَاكِهَا ، وَثَالِثاً عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِهٰذِهِ النَّفْسِ لَيْسَ

مَعْنَاهُ إلاَّ الْعِلْمَ بِجَوْهَرِهَا وَمَا يُلاَئِمُهَا وَمَا يُخَالِفُهَا ، وَرَابِعاً عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِهَذَا كُلِّهِ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهُ — أَوْلاَ يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنْهُ — إلاّ السَّعَادَةَ الَّتِى هِىَ تَحْصِيلُ مَا يُلاَئِمُ النَّفْسَ وَتَجَنُّبُ مَا يُخَالِفُهَا ؛ وَخَامِساً أَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا إِنَّمَا تَدُورُ حَوْلَ مِحْوَرٍ وَاحِدٍ عَنْهُ صَدَرَتْ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِى وَهُوَ الْخَيْرُ . هَـذِهِ هِىَ خُلاَصَةُ الْفَلْسَفَةِ الَّتِى يُمْكِنُ أَنْ تُضَافَ إِلَى سُقْرَاطَ . وَهِىَ شَىْءٌ مِنَ الْيَسِيرِ أَنْ يُوجَزَ فِى جُمَلٍ قِصَارٍ ، وَلَـكِنْ مِنَ الْعَسِيرِ جِدًّا أَنْ يُحْصَى تَأْثِيرُهُ فِى الْحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّـةِ وَالْعَقْلِ الإِنْسَانِىِّ .

عَلَى أَنّ مِنَ التَّقْصِيرِ أَنْ نَزْعُمَ أَنَّ فَلْسَفَةَ سُقْرَاطَ قَدِ انْتَهَتْ عِنْدَ هَذا الْحَدّ ، بَلْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ هُنَاكَ وَجْهاً آخَرَ مِنْ وُجُوهِ الْفَلْسَفَةِ السُّقْرَاطِيَّـةِ

يَحْسُنُ أَلاَّ نَنْسَاهُ وَأَلاَّ نُهْمِلَهُ ، وَهوَ مَنْهَجُهُ فِي الْبَحْثِ وطَرِيقَتُهُ فِي التَّفْكِيرِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ سُقْرَاطُ كَغَيْرِهِ مِنَ الفَلاسِفَةِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوه ، وَلا كَغَيْرِهِ منَ الفَلاسِفَةِ الَّذِين جاءُوا بَعْدَهُ بِزَمَنٍ قَصِيرٍ ، يُوَاجِهُ الْمَبَاحِثَ الفَلْسَفِيَّةَ مُبَاشَرَةً وَيهجُمُ عليها هُجُومًا عَنِيفاً حَتَّى يَخْلُصَ مِنْها إلى نَتَائِجها ، وإنَّما كَانَ يَدُورُ حَوْلَ الْمَباحِثِ الفَلسفيَّةِ فِي رِفْقٍ ولُطْفٍ ، وَمَا يَزَالُ يَدُرُ حَوْلَهَا ، حَتَّى يَجِدَ مَسْلَكًا ضَيِّقاً يَسْلُكُهُ يَنْتَهِي بِهِ إلى النَّتِيجَةِ الَّتِي كَانَ يَبْتَغِيها . هٰذهِ الطَّرِيقَةُ الْفَلْسَفِيَّةُ هِيَ طَرِيقَةُ الحِوارِ . لَمْ يَكُنْ سُقْرَاطُ يَضَعُ أَمَامَهُ مَسْأَلَةً بِعَيْنِهَا ثُمَّ يأخُذُ فِي التَّحْلِيلِ وَالنَّقْدِ وَالتَّعْمِيمِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إلى مَا يُرِيدُ ، وَإنَّمَا كَانَ يَتَحَدَّثُ ، فَيَسْأَلُ وَيُنَاقِشُ جَوَابَ الْمَسْئُولِ ، ثُمَّ يَسْأَلُ ، ثُمَّ يَتَعَرَّضُ لِلسُّؤَالِ ، ثُمَّ يُجِيبُ ، ثُمَّ يُوَرِّطُ

مُحَاوِرَهُ فى الخطإِ، أَوْ يَتَوَرَّطُ هُوَ فِي الْخَطإِ، وَمَا يَزَالُ فِي حِوَارٍ وَفِي أَخْذٍ وَرَدٍّ حَتَّى يَسْتَخْلِصَ النَّتِيجَةَ كَأَنَّهَا إِحْدَى الْقَضَايَا الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي لاَ تَحْتَمِلُ الشَّكَّ وَلاَ الْجِدَالَ . وَمَصْدَرُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، أَنَّ سُقْرَاطَ كَانَ يَعتَقِدُ أَنَّ النَّفْسَ بِطَبِيعَتِهَا قَادِرَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ وَعلى اسْتِكْشَافِ الحقَائِقِ، وَلَكِنَّ ظُرُوفَ الحياةِ الْعَمَلِيَّةِ وَأَعْرَاضَهَا، وَمَا وَرِثَ النَّاسُ مِنْ عَادَاتٍ وَأَخْلاَقٍ، وَمِنْ أَسَاطِيرَ وَسَخَافَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَرَاكَمَ على هَذِهِ النَّفْسِ الصَّافِيةِ كَمَا يَتَرَاكَمُ الصَّدَأُ عَلَى الْمِرْآةِ، فَعَمَلُ الْفَيْلَسُوفِ، لَيْسَ هُوَ تَعْلِيمَ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَإِنَّمَا هُوَ إِعْدَادُ الْإِنْسَانِ لِكَشْفِ الحقَائِقِ . أَوْ قُلْ : إِنَّ عَمَلَ الْفَيْلَسُوفِ إِنَّمَا هُوَ إِزَالَةُ هذَا الصَّدَإِ عَنِ الْمِرْآةِ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّ صَقْلَهَا وَتَصْفِيَةَ

جَوْهَرِهَا تَجَلَّتْ فِيهَا الْحَقَائِقُ وَاضِحَةً بَيِّنَةً ؛ وَمِنْ هُنَا كَانَ سُقْرَاطُ يُعْلِنُ أَنَّهُ لَا يُعَلِّمُ النَّاسَ شَيْئًا لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا يَبْحَثُ مَعَهُمْ عَنِ الْحَقِّ فَيَجِدُهُ حِينًا وَيُخْطِئُهُ حِينًا . وَمِنْ هُنَا سُمِّيَتْ طَرِيقَةُ سُقْرَاطَ طَرِيقَةَ « التَّوْلِيدِ » ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ النَّفْسَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْحَقَائِقِ كَمَا تَشْتَمِلُ الْأُمُّ عَلَى الْجَنِينِ ، وَأَنَّ عَمَلَ الْفَيْلَسُوفِ هُوَ اسْتِخْرَاجُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ مِنَ النَّفْسِ ، كَمَا أَنَّ عَمَلَ الْقَابِلَةِ هُوَ اسْتِخْرَاجُ الْجَنِينِ مِنَ الْأُمِّ . وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ صَحِيحَةً أَمْ لَمْ تَكُنْ ، وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صِنَاعَةِ سُقْرَاطَ صِلَةٌ أَمْ لَمْ تَكُنْ ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ تَصِفُ طَرِيقَةَ سُقْرَاطَ الْفَلْسَفِيَّةَ فِي الْبَحْثِ وَصْفًا دَقِيقًا .

أَعْتَقِدُ أَنِّي قَدْ أَجْمَلْتُ لَكَ مَا يُمْكِنُ إِجْمَالُهُ مِنْ

فَلْسفَةِ سُقْرَاطَ وَمَا هُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ النِّزَاعِ وَالْجِدَالِ ، فَهُنَالِكَ مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ فِي صِحَّةِ إِضَافَتِهَا إِلَى سُقْرَاطَ . وَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ الْآنَ إِلاَّ أَنْ أُجْمِلَ لَكَ مِقْدَارَ التَّأْثِيرِ الَّذِي أَحْدَثَهُ سُقْرَاطُ فِي الْعَصْرِ الَّذِي جَاءَ بَعْدَهُ مُبَاشَرَةً .

قُلْتُ : إِنَّ الشَّبَابَ الْأَثِينِيَّ كَانَ شَدِيدَ الِالْتِفَافِ حَوْلَ سُقْرَاطَ وَإِنَّ النَّاسَ تَسَامَعُوا بِهِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْيُونَانِيَّةِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ وَاشْتَرَكُوا فِي حِوَارِهِ . فَلَمَّا قُضِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ وَأُنْفِذَ فِيهِ هَذَا الْقَضَاءُ ، ظَهَرَ فِي أَثِينَا رُوحٌ رَجْعِيٌّ مُعَادٍ لِلْفَلْسَفَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ مَيَّالٌ إِلَى الْمُحَافَظَةِ فِي الرَّأْيِ ، فَتَفَرَّقَ تَلَامِيذُ سُقْرَاطَ الْأَصْفِيَاءُ ، سَوَاءٌ مِنْهُمُ الْأَثِينِيُّونَ وَغَيْرُ الْأَثِينِيِّينَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَادَ إِلَى وَطَنِهِ وَأَخَذَ يُعَلِّمُ الْفَلْسَفَةَ فِيهِ ،

وَمِنْهُمْ مَنْ هَاجَرَ إلى أَرْضٍ أُخْرَى وَأَنْشَأَ فِيهَا مَدْرَسَةً تَوَارَثَهَا خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَاحَ فِي الأَرْضِ ، وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَخْفَى فِي أَثِينَا وَتَرَكَ الْفَلْسَفَةَ إلى حِينٍ ، حَتَّى إذَا هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ اسْتَأْنَفَ بَحْثَهُ الْفَلْسَفِيَّ وَأَخَذَ يُعَلِّمُ النَّاسَ . كُلُّ هَؤُلَاءِ التَّلَامِيذِ نَشَرُوا فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ الْيُونَانِيَّةِ فَلْسَفَةَ سُقْرَاطَ وَفَلْسَفَتَهُمُ الْخَاصَّةَ . وَمَا هِيَ إلاَّ أَعْوَامٌ بَعْدَ مَوْتِ سُقْرَاطَ حَتَّى كَانَ تَلَامِيذُهُ قَدْ أَنْشَأُوا الْمَدَارِسَ الْمُخْتَلِفَةَ فِي أَطْرَافٍ مِنْ بِلَادِ الْيُونَانِ الْحَقِيقِيَّةِ أَوْ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ الإِيطَالِيَّةِ وَالأَسْيَوِيَّةِ ، بَلْ فِي إفْرِيقِيَّةَ ، وَأَخَذَتْ هٰذِهِ الْمَدَارِسُ بِحُظُوظِهَا الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَاةِ فَمِنْهَا مَا بَقِيَ وَحُفِظَتْ آثَارُهُ ، وَمِنْهَا مَا ذَهَبَ بِهِ عَبَثُ الأَيَّامِ . وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ هٰذِهِ الْمَدَارِسِ إلاَّ

ثلاثاً كان لها أثر عظيم جداً في حياة العالم القديم ، وكان لبعضها أثر لا يزال قوياً في حياة العالم الحديث : الأولى مدرسة « الكلبيين » التي أنشأها رجل من تلاميذ سقراط يسمى «أنتستين» (Antistène) في أثينا والتي اتخذت اسمها من المكان الذي أنشئت فيه ، والتي كانت تقوم فلسفتها على قاعدة سقراط التي قدمناها ، وهي معرفة النفس بالنفس ، ولكنها كانت تطبق هذه القاعدة تطبيقاً انتهى بها إلى الزهد وإلى المبالغة فيه ، لأنها حاولت أن تعرف النفس فعرفتها واستغنت بها عن كل شيء ، وحملتها هذه المعرفة على أن تزدري الحياة والأحياء ، وما يستمتعون به من لذة ، وما يتهالكون عليه من زينة . ولعلك تعرف كثيراً من أخبار « ديوجين »

(Diogéne) الَّذِى كَانَ يَبْحَثُ عَنِ الإِنْسَانِ فَلاَ يَجِدُهُ ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَهُ هُوَ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ ؛ وَأَىُّ النَّاسِ يَعْرِفُ نَفْسَهُ ؟ وَالَّذِى يُقَالُ إِنهُ كَانَ يأْوِى إلى دَنٍّ يَتَّخِذُهُ لَهُ بَيْتاً ، وَكَانَ لاَ يَكْرَهُ أَنْ يَسْتَظِلَّ السَّماءَ وَيَتَّخِذَ الأَرْضَ لَهُ وِطَاءً وَيَشْرَبَ المَاءَ بِيَدِهِ يَسْتَغْنِى بِهَا عَنِ الأَقْدَاحِ ، وَالَّذِى يُقَالُ إِنَّ الإِسْكَنْدَرَ زَارَهُ وَسَأَلَهُ : مَاذَا يُرِيدُ ؟ فَأَجَابَهُ : أُرِيدُ أَلاَّ تَحْجُبَ عَنِّى الشَّمْسَ ! فَقَالَ الإِسْكَنْدَرُ : لَوْ لَمْ أَكُنِ الإِسْكَنْدَرَ لَوَدِدْتُ أَنْ أَكُونَ دِيُوجِينَ . كَانَ تَأْثِيرُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ شَدِيداً جِدًّا فِى العُصُورِ الأُولى، فَقَدِ انْبَعَثَ تَلاَمِيذُها فِى البلاَدِ الْيُونَانِيَّةِ فِى أَزْيَاءِ الْفُقَرَاءِ والْمُعْوِزِينَ لاَ يَلْتَمِسُونَ مِنَ النَّاسِ شَيْئاً ، وَلٰكِنَّهُمْ يَدْعُونَهُم إلى الزُّهْدِ والْقَنَاعَةِ وَالانْصِرَافِ عَنِ اللَّذَّاتِ .

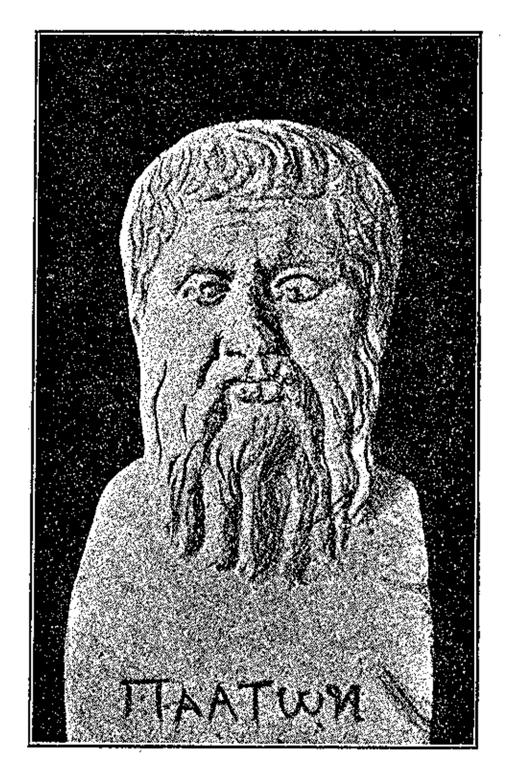
وَلَعَلَّكَ تَذْكُرُ مَا كَانَ لِمِثْلِ هٰذِهِ النَّظَرِيَّاتِ مِنَ الْأَثَرِ فِي حَيَاةِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَلاَ سِيَّمَا أَيَّامَ الأَمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَقُبَيْلَ انْتِشَارِ الدِّيَانَةِ الْمَسِيحِيَّةِ .

الْمَدْرَسَةُ الثَّانِيَةُ مَدْرَسَةُ « قُورِينَا » (Cyréne) أَوْ مَدْرَسَةُ « بَرْقَةَ » وَهِيَ مَدرَسَةٌ مُنَاقِضَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لِلْمَدْرَسَةِ الَّتِي قَدَّمْتُ لَكَ ذِكْرَهَا ، أَنْشَأَهَا تِلْمِيذٌ مِنْ تَلاَمِيذِ سُقْرَاطَ يُقَالُ لَه أَرِسْتِبُّ (Aristippe) ، وَتَوَارَثَهَا خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَيَّامِ الْمَقْدُونِيِّينَ فِي مِصْرَ ، وَكَانَتْ تَقُومُ أَيْضًا عَلَى قَاعِدَةِ سُقْرَاطَ « اِعْرِفْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ » وَلَكِنَّهَا سَلَكَتْ سَبِيلاً غَيْرَ سَبِيلِ « الْكَلْبِيِّينَ » ، عَرَفَتِ النَّفْسَ ، فَوَجَدَتْ أَنَّ الْخَيْرَ إِنَّمَا هُوَ فِي أَنْ تَزْدَرِيَ النَّفْسُ الْحَيَاةَ وَالْأَحْيَاءَ ازْدِرَاءً لاَ يَقُومُ عَلَى الزُّهْدِ وَالْحِرْمَانِ ،

وَإِنَّمَا يَقُومُ عَلَى اللَّذَّةِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِالْخَيْرِ ، مَا وَجَدْتَ إِلَى هَذَا الِاسْتِمْتَاعِ سَبِيلاً . فَلِمَ الْحِرْمَانُ ؟ وَلِمَ الزُّهْدُ ؟ وَلِمَ النِّفَاقُ ؟ أَلَسْتَ تَشْعُرُ بِأَنَّ شَيْئًا يَلَذُّكَ وَشَيْئًا يُؤْذِيكَ ! فَالْخَيْرُ هُوَ أَنْ تُؤْثِرَ مَا يَلَذُّكَ عَلَى مَا يُؤْذِيكَ ، وَلَكِنْ ، لاَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ عَبْداً لِلَذَّةٍ ، بَلْ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ اللَّذَّةَ أَمَةً لِنَفْسِكَ ، تَأْخُذُ مِنْهَا مَا اسْتَطَعْتَ ، دُونَ أَنْ تَأْسَفَ عَلَيْهَا إِذَا حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا ، وَدُونَ أَنْ تُضَحِّيَ فِي سَبِيلِهَا بِإِنْسَانِيَّتِكَ . وَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ أُذَكِّرَكَ بِمَا كَانَ لِهَـٰذِهِ الْمَدْرَسَةِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْحَيَاةِ الْقَدِيمَةِ ، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَذْهَبَيْنِ خُلُقِيَّيْنِ كَانَا يَتَنَازَعَانِ حَيَاةَ الْقُدَمَاءِ : أَحَدُهُمَا مَذْهَبُ الزُّهْدِ الَّذِي أَعْلَنَهُ الْكَلْبِيُّونَ بَعْدَ سُقْرَاطَ ، وَبَالَغَ فِيهِ الرِّوَاقِيُّونَ بَعْدَ أَرِسْطَاطَالِيسَ ، وَالثَّانِي مَذْهَبُ اللَّذَّةِ الَّذِي أَعْلَنَهُ

« أَرِسْتِيبُ » بَعدَ سُقراطَ وَبَالَغَ فِيهِ « أَبِيقُورُ » (Epicure) بَعْدَ أَرِسْطاطاليسَ .

أَمَّا الْمَدرَسةُ الثَّالِثَةُ ، فَهِيَ أَبْقَى الْمَدارِسِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْ فَلسفةِ سُقراطَ وَأَبْعدُهَا أَثَراً فى الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَعْظَمُهَا حَظًّا مِن الْخُلُودِ : أَثَّرَتْ فى الْعَالَمِ الْقَدِيمِ ، وَأَثَّرَتْ فى الْقُرُونِ الوُسْطَى ، وَأَثَّرَتْ فى الْعَالَمِ الْحَدِيثِ ، وَمَا زَالَ لَهَا أَنْصَارُهَا وَتَلاَمِيذُهَا إِلَى الْيَوْمِ وَإِلَى مَا بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَـٰكِنِّي لاَ أُحَدِّثُكَ عَنهَا فى هٰذَا الْفَصْلِ ، فَهِيَ تَحتَاجُ إِلَى فَصْلٍ خَاصٍّ ، لِأَنَّهَا أَنْشَأَتْ لَنَا رَجُلَيْنِ مِنْ قَادَةِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ الْعَامِّ : أَحَدُهُمَا « أَفْلَاطُونُ » ، وَالثَّانِي « أَرِسْطاطاليسُ » .



أفلاطون

أَفلاطون

١ — كَانَ سُقْرَاطُ قَدْ نَيَّفَ عَلَى الْخَمْسِينَ حِينَ وُلِدَ أَفْلَاطُونُ سَنَةَ ٤٢٨ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، فَكَانَ أَثَرُ الْحَوَادِثِ الَّتِي امْتَلأَ بِهَا الثُّلُثُ الْأَخِيرُ لِلْقَرْنِ الْخَامِسِ مُخْتَلِفاً فِي نَفْسِ الشَّيْخِ الْمُجَرِّبِ سُقْرَاطَ ، وَفِي نَفْسِ الشَّابِّ الْحَدَثِ أَفْلَاطُونَ : بَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ يَنْظُرُ إِلَى هٰذِهِ الْحَوَادِثِ نَظْرَةَ الْفَاهِمِ لَهَا ، الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِهَا وَنَتَائِجِهَا شَيْءٌ ، كَانَ هَذَا الشَّابُّ يَنْظُرُ إِلَى هٰذِهِ الْحَوَادِثِ نَظَرَ الْمُرْتَاعِ لَهَا ، الَّذِي لَا يَقْدُرُهَا وَلَا يَكَادُ يَفْهَمُهَا . وَلَعَلَّ هَذَا الِاخْتِلَافَ فِي النَّظَرِ إِلَى الْحَوَادِثِ وَفَهْمِهَا ، وَالْحُكْمِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةٌ مُطَّرِدَةٌ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا ، عَلَى اخْتِلَافِ أَجْيَالِهَا وَبِيئَاتِهَا . فَالْإِنْسَانِيَّةُ مُنْقَسِمَةٌ أَبَداً

إِلى الشُّيوخِ وَالشُّبَّانِ ، وَنَظَرُ الشُّيوخِ مُخَالِفٌ لِنَظَرِ الشُّبَّانِ ، وَأَثَرُ الحادِثَةِ المُعَيَّنَةِ فى نَفْسِ الشَّيْخِ ، غَيْرُهُ فى نَفْسِ الشَّابِّ : وَمِنْ هُنَا كَانَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ الْأَجْيالِ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ تَطَوُّرُ الإِنْسَانِيَّـــةِ المُطَّرِدُ . غَيْرَ أَنَّ الحَوَادِثَ تَخْتَلِفُ قُوَّةً وَضَعْفاً . فَمِنْهَا مَا هُوَ هَوْلٌ كُلُّهُ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِينٌ كُلُّهُ . وَنُفُوسُ الشُّيوخِ وَالشُّبَّانِ تَخْتَلِفُ اخْتِلافاً شَدِيداً : فَمِنْهَا المُمْتَازُ وَمِنْهَا العَادِىُّ ، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَحْدَاثُ الَّتِى لَيْسَتْ فِى أَنْفُسِهَا إِلَّا هَوْلاً ، وَإِذَا قَضَتِ المُصَادَفَةُ أَنْ تُوجَدَ بِإِزَاءِ هٰذِهِ الْأَحْدَاثِ نُفُوسٌ مُمْتَازَةٌ ، رَاقِيَةٌ فِى حِسِّهَا ، أَوْ فَهْمِهَا ، أَوْ حُكْمِهَا ، كَانَ مِنَ المَعْقُولِ جِدًّا أَنْ يُوجَدَ الفَيلسوفُ ، أَوْ أَنْ يُوجَدَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ ؛ وكانَ مِنَ المَعْقُولِ جِدًّا أَنْ يَظْهَرَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ فى فَهْمِهِمْ

لِلْأَشْيَاءِ وَحُكْمِهِمْ عَلَيْهَا . وَقَدْ أَرَادَتِ الْمُصَادَفَةُ أَنْ تَجْتَمِعَ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، الَّذِي كَانَ أَفْلَاطُونُ يَسْتَقْبِلُ فِيهِ الْحَيَاةَ وَسُقْرَاطُ يَسْتَقْبِلُ فِيهِ الْمَوْتَ ، أَحْدَاثٌ عَظِيمَةٌ خَطِيرَةٌ ، لَمْ تَعْهَدْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ قَبْلُ . وَأَقُولُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَأَسْتَعْمِلُ هَذَا اللَّفْظَ الْعَامَّ عَلَى عُمُومِهِ مُتَعَمِّداً ، فَقَدِ اعْتَادَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْحُرُوبَ ، وَتَعَرَّضَتْ لِلْأَهْوَالِ وَتَجَشَّمَتِ الْخُطُوبَ ، مُنْذُ عَرَفَتِ الْحَيَاةَ الْمُنَظَّمَةَ . وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ قَدْ عَرَفَتْ حَرْباً ، وَلَا تَعَرَّضَتْ لِهَوْلٍ . وَلَا تَجَشَّمَتْ خَطْباً كَتِلْكَ الْحَرْبِ وَتِلْكَ الْأَهْوَالِ وَالْخُطُوبِ ، الَّتِي تَعَرَّضَتْ لَهَا فِي آخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمَسِيحِ .

الْأَمْرُ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ كَالْأَمْرِ فِي الْحَرْبِ الْعُظْمَى الَّتِي لَمْ نَنْسَهَا بَعْدُ ، وَالَّتِي لَا نُخْطِئُ إِنْ قُلْنَا إِنَّ

الْإِنْسَانِيَّةَ لَمْ تَعْرِفْ حَرْبًا تَعْدِلُهَا هَوْلًا وَفَظَاعَةً. فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُعَلِّلَ هَذَا، فَتَعْلِيلُهُ يَسِيرٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَالَمَ كَانَ قَدِ انْتَهَى فِي سَنَةِ ١٩١٤ إِلَى حَدٍّ مِنَ الرُّقِيِّ غَيْرِ مَأْلُوفٍ، وَأَنَّ الْحَرْبَ اسْتَفَادَتْ مِنْ رُقِيِّ الْعَالَمِ، فَأَضَافَتْ إِلَى أَهْوَالِهَا الْمَأْلُوفَةِ أَهْوَالًا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ بِهَا عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ. كَذَلِكَ الْحَالُ فِي تِلْكَ الْحَرْبِ الَّتِي اضْطَرَبَ لَهَا الْعَالَمُ الْقَدِيمُ فِي آخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمَسِيحِ وَالَّتِي شَبَّتْ نَارُهَا حِينَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَدِ انْتَهَى مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ إِلَى حُدُودٍ بَعِيدَةٍ جَعَلَتْ هَذِهِ الْحَرْبَ بِدْعًا مِنَ الْحُرُوبِ الَّتِي سَبَقَتْهَا.

أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْحَرْبَ هِيَ الَّتِي يَعْرِفُهَا التَّارِيخُ بِاسْمِ حَرْبِ « بِيلُوبُونِيز » (Péloponêse) وَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ أَصِفَ لَكَ أَهْوَالَهَا، أَوْ أُلِمَّ بِشَيْءٍ مِنْ

آثارها المُنْكَرَةِ فِي حياةِ الْعالَمِ القَدِيمِ؛ فَقَدْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَظْفَرَ بِمَا شِئْتَ مِنْ ذَلِكَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ، وَلاَ سيَّمَا فِي كِتَابِ «توسِيدِيدَ» (Thncydide) الْأَثِينِيّ الَّذِي اشْتَرَكَ فِي هَذِهِ الحَرْبِ، وَكَتَبَ فِي تَارِيخِهَا كِتَاباً هُوَ آيَةٌ مِنْ آياتِ الْفَنِّ الْقَدِيمِ.

نَشِبَتْ هَذِهِ الحَرْبُ بَيْنَ أَثِينا وَإِسْبَرْطَا فِي نَحْوِ العَصْرِ الَّذِي وُلِدَ فِيه أَفْلاَطُونُ، ولَمْ تَلْبَثْ أَنِ اشْتَمَلَتْ بِلاَدَ اليُونَانِ جَمِيعاً، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَجَاوَزَتْ بِلاَدَ اليُونَانِ الحَقِيقِيَّةَ إِلَى المُسْتَعْمَرَاتِ اليُونَانِيَّةِ فِي آسيَا الصُّغْرَى وَفِي إِيطَاليَا وصِقِلِّيَّةَ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَجَاوَزَتِ الْعَالَمَ الْيُونَانِيَّ إِلَى الْعَالَمِ الشَّرْقِيِّ، فَتَدَخَّلَتْ فِيهَا الْفُرْسُ، ثُمَّ تَدَخَّلَتْ فِيهَا أُمَمٌ أُخْرَى غَيْرُ الفُرْسِ، إِمَّا خاضِعَةٌ لِأَمْرِ الفُرْسِ، وَإِمَّا مُخَالِفَةٌ لِلفُرْسِ، وإِمَّا

مُنَاوِئَةٌ لِلْفُرْسِ ؛ وعَلَى هذَا النَّحْوِ اُنْتَهَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ إِلَى أَنْ أَحْدَثَتِ اُضْطِرَاباً عَالَمِيًّا أَخَذَتْ كُلَّ الشُّعُوبِ الْحَيَّةِ يَوْمَئِذٍ مِنْهُ بِحَظٍّ . وَلَمْ تَدُمْ سَنَةً أَوْ سَنَتَيْنِ وَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ رُبْعَ قَرْنٍ . ولَمْ تَقْتَصِرْ آثَارُهَا عَلَى إِزْهَاقِ النُّفُوسِ وسَفْكِ الدِّمَاءِ وتَدْمِيرِ الْمُدُنِ وَإِزَالَةِ السُّلْطَانِ وتَبْدِيدِ أَلْوَانِ الثَّرْوَةِ ، وَإِنَّما كَانَتْ لَها آثَارٌ أُخْرَى أَبْعَدُ مِنْ هَذِهِ الآثَارِ وأَشَدُّ عَمَلاً فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، أُرِيدُ بِهَا الآثَارَ الْعَقْلِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ ؛ فَقَدْ أَظْهَرَتْ هَـذِهِ الْحَرْبُ فَسَادَ الْقَدِيمِ مِنْ أَكْثَرِ وُجُوهِهِ وضَرُورَةَ الْعُدُولِ عَنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ ، وَأَظْهَرَتْ ضَعْفَ ما كَانَتْ تَقُومُ عَلَيْهِ الْجَمَاعَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ مِنْ أُسُسٍ وَنُظُمٍ وَعَقَائِدَ ، وَاُضْطَرَّتِ الْإِنْسَانَ إِلَى أَنْ يَبْحَثَ عَنْ أُسُسٍ أُخْرَى

وَنُظُمٍ أُخْرَى يُقِيمُ عَلَيْهَا الِاجْتِمَاعَ الْجَدِيدَ.

اِشْتَرَكَ سُقْرَاطُ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ، فَأَدَّى وَاجِبَهُ كَمَا كَانَ يُؤَدِّيهِ كُلُّ أَثِينِيٍّ، وَلَكِنَّهُ كَانَ شَيْخًا. وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ لَمْ يُقَدِّرْ خَطَرَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَلَمْ يُحَاوِلْ التَّعَمُّقَ فِي دَرْسِ آثَارِهَا فِي الْحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْبِلَةِ، وإِنَّمَا كَانَ مُنْصَرِفًا عَنْ ذَلِكَ إِلَى فَلْسَفَتِهِ الَّتِي قَدَّمْنَا تَلْخِيصَهَا فِي الْفَصْلِ الْمَاضِي. وَاشْتَرَكَ أَفْلَاطُونُ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ فَأَدَّى وَاجِبَهُ كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَثِينِيِّينَ أَيْضًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَسُقْرَاطَ مَعْنِيًّا بِفَلْسَفَتِهِ وَمُهِمَّتِهِ الَّتِي كَلَّفَهُ إِيَّاهَا «أَبُلُّونُ» (Apollon) فَلَمْ تَكُنْ لَهُ فَلْسَفَةٌ وَلَمْ يَكُنْ «أَبُلُّونُ» قَدْ عَهِدَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ، وإِنَّمَا نَشَأَ فِي هذه الْحَرْبِ طِفْلًا، ثُمَّ شَبَّ فَإِذَا الْحَرْبُ ما زَالَتْ قَائِمَةً، وإِذَا هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ

بِنَصِيبِهِ مِنْهَا . وَقَدْ قُلْنَا إِنَّ هَذِهِ الْحَرْبَ عَبِثَتْ بِالنُّظُمِ الْمُخْتَلِفَةِ عَبَثاً شَدِيداً . وَيَكْفِي أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ أَثِينَا وَهِيَ خَاضِعَةٌ لِلنِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ الْمُتَطَرِّفِ ، فَمَا زَالَتْ بِهَا حَتَّى عَدَلَتْ عَنْ نِظَامِهَا الدِّيمُقْرَاطِيِّ إِلَى نِظَامٍ أَرِسْتُقْرَاطِيٍّ ، ثُمَّ إِلَى نِظَامٍ دِيمُقْرَاطِيٍّ مُعْتَدِلٍ ، ثُمَّ إِلَى نِظَامٍ أَرِسْتُقْرَاطِيٍّ يُشْبِهُ الطُّغْيَانَ أَوْ هُوَ الطُّغْيَانُ ، ثُمَّ انْتَهَتْ بِسُقُوطِ أَثِينَا وَنُزُولِهَا عَنْ كُلِّ مَا كَانَ لَهَا مِنْ سُلْطَانٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، ثُمَّ انْتَهَتْ بِهَا إِلَى نِظَامِهَا الدِّيمُقْرَاطِيِّ الْقَدِيمِ . وَكُلُّ هَذِهِ الِاضْطِرَابَاتِ وَالثَّوْرَاتِ ، لَمْ تَقَعْ دُونَ سَفْكٍ لِلدِّمَاءِ وَعَبَثٍ بِالْأَرْوَاحِ وَالْأَمْوَالِ ، دَاخِلَ الْمَدِينَةِ ، مَعَ مَا كَانَتْ تَسْفِكُ الْحَرْبُ مِنْ دِمَاءٍ ، وَتُزْهِقُ مِنْ أَرْوَاحٍ ، وَتُبَدِّدُ مِنْ أَمْوَالٍ ، خَارِجَ الْمَدِينَةِ . أَضِفْ إِلَى هَذَا كُلِّهِ شَيْئاً

آخرَ خاصًّا بأفلاطونَ، وهو أنّه كانَ أرستقراطيَّ المولِدِ: كانَ ينتهي مِنْ جهةِ أُمِّه إلى «سُولُونَ» (Solon) وكانَتْ أُسْرةُ أبيهِ تزعُمُ أنَّها تنتهي إلى «كُدْرُوسَ» (Codros) آخرِ مُلوكِ أثينا. فليسَ غريباً أنْ يكونَ أفلاطونُ بحُكمِ مولِدِهِ الأرستقراطيِّ ونشأتِهِ الأرستقراطيَّةِ، وبحُكمِ هذه الاضطراباتِ المختلفةِ، شديدَ الميلِ إلى النِّظامِ الأرستقراطيِّ، شديدَ النفورِ مِنَ النِّظامِ الديمقراطيِّ. ولكنَّ النِّظامَ الأرستقراطيَّ الَّذي كانَ يميلُ إليهِ أفلاطونُ قدِ اقترفَ في أثينا ضروباً مِنَ الآثامِ لا سبيلَ إلى إنكارِها، فانصرفَ عنْهُ أفلاطونُ كما كانَ منصرفاً عنِ النِّظامِ الديمقراطيِّ، ولبثَ في شيءٍ مِنَ الحيْرةِ غيرِ قليلٍ يلتمِسُ النِّظامَ الَّذي يلائمُ الحياةَ الإنسانيَّةَ حقًّا، ويبرأُ مِنَ الآثامِ

حَقًّا . ولَمَّا بَلَغَ أَفلاطونُ الْعِشْرِينَ اتَّصَلَ بِسُقْرَاطَ ، فَلَزِمَهُ ثَمانيةَ أَعْوامٍ أَوْ تِسْعَةً . وَلَمْ يَكُنْ سُقْرَاطُ أَقلَّ مِنْهُ بُغْضاً لِلدِّيمُقْرَاطِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ سُقْرَاطُ أَقَلَّ مِنْهُ انْصِرَافاً عَنِ الْأَرِسْتُقْرَاطِيَّةِ . وَهُنا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُلاحِظَ مُسْرِعِينَ أَنَّ الْفَلْسَفَةَ الْيُونَانِيَّةَ كانَتْ أَبداً فى حَرْبٍ مُتَّصِلَةٍ مَعَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ ، كَمَا أَنَّها كانَتْ شَدِيدَةَ الْكُرْهِ لِلنِّظَامِ الْأَرِسْتُقْرَاطِيِّ الَّذِى كَانَ مَعْرُوفاً حِينَئِذٍ . وكانَ سُخْطُها عَلَى هٰذَيْنِ النِّظامَيْنِ يَحْمِلُها عَلَى أَنْ تَبْحَثَ عَنْ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ يَبْرَأُ مِنْ رَذَائِلِهِما وَآثامِهِما ، فَاتَّفَقَتْ مُيُولُ أَفلاطونَ وَمُيُولُ سُقْرَاطَ السِّيَاسِيَّةُ ؛ ثُمَّ لَمْ تَتَّفِقْ مُيولُهما السِّياسِيَّةُ وَحْدَها ، بَلْ اتَّفَقَا فى أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ أُخْرَى : اِتَّفَقَا فى كُرْهِ هذا الِاضْطِرابِ الْعامِّ الَّذِى تَنَاوَلَ كُلَّ شيءٍ وأَفْسَدَ كُلَّ شَيْءٍ ، واتَّفَقَا فى كُرْه

السُّوفِسْطائِيَّةِ الَّذِينَ لمْ يَكونوا يُهَيِّئُونَ لِحياةٍ جَديدةٍ بَرِيئَةٍ مِنَ الِاضْطِرابِ ، وإِنَّما كانُوا يُذِيعونَ الشَّكَّ ويُؤَيِّدُونَ الْمَنْفَعَةَ الْخَاصَّةَ ، ومَنْ ذَكَرَ الشَّكَّ والْمَنْفعةَ الْخاصَّةَ فَقد ذَكَرَ الِاضْطِرابَ . واتَّفقَا فى الْحُكمِ عَلَى الْمَذاهِبِ الفَلْسَفِيَّةِ القَدِيمةِ بِالضَّعْفِ أَوِ الفَسَادِ أَوِ الْعَجْزِ عَنِ السَّيْطَرَةِ عَلَى العُقُول والْإِشْرَافِ عَلَى الْحياةِ الْفِكْرِيَّةِ العَامَّةِ ، واتَّفقَا أَيْضاً فى الْحُكْمِ عَلَى الشِّعْرِ القَدِيمِ وأَثَرِهِ السَّيِّءِ فى نُفُوس الْجُمْهورِ ، ثُمَّ اتَّفقَا فى الْحُكْمِ عَلَى أَنَّ الدِّيانةَ الْمَوْرُوثةَ لا تَخْلُو مِنْ سُخْفٍ وسَذاجَةٍ يُخالِفَانِ كُلَّ الْمُخَالَفةِ ما وصَلَ إِليهِ الْعقلُ الْيونانِيُّ مِنَ الرُّقِيِّ . وَمِنْ هُنا اشْتَدَّتِ الصِّلةُ بَيْنَ الفيلسوفِ الشَّيخِ وتِلْميذهِ الشَّابِّ ، حَتَّى إِذا انْتَهى القَرْنُ الْخامِسُ وكانَتْ قَضِيَّةُ سُقْراطَ ثُمَّ القَضَاءُ عَليهِ ،

ثُمَّ مَوْتُهُ ، اشْتَدَّ سُخْطُ أَفْلَاطُونَ عَلَى أَثِينَا وَعَلَى النِّظَامِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ فِيهَا ، واشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنْ أَثِينَا وَنِظَامِهَا الدِّيمُقْرَاطِيِّ ، فَهَاجَرَ فِيمَنْ هَاجَرَ مِنْ تَلَامِيذِ سُقْرَاطَ وَلَجَأَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى مَدِينَةِ « مِجار » (Mégare) الْقَرِيبَةِ مِنْ أَثِينَا ، وَعَاشَ فِيهَا حِيناً مَعَ صَدِيقٍ لَهُ كَانَ تِلْمِيذاً لِسُقْرَاطَ ، ثُمَّ أَسَّسَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ إِحْدَى الْمَدَارِسِ السُّقْرَاطِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ ، وَهُوَ اقْلِيدِسُ (Euclide) الَّذِي قَدْ نَعْرِضُ لَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ . ثُمَّ تَرَكَ أَفْلَاطُونُ مَدِينَةَ « مِجار » وَابْتَدَأَ سِيَاحَةً طَوِيلَةً زَارَ فِيهَا آسِيَا الصُّغْرَى وَمِصْرَ وَبَرْقَةَ . وَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ أَلْفِتَكَ إِلَى تَأْثِيرِ هَذِهِ السِّيَاحَةِ فِي نَفْسِ أَفلَاطُونَ وَلَكِنِّي مُضْطَرٌّ إِلَى أَنْ أَذْكُرَ أَنَّ زِيَارَتَهُ لِمِصْرَ تَرَكَتْ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ آثاراً قَوِيَّةً ؛ فقد شاهدَ

فى هذه البلادِ آثارَ تلك الحضارةِ الضَّخْمةِ الَّتِى كان يَتحدَّثُ بها اليونانُ فى إعْجَابٍ لا حَدَّ له . وليس مِنْ شَكٍّ فِى أَنَّ أَفلاَطونَ حاوَلَ أَنْ يَفْهَمَ هـــذه الْحَضَارةَ بَعْضَ الشَّىْءِ ، ولـكنْ لَيس مِنْ شَكٍّ أَيْضاً فى أَنَّهُ لمْ يفْهَمْ مِنها إلاَّ شَيئاً قلِيلاً ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ اللُّغةَ المِصرِيَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ إلى المِصْرِيِّينَ مُباشَرَةً ، وإنَّما عُرَف ما عرَف مِنْ أمْرِ مِصرَ بوَسَاطَةِ اليونانِ الَّذِينَ لَقِيَهُم فيها ، شَأْنُ الْمُؤَرِّخِ اليُونانِيِّ (هِيرُودُوتَ) . وَمِنْ هُنَا نَستَطِيعُ أَنْ نَقُولَ : إنَّ الْحَضَارَةَ المِصْرِيَّةَ لَمْ تُؤَثِّرْ فِى فَلْسَفَةِ أَفلاَطُونَ تَأْثِيراً مُباشِراً . ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ سِياحَةُ أَفْلاطونَ عِنْدَ زِيَارةِ آسيا الصُّغرى وَمِصْرَ وَبَرْقَةَ ، بَلْ زَارَ إيطاليا الْيونانِيَّةَ وَزارَ صِقلِّيَــةَ ، وكانَ له فيها شأْنٌ سَنُلِمُّ بهِ بَعْدَ قليلٍ .

أَشَرْنَا فِى أَوَّلِ هَذَا الفَصْلِ إِلى تِلْكَ الْحَرْبِ الَّتِى اضْطَرَبَتْ لَهَا الْحَيَاةُ الْعَالَمِيَّةُ فِى طُفُولَةِ أَفْلَاطُونَ وشَبَابِهِ. وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نُشِيرَ هُنَا إِلَى الْحَالِ السِّيَاسِيَّةِ فِى الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمَسِيحِ ؛ فَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْحَالِ فِى حَيَاةِ افلاطونَ وفَلْسَفَتِهِ تَأْثِيرٌ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْ تَأْثِيرِ الْحَالِ السِّيَاسِيَّةِ فِى الْقَرْنِ الْخَامِسِ . كَانَ هذا الْقَرْنُ الرَّابِعُ عَصْرَ انْحِطَاطٍ وانْحِلَالٍ فِى الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ كُلِّهَا ، سَوَاءٌ فِى ذَلِكَ الْبِلَادُ الْيُونَانِيَّةُ والْبِلَادُ الْفَارِسِيَّةُ ، فَبَيْنَمَا كَانَتِ الْخُصُومَةُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ الْأَحْزَابِ قَدِ انْتَهَتْ إِلَى أَقْصَاهَا فِى دَاخِلِ الْمُدُنِ الْيُونَانِيَّةِ كَانَتِ الْخُصُومَةُ السِّيَاسِيَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ قَدِ انْتَهَتْ إِلَى أَقْصَاهَا بَيْنَ الْمُدُنِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الْمُدُنُ مُنْشَقَّةً مُضْطَرِبَةً فِى حَيَاتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ: يُمَزِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، وَيَنْفِى الْحِزْبُ الْمُنْتَصِرُ أَفْرَادَ الْحِزْبِ

المُنْهَزِمِ أوْ يَقْتُلُهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَدومُ لَه ٱلِانْتِصَارُ إِلا حِيناً قَصِيراً ؛ فإِذَا انْتَصَرَ الحزْبُ المَغْلوبُ ثأَرَ لِنَفْسِهِ.

وكانَتِ ٱلحياةُ السِّياسِيَّةُ الدَّوْلِيَّةُ — إِنْ صَحَّ هذا التَّعْبيرُ — أَشَدَّ فَسَاداً مِنَ الحيَاةِ السِّياسِيَّةِ الدَّاخليةِ ، فكانَتِ ٱلسَّيْطرةُ مُتَنَقِّلَةً فى المُدُنِ ، وكانَتْ هذه المُدُنُ تتنازَعُ السُّلطانَ : فكانَتِ السِّيَادَةُ (لِإِسْبَرْطة) (Sparte) حِيناً (ولِطِيبَةَ) (Thèdes) حِيناً آخَرَ ؛ وكانَتْ أَثينا مُتردِّدةً بينَ هاتينِ المَدِينَتَيْنِ ، تَنتَهِزُ الفُرَصَ وتتربَّصُ الدوائرَ ، وكانَ الشُّعورُ بالكرامةِ اليونانيةِ والواجبِ الوطنيِّ قد فَسَدَ أَوِ ٱمَّحَى ؛ فلَمْ يكُنِ ٱليونانُ أَفْراداً وجَماعاتٍ يتردَّدون فى اقْترافِ الخيانةِ العُظمى ، ولمْ يكُنِ الفردُ يَأْبَى أَنْ يُضَحِّيَ بمَدِينَتِهِ فى سبيلِ مَنْفعتِهِ الخاصَّةِ ولمْ تكُنِ المدينة تَكْرَهُ أَنْ تُضَحِّيَ بالأُمَّةِ اليُونانيَّةِ كُلِّها

فى سَبيلِ مَنفعَتِها الخاصَّةِ . ومِنْ هُنا كانَ تَدخُّلُ الْأُمَّةِ الفارسِيَّةِ فى أُمورِ اليونانِ ، وانْتهى هذا التدخُّلُ إلى أَنْ أَصبحَ مَلِكُ الفُرْسِ مُسيْطِراً عَلَى الحياةِ اليُونانِيَّةِ الدَّاخِليَّةِ والخارجيَّةِ : يُشْهِرُ الحرْبَ بيْنَ المدُنِ ، حتى إِذا أَضْعفَها اضْطرَّها إِلى الصُّلحِ ، وفرَضَ عليها شرُوطَه وقواعِدَهُ . غَيْرَ أَنَّ الأُمَّةَ الفارسِيَّةَ نَفْسَها لَمْ تكُن أَحْسنَ حالاً مِنَ الأُمَّةِ اليُونانيَّةِ ؛ فَقَدْ كانَ الْفسادُ قد عَبثَ بها وتَغلْغَلَ فى طَبقَاتِها حتَّى عجزَتْ عَن الِاحْتِفاظِ بِمُلْكِها وسُلْطانِها ، ولَجأَتْ إِلى اليونانِ تستأْجِرُهم لِحمايةِ هذا الْمُلْكِ والسُّلْطانِ ولِإِخْضاعِ الْأَقالِيمِ الَّتى أَخَذتْ تَضْطَرِبُ وتثورُ وتَنْفَصِلُ عَنِ الْأَمْبرَاطوريَّةِ . وعَلَى هـذا النَّحْوِ زال التَّوازُنُ الذى كانَتْ تَقُومُ عَليهِ الحياةُ السياسيةُ فى العالَمِ القديمِ والذى كانَ يَعتَمِدُ عَلَى قُوَّةِ اليونانِ فى الغَرْبِ ، وقُوَّةِ

الفُرْسِ فى الشَّرْقِ . زالَ هذا التوازنُ فَضَعُفَ اليُونانُ وضَعُفَ الفُرْسُ ، وأَخذَ كلٌّ مِنَ الْفريقين يلجأُ إلى صاحبِهِ وَيُسَخِّرُ مِنْــهُ : أَخذَ الفُرْسُ يَلْجَأُونَ إلى اليُونانِ ، وأَخذ اليونانُ يَلْجَأُونَ إلى الفُرْسِ . أُولئكَ يَبْذُلونَ المالَ ، وهؤلاء يبذُلون الرِّجالَ وظهرَ فى ذلك الْوقتِ أَنَّ النُّظُمَ السياسيَّةَ الْقديمة كُلَّها قدْ فشِلتْ فَشَلاً تامًّا : فَفَشِلَ النِّظامُ الدِّيمُقْراطِىُّ والْأَرِسْتُقْراطِىُّ فى بلادِ اليونانِ ، وفَشِلَ نظامُ الْمَلَكِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ فى بلادِ الفُرْسِ وفى الشَّرْقِ كُلِّهِ ، وتردَّدتِ الْإِنْسانِيَّةُ بيْنَ اُثْنَتَيْنِ : إِمَّا الدَّمارِ والفناء ، وإِمَّا نِظامٍ سِياسىٍّ جَديدٍ يُخرِجُها مِنْ هذه الْفوْضَى . كَذلِك كانَتْ الحالُ فى بلادِ اليونانِ وفى الشَّرْقِ . ولَمْ تكُنِ الحالُ فى إِيطاليا وصِقِلِّيــةَ خيْراً مِنْها فى بلادِ اليونانِ الحقيقِيَّةِ وفى فارِسَ ؛

فقد كانَتِ المُدُنُ اليونانيَّةُ فى إيطاليا وصِقِلِّيةَ مُضْطَرِبةً فى داخِلِها مُخْتَصِمَةً فِيما بَيْنَها ، وكان عَبَثُ الأحزابِ بها شَديداً . ومعَ ذلك فَقَدْ خُيِّلَ إلى أَفلاطونَ أَنَّ هذه المُدنَ اليونانيَّةَ فى إيطاليا وصِقِلِّيَةَ قَدْ تكونُ خَيراً من المُدنِ اليونانيةِ الحَقِيقِيةِ فهاجرَ إليها ، واستفادَ مِنْ هذه المهاجَرةِ فائدتَيْنِ عظِيمَتَيْن ، كان لَهما أَثرٌ عظِيمٌ جدًّا فى حياتهِ الفَلْسَفِيَّةِ النَّظريَّةِ والعَمَلِيَّةِ . ذلك أَنَّهُ دَرَسَ فى هذه المدنِ مذاهبَ الفَلاَسفةِ القُدماءِ الذين نَشَأُوا فى إيطاليا ولا سيَّما مَذْهبُ « الفِيثاغُوريِّين » (Pythagoricien) الذى كان يَجْمَعُ بينَ الفَلْسَفةِ النَّظريَّةِ والعَمَلِيَّةِ ، وكانَ يزْعُمُ لِنفْسِه القُدْرَةَ عَلَى تدْبيرِ المُدُنِ تَدْبيراً يُلائِمُ المَنْفَعَةَ الحَقِيقيَّةَ ، وكان مُنْتَصِراً فى بَعْضِ المُدنِ ، مُتَسَلِّطاً عَلَى الحَياةِ السِّياسيَّةِ فيها . ثم زارَ فى

صِقِلِّيَةَ مدينةَ « سَرَاقُوسَ » (Syracuse) وكانَتْ حِينئذٍ عظيمةَ البأْسِ ، واسِعةَ السلْطانِ ، وكانَتْ خاضِعَةً لِنظامِ الطُّغْيانِ ، يُشْرِفُ عَلَيها طاغيةٌ قَوِيٌّ يُقَالُ له « دِنيس » (Denys) . وكانَ بالقُرْبِ مِنْ هذا الطَّاغِيَةِ رجُلٌ حكيمٌ فَيْلَسوفٌ يُقالُ لَهُ « دِيُون » (Dion) كان صَدِيقاً لِأَفْلاَطونَ يُشَارِكُه فى أَهْوائهِ السِّياسِيَّةِ ، نُخيِّلَ أَليه أَنَّهُمَا يَسْتطيعانِ أَنْ يُؤَثِّرا فى الطاغيةِ ، ويَحْمِلاَه عَلَى نَوْعٍ مِنَ الحُكْمِ يُلاَئِمُ المَثَلَ الأَعْلى الذى كانا يَطْمَحانِ إِليهِ . ولَكِنَّهُما لَمْ يَكادا يُقَدِّمانِ إِلى الطَّاغيةِ نَصَائِحَهُمَا ويُظْهِرَانهِ عَلَى آرائِهما ، حتَّى نفَرَ مِنْهُما وسَخِطَ عَلَيْهِما ، ويُقالُ إِنَّه باعَ أَفلاَطونَ كما يُبَاعُ الرَّقيقُ ،

عادَ أَفْلاَطونُ إِلى أَثينا ، وكانَتْ قد نَسِيَتْ سُقْراطَ

وأَعْرَضَتْ عَنْ تلاميذِه ، فاسْتطاعَ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِيها ، وأَنْ يُنْشِئَ فيها مدرسةً ، هى الأَكادِيمِيَّةُ (Académie) عَلَى أَنَّه لَمْ يُطِلِ المُقَامَ فى أثينا بَلْ عادَ إِلى صِقِلِّيَةَ ؛ ذلك لِأَنَّ الطاغِيةَ الَّذِى كانَ مُشْرِفاً عَلَى « سَرَاقُوسَ » قدْ مَات ، وآلَ الأَمْرُ إِلى ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، فخُيِّلَ إِلى الصَّدِيقَيْنِ الحكِيمَيْنِ أَنَّ هذا الطاغِيَةَ الشابَّ سيكونُ أَسْمَعَ لَهُما وأَطْوَعَ مِنْ أَبِيه ؛ ولٰكِنَّ الشابَ لَمْ يكُنْ أَقَلَّ مِنْ أَبِيه حِرْصاً عَلَى الطُّغيانِ ونُفُوراً مِنْ حِكْمَةِ الحكماءِ ، فغَضِبَ عَلَى الْفَيْلَسوفَيْنِ ، واضْطَرَّهُمَا إِلَى الهَرَبِ ؛ وعادَ أَفْلاطُونُ إِلى أثينَا ، ثُمَّ ارْتَحَلَ مَرَّةً ثالِثَةً إِلى صِقِلِّيَةَ ، وحاولَ فى هذه المَرَّةِ لا أَنْ يُؤَثِّرَ فى الطاغِيَةِ ، بَلْ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صدِيقه « دِيُونَ » ؛ عَلَى أَنَّهُ فَشِلَ فى هذا أيضاً ، ولَمْ يَنْجُ مِنْ سُخْطِ الطاغية

إلاَّ بمَشَقَّةٍ . عاد إلى أثينا وقد ذهبَتْ تلك الآمالُ التى كانَتْ تبْسِمُ له وتُضِيءُ حياتَه وتُخَيِّلُ إليهِ أَنَّه يَستطيعُ أَنْ يُقِرَّ المدَنيَّةَ الفاضِلَةَ عَلَى الْأَرضِ ؛ فاستَقرَّ فيها وانقطعَ إلى مدرستِه ، وأَخَذَ يُعلِّمُ حتى مات سنة ٣٤٧ .

عسيرٌ جِدًّا دَرْسُ فَلْسَفةِ سُقْرَاطَ ، لِأَنَّ سُقْرَاطَ لَمْ يكتُبْ شيئاً . وعسيرٌ جِدًّا دَرْسُ فَلْسَفةِ أَفْلاَطونَ لِأَنَّ أَفْلاَطونَ كَتَبَ كثيراً ، ولِأَنَّ فَهْمَ هذه الكُتُبِ التى تَرَكَها أَفلاَطونُ وبَقِيَتْ كُلُّها وهى تُنِيفُ عَلَى الثَّلاثينَ ليْسَ بِالْأَمْرِ اليسيرِ . لَيْسَ بِالْأَمْرِ اليسيرِ ، لِأَنَّ هُناكَ ضُرُوباً مِنَ التَّناقُضِ بَيْنَ هذه الكُتُبِ مِنْ جِهَة ، ولِأَنَّ آراءَ الفيلسوفِ فى بَعْضِ المَسَائلِ قدْ بَلَغَتْ مِنَ الغُموضِ والدِّقَّةِ حَدًّا عَظِيماً جدًّا ، ثُمَّ لِأَنَّ هذا التَّناقُضَ يُمكِنُ تفسيرُهُ وإزالَتُهُ ، لَوْ اسْتطَعْنا

أَنْ نتبَيَّنَ التَّارِيخَ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ هذه الـكُتُبُ ، بِحَيْثُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نقولَ إنَّ هذا الرَّأيَ قدْ جاء بَعْدَ هذا الرَّأيِ ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الفِيلُسوفَ قد تَطَوَّرَ وغَيَّرَ مِنْ آرائِهِ قليلاً أوْ كثيراً . وَلكِنْ مِنَ الْعسيرِ جِدًّا ، أَوْ قُلْ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ ، تَحْدِيدُ التَّوارِيخِ الَّتِي كُتِبَتْ فيها آثارُ أَفلاطونَ . ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَفلاطونَ قَدْ بَدَأَ الْـكِتَابةَ مُنذُ مات سُقْرَاطُ ، أَىْ فى أَوَّلِ القَرْنِ الرَّابِعِ وَظَلَّ يكتُبُ ويُعَلِّمُ إلى أَنْ مات ، أَىْ فى أَوَّلِ النِّصفِ الثَّانِي مِنْ هذا القَرْنِ . وليْسَ غَريباً أَنْ تتطوَّرَ آرَاءُ الْفِيلُسوفِ وَتتَغَيَّرَ فى خَمْسِين سَنَةً ، ولا سيَّما إذا لَمْ يكُنِ الْفِيلُسوفُ قد لَزِمَ حياةً هادئةً مُطْمَئِنَّةً . فلَيس إِذاً سبيلٌ إلى الشَّكِّ فى أَنْ فَلْسَفةَ أَفْلَاطونَ قدْ تَغَيَّرَتْ وخضَعتْ لِألوانٍ مِنَ التَّطَوُّر

يُمْكِنُ تحْدِيدُهَا لَوْ ظَفِرْنا بالتَّواريخِ التى كُتِبَتْ فيها الكُتُبُ الأفْلاَطونِيَّةُ. ومِنْ هُنا اجْتَهَدَ العُلَماءُ المُحْدَثُونَ فِى الْبَحْثِ عَنْ هذه التَّوَاريخِ وَسَلَكُوا إلى ذَلك سُبُلاً مُخْتَلِفَةً: فَمِنْهُمْ مَنْ حَاوَلَ تَرْتِيبَ الْكُتُبِ الأَفْلاَطونِيَّةِ تَرْتِيباً مَنْطِقِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ حَاوَلَ أَنْ يُؤَرِّخَ كُلَّ كِتَابٍ بِمَا يَجِدُ فيه، أَوْ بِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَجِدَ فيهِ، مِنَ الْأَسْمَاءِ والتَّعْرِيضِ بِالْحَوَادِثِ التَّارِيخِيَّةِ، ولكِنَّ كُتُباً كَثيرةً لِأَفلاَطُونَ تَخْلُو مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَمِنْ هذه الْأَسْمَاء. وَآخِرُ مَا اُهْتَدَى إِلَيْهِ الْبَاحِثُونَ فِى هذا النَّحْوِ، هُوَ الطَّرِيقَةُ اللُّغَوِيَّةُ، وهى الَّتِى تُمَكِّنُ مِنْ تَحْدِيدِ التَّارِيخِ الَّذِى ظَهرَ فيهِ الْكِتَابُ بواسطَةِ لُغَةِ الْكِتَابِ نَفْسِهِ؛ ذلِكَ أَنَّ لُغَةَ الكَاتِبِ تَتَطَوَّرُ كَمَا تَتَطَوَّرُ آرَاؤُه، فإِذا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُعَيِّنَ لُغَةَ أَفْلاَطونَ

فِي شَبَابِه ، ثُمَّ فِي كُهُولَتِه ، ثُمَّ فِي شَيْخُوخَتِه ، فَقَدِ اسْتَطعْنا أَنْ نُؤَرِّخَ كُتُبَه . ويَظْهَرُ أَنَّ هذهِ الطَّرِيقَةَ هي أَقْوَمُ الطُّرُقِ . ويَقولُ النُّقَّادُ وَالْمُؤرِّخونَ المُحْدَثونَ إِنَّها قد انْتهَتْ بِهم إلى نَتَائِجَ قَيِّمَةٍ ، ويُنْتَظَرُ أنْ تَنتهيَ بهم إلى تَحْديدِ هذه التَّواريخِ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ . ومَهْما يَكُنْ مِنْ شَيءٍ ، فلَمْ يعرِفِ الْعالَمُ القَديمُ قَبْلَ أفلاطونَ فَلْسَفَةً بلَغَتْ مِنَ السَّعةِ وَالعُمْقِ والتَّفْصِيلِ ما بَلَغَتْهُ فَلسَفةُ أفلاطونَ . فَقَدكانَ الْفلاسِفةُ الْقُدماءُ يُحَاولونَ فَهْمَ الْكَوْنِ وتَفْسِيرَه ، ويَجِدُّونَ في ذَلك حتى يُحْدِثوا مَذْهباً مِنَ المَذاهِبِ ، يَزْعُمونَ أنَّه يُفَسِّرُ الوُجودَ والمَوْجودَ ، ثم يَقْنَعُونَ بِهذا المَذهَبِ ، فيُعَلِّمونَهُ ويُؤَيِّدونَهُ ويَذُودونَ عَنْه . ثُمَّ جاء عَصْرُ الشكِّ الذي أنْكَرَ هذه المَذاهبَ جُمْلَةً . ثُمَّ جاء سُقْراطُ فَحَاوَلَ شَيْئاً آخرَ

غَيْرَ ما حَاوَلَه الْفلاسِفَةُ الْقُدمَاءُ ، وَهو جَعْلُ الْإِنسانِ نَفْسِه مَوْضُوعاً لِلْفَلْسَفةِ مَكَانَ الْكَوْنِ والْكائِنَاتِ ، أوْ مَكَانَ الوُجودِ والمَوْجودِ . ولَكِنَّ سُقْرَاطَ لَمْ يَتَجاوَزْ أوْ لَمْ يَكَدْ يَتَجاوَزُ هذه النَّظَرِيَّةَ الَّتي تَجْعَلُ الْإِنسانَ مَوْضُوعًا لِلْفَلْسَفَةِ ، وتَجْعَلُ مَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ نَفْسِه شَرْطًا ومَصْدَراً لِمَعْرِفَةِ الْكَوْنِ والْكَائِناتِ . ثُمَّ جاءَ تَلَامِيذُ سُقْرَاطَ وَكُلُّهُمْ احْتَفَظَ بِالنِّظَامِ الْفَلْسَفِيِّ الْقَدِيمِ ، فَأَسَّس مَذْهَباً بِعَيْنِه وَأَخَذَ يُعَلِّمُهُ ويُؤَيِّدُهُ وَيَذُودُ عَنْهُ . وكُلُّ مَا تَمْتَازُ بِه فَلْسَفَةُ هؤُلاءِ التَّلاميذِ مِنَ الْفَلْسَفَةِ الَّتي تَقَدَّمَتْ سُقْرَاطَ ، هو أَنَّهُمْ انْصَرَفُوا عَنِ الْكَوْنِ وَالْكَائِناتِ وَعَنِ الْوُجودِ والْمَوْجُوداتِ إِلى الْإِنْسان ، فاتَّخذوهُ مَوْضُوعًا لِفَلْسفَتِهِمْ ، وَأَخَذُوا يَلْتَمِسُونَ الْوَسِيلَةَ إِلى رُقِيِّهِ وَسَعَادَتِهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ

وَجَدَ ذَلك فِي اللَّذَّةِ ، وَمِنْهُم مَنْ وَجَـدَ ذَلك فِي الزُّهْدِ . أَمَّا أَفْلَاطونُ فإِنَّهُ خَالَفَ الْفَلَاسِفَـةَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا سُقْرَاطَ ، وَخَالَفَ سُقْرَاطَ نَفْسَهُ ، وَخَالَفَ تلاميذَ سُقْرَاطَ أَيْضًا ، وَاسْتَحْدَثَ فِي الْفَلْسَفَةِ بِدْعًا لَمْ يَـكُنْ مألوفاً مِنْ قَبْلُ : فَلَمْ يتَّخِذِ الْـكَوْنَ مَوْضُوعاً لِلفَلْسَفَةِ ، وَلَمْ يتَّخِذِ الْإِنْسَانَ مَوْضُوعًا لَهَا ، وإِنَّمَا اتَّخَذَ الْـكَوْنَ وَالْإِنْسَانَ جَمِيعاً موضوعاً لِمَباحِثِهِ الْفَلْسَفِيَّةِ . ثُمَّ لَمْ يَتَّخِذْهُمَا مَوْضُوعًا لِبَحْثٍ فَلسَفِيٍّ خَاصٍّ ، يُنْشِئُهُ هُو ، وَيقْصُرُ عَلَيْه عِنايَتَه وَحَيَاتَهُ ، وَيَطْبَعُهُ بِطَابَعِه الْخَاصِّ ، وَإِنَّمَا حَاولَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنْ هَذا كُلِّهِ ، وَوُفِّقَ إِلَيْهِ تَوْفِيقاً غَرِيباً : حاول شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَدْ حاولَهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ ، وَهُو دَرْسُ هَذهِ الْمَذاهِبِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْـكَثِيرَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، ومُوَازَنَتُهَا ،

واسْتِخْلاَصُ ما فيهَا جَمِيعاً مِنْ خَيْرٍ ، وإِقَامَةُ فَلْسَفَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ جِهَةٍ ، وَقَدِيمَةٍ مِنْ جهةٍ أُخْرَى : جَدِيدَةٍ ، لِأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوهَا . وَقَدِيمَةٍ ، لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ مِنْ لا شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا تَعْتَمِدُ عَلَى المذاهِبِ الْفَلْسَفِيَّةِ كُلِّهَا . وَفِى الْحَقِّ أَنَّكَ تَجِدُ فِي فَلْسَفَةِ أَفْلاَطونَ شَيْئاً مِنْ كُلِّ الْمَذَاهِبِ الْفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي سَبَقَتْه : تَجِدُ فيهَا شَيْئاً مِنْ مَذْهَبِ الِاسْتِحَالَةِ ، وتَجِدُ فِيهَا شَيْئاً مِنْ مَذْهَبِ الوَحْدَةِ ، وتَجِدُ فِيهَا فَلْسَفَةَ سُقْرَاطَ ، وتَجِدُ فِيهَا خُلاصَةَ آرَاءِ السُّقْرَاطِيَّةِ ، ثُمَّ تَجِدُ فِيهَا الْفَلْسَفَةَ « الْفِيثَاغُورِيَّةَ » ثُمَّ تَجِدُ فيهَا أَشْيَاءَ أُخْرَى ، مِنْهَا ما يَرْجِعُ إلى الدِّينِ ، وَمِنْهَا ما يَرْجِعُ إلى الأَدبِ ، ومِنْهَا ما يَرْجِعُ إلى شَخْصِيَّةِ أفْلاَطونَ نَفْسِه . وكُلُّ ذلك مُنْتَسِقٌ مُنْسَجِمٌ ، لا يَظْهَرُ فِيهِ الِاخْتِلافُ ولا

التَّبَايُنُ ، وَإِنَّمَا هو مَطْبوعٌ بِهذا الطَّابَعِ القَوِيِّ الَّذِى يُمَثِّلُ شَخْصِيَّةَ أَفْلاطونَ .

٣ — وَمِنْ أَىِّ نَاحِيَةٍ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرُسَ أَفْلاَطونَ ؟ بَلْ مِنْ أَىِّ نَاحِيَــةٍ نُحِبُّ أَنْ نَدْرُسَ أَفْلاطونَ ؟ فَنَحْنُ نَجِدُ فِي أَفْلاطونَ شَخْصِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةً ، كُلُّهَا خَلِيقٌ بِالدَّرْسِ ، مُحَبَّبٌ إِلى الْباحِثِ . نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرُسَ أَفْلاطونَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَاتِبٌ ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ تَارِيخَ الْأَدَبِ الْيُونَانِيِّ لَمْ يَعْرِفْ كَاتِبًا نَاثِرًا كَأَفْلاطونَ ، وَأَنَّ آثارَ أَفلاطونَ كُلَّها آياتٌ ، لا بِالْقِياسِ إِلى الْأَدَبِ الْيُونَانِيِّ وَحْدَه بَلْ بِالْقِياسِ إِلى الْأَدَبِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ، سَوَاءٌ مِنْهُ القَدِيمُ وَالْحَدِيثُ . ونحنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ ، مَهْمَا يَكُنْ حَظُّهُ مِنَ الرُّقِيِّ الْعَقْلِيِّ . وَمَهْمَا تكُنْ جِنْسِيَّتهُ وحَضارَته ، يَسْتَطِيعُ

إِذَا قَرَأَ أفلاطونَ أَنْ يَجِدَ فيهِ لَذَّةً لا تَعْدِلُها لَذَّةٌ ، وَلا يَشْعُرُ بِها الْإِنْسَانُ إِلاَّ حينَ يَقْرَأُ آياتِ الْبيانِ . ثُمَّ نَسْتَطِيعُ أَن نَدْرُسَ أَفلاطونَ مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى غَيْرِ ناحِيَةِ الْكِتابَةِ والنَّثْرِ ، هِي ناحِيَةُ الشِّعْرِ والْخَيالِ ، فَلَمْ يَنْظِمْ أَفلاطُونُ الشِّعْرَ عَلَى قَواعِدِ العَرُوض والقَافِيةِ ، ولٰكِنَّهُ كانَ شاعِراً فى نَثْرِهِ ؛ ولا يَعْرِفُ تَارِيخُ الْأَدَبِ الْقَدِيم شاعِراً كانَ لهُ مِنْ قُوَّةِ الْخَيالِ وَلُطْفِهِ وَسِحْرِهِ وسُلْطانِهِ عَلَى النُّفوسِ مِثْلَ أَفلاطونَ . ثُمَّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرُسَ أَفلاطونَ مِنْ ناحيةٍ ثَالِثةٍ ، هى ناحِيةُ الفِيلسوفِ الَّذِي يَبْحَثُ عَمَّا بَعْدَ الطَّبيعةِ ، فيَتَعَمَّقُ فى بَحْثِهِ تَعَمُّقاً لَمْ يُسْبَقْ إليهِ ، وأَخْشَى أَنْ أَقُولَ لَمْ يُلْحَقْ فِيهِ ، بَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَ ذلك ، بِشَرْطِ أَنْ أَسْتَثْنِيَ تِلميذَه « أَرِسْطاطاليسَ » . ثُمَّ هناكَ ناحيةٌ

رابعةٌ ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرُسَ مِنْهَا أَفلاطونَ ، وهى ناحِيةُ الْفيلُسُوفِ الْخُلُقِيِّ ، الذى يُؤَسِّسُ عِلْمَ الْأَخْلاقِ ، لاَ عَلَى مَبَادِىءِ سُقْرَاطَ وَحْدَهَا ، بَلْ عَلَيْهَا وَعلى مَبادِئَ أُخْرَى ، اُسْتَطَاعَ هُوَ أَنْ يَكْشِفَهَا أَثْنَاءَ بَحْثِهِ عَنِ الطَّبيعَةِ وعَمَّا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ . ثُمَّ هُنَاكَ ناحِيةٌ خَامسةٌ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرُسَ منْهَا أَفلاطونَ ، وهى ناحيةُ الفِيلُسوفِ السياسِيِّ ، الذى وَضَعَ عِلْمَ السياسةِ ، وحاولَ لا أَنْ يَتَفهَّمَ الحياةَ السياسيَّةَ فَحَسْبُ ، بَلْ أَنْ يَضَعَ نِظَاماً سياسيًّا ، يَعْتَقِدُ هو أَنَّهُ المَثَلُ الأَعْلَى للإِنْسَانيَّةِ الْمُنَظَّمةِ . ثُمَّ هُناكَ نَاحِيةٌ سادسةٌ ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرُسَ مِنها أفلاطونَ ، وهى ناحِيةُ الفِيلُسوفِ النَّفْسِيِّ ، الَّذِى هوَّنَ الْأَمْرَ عَلَى أَرِسْطَالِيسَ وغَيْرِ أُرِسْطَالِيسَ ، مِنَ الَّذِينَ عُنُوا بِالْمَنْطِقِ ، وَوَضَعَ عِلْماً جَدِيداً يَبْحَثُ

عَنِ الْمَعْرِفَةِ وشُرُوطِهَا ونُظُمِها وغَايَتِهَا ، فوضَعَ أَسَاسَ الْمَنْطِقِ ، وَأَساسَ عِلْمِ النَّفْسِ ، أوْ قُلْ : وَضَعَ أَسَاسَ الْفَلْسَفَةِ كُلِّهَا . نَسْتَطِيعُ أنْ نَدْرُسَ أفْلاطونَ مِنْ كُلِّ هذه النَّوَاحِى . ولٰكِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أنْ تَطْمَئِنَّ ، فَلَنْ أدْرُسَ أفْلَاطونَ فى هذا البَحْثِ مِنْ كلِّ هذهِ النَّوَاحِى ، فِمثْلُ هذا الدَّرسِ يَحْتَاجُ إلى كتابٍ ضَخْمٍ ، لَسْتُ أنا الَّذِى يَسْتَطِيعُ أنْ يَضَعَهُ . إنَّما أُرِيدُ أنْ أُوجِزَ لكَ أشَدَّ إيجَازٍ ، خُلاصَةً مِنَ الفَلْسفةِ الْأَفلاطونيَّةِ التى كان لَها الْأَثَرُ العظيمُ جِدًّا فى قِيَادةِ الفِكْرِ الإنْسَانِىِّ قدِيمًا وحَدِيثًا .

٤ — ولا بُدَّ قَبلَ كُلِّ شَىْءٍ مِنْ أنْ نُشِيرَ إلى المذْهَبِ الْأَفلاطونِىِّ فِى كِتَابَةِ الفَلسفةِ ودَرْسِها . وهذا المذهبُ فِى نَفْسِه ، هو مَذهبُ سُقْرَاطَ ، أىْ أنَّهُ

يَعْتَمِد قبلَ كلِّ شَيْءٍ عَلَى الْحِوار ، وإذاً فهو فِي نَفْسِه غَيْرُ جَدِيد . ولكنْ لاَ تَنْسَ أَنَّ سُقْرَاطَ كان يُحَاوِرُ مُحَاوَرَةً لِسَانِيَّةً ، أَىْ أَنَّهُ كانَ يُنَاقِشُ أصحَابَه وتلامِيذَهُ بالفِعْلِ . أَمَّا أفلاطونُ فلَمْ يكُنْ يُحَاوِرُ حِواراً لِسَانيًّا ، وَإِنَّما كان يكتُبُ . والفَرْقُ عظيمٌ بينَ رَجُلٍ يَلْقَاكَ فيُحاوِرُكَ ، وبينَ رَجُلٍ لاَ يَلْقَاكَ ولا يُحَاوِرُكَ بالفِعْلِ ، وَإِنَّما يَسْتَوْحِى قَلَمَهُ حِوَاراً بَدِيعاً . تَخَيَّلَ أَشْخَاصَهُ ، وَاخْتَرَعَ مَوضوعَهُ اُخْتِراعًا . كان سُقْرَاطُ مُتَحَدِّثًا ، أَمَّا أَفلاطونُ فمُؤَلِّفٌ مُنْشِئٌ . ومِنْ هُنَا كان مِنَ الْحَقِّ الِاعْترافُ لِأَفْلاَطونَ بِفَضِيلَةِ هذا الفَنِّ الفَلْسَفِيِّ الأَدبِيِّ ، الذى لَمْ يُسْبَقْ اليه ، ولَمْ يُلْحَقْ فيه ، وهو فَنُّ الحِوار . نَعَمْ ، إِنَّ أَفلاطونَ لَمْ يَخْتَرِعِ الْحِوارَ اُخْتِرَاعًا ، وَإِنَّما تأَثَّرَ فيهِ بمُؤَثِّرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، نَذْكُرُهما

لِنَلْفِتَكَ إلى الصِّلَةِ بَيْنَ الفَلسفَةِ وَالأدبِ :

الأَولُ — فَنُّ التَّمثيلِ الَّذِى بَلَغَ أَقْصى ما كانَ يُنْتَظَرُ له مِنَ الرُّقِيِّ فِي القَرْنِ الخامِسِ ، وَأَثَّرَ فِي حَيَاةِ الأَثينيِّين خاصَّةً واليُونَانِ عامَّةً ، تأثيراً لا حَدَّ لَهُ . هذا الفنُّ يَعتَمِدُ عَلَى الْحِوَارِ ، سَوَاءٌ فى ذلك قِصَصُهُ الْمحْزِنَةُ والمضْحِكَةُ . وهو بهـذا الأَسلوبِ ، أُسلوبِ الحِوارِ ، قَدِ اُسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَثِّرَ فِى الْجُمهورِ وَيَبْلُغَ مِنْ نَفْسِهِ ما كان يُرِيدُ ، فليْسَ عَجِيباً أَنْ يُفْتَنَ الناسُ بالِحوارِ وَيَتَّخِذُوه أُسْلوباً مِنْ أَسالِيبِهم الأَدَبيَّـةِ . ونَسْتطِيعُ أَنْ نَقُولَ : إِنَّ كُتُبَ أَفْلَاطونَ كُلَّها أَوْ أكْثرَها قِصَصٌ تَمْثِيلِيَّةٌ فلْسَفِيَّةٌ . فكُتُبُ أَفْلاطون كُلُّها أَوْ أَكْثَرُها عِبارةٌ عَنْ مَجْلِسٍ مِنَ الْمجَالِسِ ، يَجْتَمِعُ فيه النَّاسُ حَوْلَ سُقْرَاطَ فيَتَحَدَّثُونَ ، ويَنْتَهِى بِهِمُ الْحَدِيثُ

إلى مَوْضُوعٍ مِنَ المَوضوعاتِ ذاتِ الخَطَرِ فيتحاوَرُونَ، فيهِ. وَيُشْرِفُ سُقْرَاطُ عَلَى هذا الحِوَارِ، وما يَزَالُ بأصحابه وتلاميذِه، يَنْقُلُهم مِنْ موضوعٍ إلى موضوعٍ ومِنْ مَسْأَلةٍ إلى مَسْأَلَةٍ، ومِنْ صُعُوبَةٍ إِلَى صُعُوبةٍ، حتى ينتهِيَ بهم إلى النَّتِيجةِ الفَلسَفِيَّةِ التى كان يُرِيدُ إثباتَها. وكُل هذه الكتبِ أَو أَكْثَرُهَا لا تتخِذُ أَسْمَاءهَا مِنَ الموضوعاتِ التى تُدْرَسُ فِيها، وَإِنَّمَا تُسَمَّى بِأَسْمَاءِ الأَشْخَاصِ الذينَ لَهُم فِى الحِوَارِ مَنْزِلَةٌ خاصَّةٌ. فهناك «فِيدُونُ» (Phédon) و «بُرُوتَاجُوراسُ» (Protagoras) و «جُرجِياسُ» (Gorgias) و «أَلْسِبْيَادُ» (Alcibiade) وغَيرُها مِنَ الكُتُبِ التى تُسَمَّى بِأَسْماءِ الأَشْخَاصِ؛ وقليلةٌ جِدًّا تلك الكُتُبُ التى تُسَمَّى بِأَسْماءِ المَوْضُوعَاتِ كالجُمهُورِيَّةِ، والقوانينِ وغيرِهما.

المُؤَثِّرُ الثَّانى — الشِّعْرُ ، وأُرِيدُ الشِّعْرَ الغِنَائِىَّ ، الَّذِى تَعَمَّقَ فِى الْبَحْثِ عَنِ العَوَاطِفِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، حتى اهْتَدَى إِلى دقائِقِها ، وارْتَقى فِى تَشْخِيص هَذِهِ العَوَاطِفِ وتَمْثِيلِها ، حتى بَلغَ مِنَ الْعظَمَةِ حَدًّا رُبَّمَا لَمْ يَبْلُغْهُ الشِّعرُ الحَدِيثُ . وقَدْ يكونُ مِنَ الحقِّ أَلاَّ نَنْسَى الشِّعرَ الْقَصَصِىَّ ، الَّذِى اعْتَمَدَ عَلَيهِ أَفلاطونُ فى هذه الأَساطِيرِ الْمُنْبَثَّةِ فى كتُبِه ، والتى يَسْتَعِينُ بها عَلَى تفْسِيرِ النَّظَرِيَّاتِ الفَلسفِيَّةِ وتَقْرِيبِها . فأَنْتَ تَرَى أَنَّ أَفلاطونَ لَمْ يَخْتَرِعْ فَنَّه الأَدَبِىَّ اُخْتِراعًا ، وإِنَّما تأَثَّرَ فِيهِ بِأَلْوانِ الشِّعْرِ الثَّلاَثَةِ ؛ كمَا أَنَّه لمْ يَخْتَرِعْ فَلسفته اُختراعًا ، وإِنَّما تأَثَّرَ فِيها بالْمَذاهِبِ الفَلْسَفيَّةِ الْمُخْتلِفةِ الَّتى سبَقَتْهُ وعاصَرَتْهُ . ولَـكِنَّ تأَثُّرَهُ بالشِّعْرِ والفَلْسَفةِ لَمْ يَضْطَرَّهُ إِلى التَّقْليدِ ولَمْ يُضْعِفْ مِنْ شَخْصِيّتِه ،

وإِنّما قوّى هذه الشَّخْصيَّةَ تقْوِيةً عظيمةً . وأَيْنَ هو هذا النابِغةُ الذى يَخترِعُ شيئاً مِنْ لا شَيءٍ ، ويُحْدِثُ أَحْداثاً لا تتَّصلُ بِمَا قَبْلَها ، ولا تتأَثَّرُ بما حَوْلها ؟ وسنَرَى أَنَّ أَفلاطونَ نَفْسَه لَمْ يَسْتطِعْ أَنْ يتصوَّرَ إِلٰهاً يُوجِدُ شَيْئاً مِنْ لا شَيءٍ .

٥ — كانَتْ فَلْسَفةُ سُقْراطَ حَرْباً عَلَى السوفِسْطائيَّةِ ، وكذلك كانَتْ فَلْسفةُ أَفلاطونَ . فإِنَّ انْتصارَ سُقراطَ عَلَى السُّوفِسْطائيِّين ، لَمْ يُزِلْ سُلْطانَهم ، ولَمْ يَمْحُ آثارَهُم . بَلْ نَستطيعُ أَنْ نقولَ : إِنَّ كثيراً مِنَ السُّوفِسْطائيِّين اتَّخذوا الْفَلسفةَ السُّقراطيَّةَ وسيلةً إِلى تقْوِيةِ مَذْهَبِهم ، والْإِمْعانِ فيما كانوا فيهِ مِنْ شَكٍّ وتَشْكيكٍ . ولَعَلَّ هذا هو الذِى يُفَسِّرُ لَنا وُجودَ هذه المدارسِ السُّقراطيَّةِ المتناقِضَةِ فيما بَيْنَها ، والتى انْبَثَّتْ فى أَقطارِ الْأَرْضِ .

فلمْ يكُنْ إذاً بُدٌّ لِأفلاطونَ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ مَذْهب أُستاذِهِ فى مُحارَبةِ السُّوفِسْطائِيَّـةِ ، وإِقامةِ فَلْسفةٍ جَديدةٍ ، تَعْتَمِدُ عَلَى أنَّ الحقائقَ ثابتةٌ ، وعَلَى أنَّ الشكَّ ضَرْبٌ مِنَ الضَّعفِ لا خَيْرَ فيهِ ولا غَناءَ . وقد سَلَكَ أفلاطونُ إِلى تأسيسِ هذهِ الفَلْسفةِ سَبيلًا واضِحةً قَيِّمةً ، ولكنَّ سُلوكَها ليسَ باليسيرِ عَلَى غَيْرِ الفيلسُوفِ .

كانَ سُقْراطُ يقول : « اِعْرِفْ نفسَك بِنَفْسِكَ » ، وكان يَرَى أنَّ أولَ الْعِلْمِ هو أنْ يَعْلَمَ الْإِنسانُ جَهْلَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ . ثُمَّ كانَ سُقْراطُ يَرَى أنَّ الْإِنسانَ متى عَلِمَ جَهْلَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ وحاوَلَ أنْ يعْرِفَ نَفْسَه بِنَفْسِهِ ، كَشَفَ فى هذه النَّفْسِ كَنْزاً لا سَبيلَ إِلى أنْ يُقَدَّرَ ؛ وذلك أنَّ النَّفْسَ عِندَ سُقْراطَ مُلِئَتْ بالحقائقِ ، وأنَّ بَحْثَ الفِيلسوفِ عَنْ هذهِ الْحَقائقِ ، ليس فى حقيقةِ

الأَمْرِ اُخْتِراعاً لهـذه الحقائق ، وإنَّما هُو كَشْفٌ لَها فى أَعْماقِ النفس . وقَد أَخَذَ أفلاطونُ كُلَّ هذه النَّظَرِيَّاتِ السُّقْراطِيَّةِ ، فنظَّمَها وفَصَّلَها ، واُسْتَخْرجَ مِنها كُلَّ ما كانَتْ تَشْتَمِل عليه ، وجعَلَها أساساً لفلْسَفتِهِ . وفى الْحقِّ أنَّ فَلسفةَ أفلاطونَ كُلَّها تقومُ عَلَى نَظرِيَّةِ العِلْمِ والْمَعْلُومِ . فالنَّفْسُ عِنْدَ أفلاطونَ مُلِئَتْ بالحقائق ، كما كانَتْ عِنْـدَ سُقراطَ ؛ ولٰـكنَّ تفسيرَ أفلاطونَ يُخالِفُ تفْسيرَ سُقراطَ مُخالَفةً شديدةً .

كانَ سُقراطُ يَفهَمُ أنَّ الحقائقَ موجودةٌ فى النَّفْسِ بالقُوَّةِ ، وَأنَّ البَحْثَ يَجْعَلُ هذا الوجودَ فِعْليًّا . أمَّا أفلاطونُ فيَرَى أنَّ الحقائقَ موجودةٌ فى النَّفْسِ بالفِعْلِ ، وأنَّ الْبحْثَ عَنِ الْحقائقِ لا يُؤَدِّى إلى انْـتِزَاعِها فهى خالِدَةٌ ، ولا يُؤَدِّى إلى كَشْفِهَـا فهى مَعلومةٌ ؛ وإنَّما

يُؤدِّى إلى تذكُّرِها . فالنَّفسُ قد نَسِيَتِ الحقائقَ عِنْدَ مَا هَبَطتْ مِنَ المَلإِ الأَعلى إلى هذا العالَمِ السُّفْلِيِّ ، وكلَّما أمعنتِ النَّفْسُ فى هذهِ الحياةِ العَمليَّةِ وما تَستَتْبعهُ مِنَ الخُضوعِ لِحاجاتِ الجِسْمِ ، اشْتَدَّ نِسْيانُها للحقائقِ ، وتَراكَمَ عَليها الصَّدَأُ . وعَمَلُ البَحْثِ الفَلْسَفِىِّ ، هو أَنْ يُزِيلَ هذا الصَّدأَ ، وأَنْ يُذكِّرَها بما كانَتْ تَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ . وإذاً ، فالحقائقُ كلُّها خالدةٌ ثابتةٌ ، لا تَحْدُثُ ولا تَتَغيَّرُ ، كما أَنَّ العِلْمَ بها خالدٌ ثابتٌ ، لا يَحدُثُ ولا يَتَغيَّرُ . ومَعْنَى هذا ، أنَّ النفسَ الإنسانيَّةَ خالِدةٌ أيضاً ، لا تَحْدُثُ ولا تتغَيَّرُ ، وأنَّها قد مَرَّ عليها طَوْرٌ مِنَ الوُجودِ ، كانَتْ فيهِ بَعِيدةً عَنْ هذا العالَمِ السُّفْلِيِّ وأَعْراضِهِ وأَدْرانِهِ . كانَتْ تَحيا فيـهِ ناعِمةً راضيةً ، مُجاوِرَةً لِلآلهةِ ولِلحقائقِ الخالدةِ ، مُسْتَمْتِعَةً بالعِلْمِ الَّذِى

يُظْهِرُها عَلَى كُلِّ شَيءٍ ، ويُمَثِّلُ فيها كُلَّ شيءٍ . ثُمَّ هبَطَتْ مِنْ ذلك العالِمَ العُلْوِىِّ إلى هذا العالِمَ السُّفْلِىِّ ، فنَسِيَتْ شيئاً فَشيئاً مَا كانَتْ تَعْلَمُ .

هذَا الْمَذهَبُ وَحدَه غامضٌ ، إذا لَمْ يُوَضِّحْهُ رأْىُ أَفْلاَطونَ فى الْكَوْنِ والكائناتِ ، أَو فى الوُجودِ والْمَوْجودِ . وإِذا أَرَدْنا أَنْ نفْهَمَ هذا الرأْىَ ، وجَبَ أَنْ نُلاَحِظَ أَنَّهُ خُلاصةُ مَذْهبَيْنِ فَلْسفِيَّيْنِ مُخْتلِفَيْنِ : أَحدُهُمَا مَذْهَبُ الِاسْتِحالةِ الَّذِى كان يَذْهَبُ إِليهِ « هِيرَقْلِيتُ » (Héraclite) والَّذِى كانَ يَرَى أَنَّ الْأَشْياءَ كُلَّها فى اُسْتِحالةٍ مُتَّصِلةٍ وتَغَيُّرٍ لاَ ثَباتَ له ولاَ اُسْتِقْرارَ . والثانى مَذْهبُ الوَحْدَةِ الَّذِى كان يَذْهَبُ إِليهِ « بَرْمِنِيدُ » (Parménide) والَّذِى كان يَرَى أَنَّ الكونَ كلَّه مُنْتَهٍ إلى شَخصيَّةٍ واحِدةٍ ثابتَةٍ ، عَنها

يَصْدُرُ كلُّ شَىءٍ، وإليها يَنتهِى كلُّ شَىءٍ ؛ أَوْ هِى كلُّ شىءٍ ، وليْسَتْ هذه الكائناتُ والأَحْداثُ إلاَّ مظاهِرَ لها . مِنْ هذيْنِ المذْهَبيْنِ اُستَطاعَ أَفلاطونُ أَنْ يُكوِّنَ مَذهباً جَديداً ، بَعْدَ أَنْ غيَّرَ فيهما وبَدَّلَ ، وأَضافَ إليهِما مَذاهبَ فلسفِيَّةً أُخْرى . واُنْتهى إلى أَنَّ هُناكَ دَرَجاتٍ ثلاثاً فى الوُجودِ ، تُقابلُها درجاتٌ ثلاثٌ فى العالِمَ : الدَّرَجَةُ الأُولى ، دَرَجَةُ هذه الموجوداتِ المحسوسةِ ، التى نُلامِسُها ونتأَثَّرُ بها ونُؤَثِّرُ فيها ؛ وهذه الموجوداتُ مُتغيِّرةٌ أَبداً ، مستحيلةٌ أَبداً ، بل هى تَغيُّرٌ واُستِحالةٌ ، لا ثَباتَ لها ولا اُستِقرارَ . الدَّرَجَةُ الثَّانيةُ ، دَرجةُ مَوْجوداتٍ أُخْرَى ، هى الواسطةُ بَيْنَ المحسوساتِ وَبيْنَ الدَّرجةِ الثالثةِ ، الَّتى سنَراها بَعْدَ حِينٍ ؛ وهذه الدرجةُ الثانيةُ ، تُمثِّلُ الصُّوَرَ الذِّهْنيَّةَ ،

والحقائقَ العَقْلِيَّةَ ، التى تَتمثَّلُ بها الكائناتُ ، والتى نَتَّخِذُها وسيلةً للحُكْمِ عَلَى المحسوساتِ وتَسْخيرِها مِنْ جهةٍ ، وللرُّقِىِّ إلى الدَّرجةِ الثالثةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى .
وهذه الدَّرجةُ الثالثةُ ، هى درجةُ الحقائقِ الثابتةِ الخالدةِ ، التى لا ينالُها التَّغييرُ ، ولا تَعْرِضُ لها الاِستِحالةُ ، والتى تُؤَثِّرُ ولا تَتأَثَّرُ ، والتى يُسَمِّيها أَفلاطونُ بالأَفكارِ أَو بالمُثُلِ . هذه الحقائقُ خالدةٌ ، وُجِدَتْ قَبْلَ كلِّ شَىءٍ ، وستُوجَدُ بَعْدَ كلِّ شَىءٍ ، ولَيْسَ لِشىءٍ مِنَ المحْسوساتِ وُجودٌ إلاَّ بِها ؛ صَدَرَتْ عَنِ الإِله صُدُوراً ذاتيًّا ، صدورَ المَعْلُولِ عَنِ العِلَّةِ ثُمَّ اتَّخَذَها الإِله نُموذجاً صَاغَ عليهِ عالَمَ المحسوساتِ ،

وأَنا أَعْتَذِرُ إليكَ مِنْ هذا الغُمُوضِ ، فَقَدْ أَبْذُلُ ما أستطيعُ مِنْ جُهدٍ للتَّوْضيحِ دُونَ أَنْ أَبْلُغَ أَكثرَ

مِمَّا وصَلْتُ إليهِ ، إلاَّ أَنْ أَتجَاوَزَ ما شَرَطْتُ مِنَ الإِيجاز والِاُخْتِصَارِ . وخُلاصةُ القَوْلِ : أَنَّ أفلاطُونَ يَرَى فى هذا العالَمَ المحسُوسِ طائفةً مِنَ الظَّواهِرِ التى لا وُجُودَ لَها بِنَفْسِها ، وإِنَّما هى صادِرةٌ عَنْ عالَمٍ آخَرَ هو عالَمُ الحقائق الخالِدَةِ . ومِنْ هُنا كانَتْ درجاتُ العِلْمِ ثلاثًا ، فكَانَ هُناكَ العِلْمُ بِهذِهِ المحسوساتِ أوْ بهذِهِ الظَّواهِرِ ، وهذا العِلْمُ هو أحْقَرُ أنْوَاعِ العِلْمِ ؛ لِأَنَّه ظَنٌّ يتغَيَّرُ ويَتَبَدَّلُ بتغَيُّرِ مَوْضُوعاتهِ وتَبدُّلِها . وكانَ هُناكَ عِلْمٌ آخَرُ أرْقَى مِنْ هَذا الْعِلْمِ الْأَوَّلِ ، وهو العِلْمُ بالْأَشْياءِ العامَّةِ ، التى تَنْتَزِعُها النفْسُ مِنْ هذه الشَّخْصِيَّاتِ المتغيِّرَةِ المُتَبَدِّلةِ ، هُو العِلْمُ بالأجْناسِ والأَنْوَاعِ ، هو العِلْمُ بالكُلِّيَّاتِ والقَضَايا العامَّةِ الَّتِي ليْسَتْ هِىَ شَخْصِيَّاتٍ مُتغـيِّرةً أوْ متبدِّلةً . وهذا

العِلْمُ تكتسِبُهُ النَّفْسُ اكتِسابًا بِملاحَظَةِ المحسُوساتِ وَمُقارَنَتِهَا والتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا : فهِىَ تَنْتَزِعُ النَّوْعَ الإنسانِىَّ مِنْ أَفْرادِ الإنْسَانِ ، كما تَنْتَزِعُ جِنْسَ الْحَيَوَانِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَهلُمَّ جرًّا . . . ثُمَّ كَانَ هُنَالِكَ عِلْمٌ آخَرُ ، هو الْعِلْمُ حقًّا ، وهو الفَلْسَفةُ حقًّا ، وهو اليقِينُ حَقًّا . هذا العِلْمُ هو العِلْمُ بِتِلكَ الحقَائقِ الثَّابتِةِ الَّتِي قُلْنا إِنَّها خَالِدَةٌ لا تَتغَيَّرُ ولا تَتبدَّلُ .

وَلسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَتعمَّقَ فى تفْصِيل الصِّلَةِ التى تُوجَدُ بَيْنَ هذه الدَّرجاتِ الثَّلاثِ مِنَ الكائناتِ ، وَبَيْنَ هذهِ الدَّرجاتِ الثَّلاثِ مِنَ الْعِلْمِ ؛ فذلك كلُّه يَخْرُجُ بِنا عمَّا نُرِيدُ مِنَ الإيجازِ . إنَّما أُلاحِظُ أَنَّ العِلْمَ بهذه الحقائقِ الثابتِةِ هو الغايةُ التى يَسْعى إِليها الفِيلُسوفُ حقًّا ، وأَنَّه لا يَصِلُ إِليها إلا بعْدَ مَشقَّةٍ وجَهْدٍ عَنيفٍ ، ولكنَّه

إذا وَصَلَ إليها فقد وَصَلَ إلى الخيرِ كلِّه ، واستطاعَ أنْ يمتزِجَ بمصْدرِ الكونِ أوْ بالإله . وما الإلهُ عِنْدَ أفلاطونَ ؟ وكَيْفَ أوْجَدَ هذا العالَمَ وأثَّرَ فيه ؟ الإلهُ عِنْدَ أفلاطونَ فِكْرَةٌ هى مَصْدَرُ كلِّ شىءٍ ومَرْجِعُ كلِّ شىءٍ . وهى فِكْرَةُ الْخيرِ ، وُجِدَتْ بنَفْسِها قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الزَّمانُ ، وهى مَوْجودةٌ معَ الزَّمانِ ، وستوجَدُ بَعْدَه ، لا عَلاقةَ لها به ، ولا تأثيرَ له فيها ، وعَنْها صدَرتْ كلُّ الحقائقِ الخالدةِ . ولكنَّ هذه الحقائقَ الخالدةَ ليْسَتْ محسوسةً ، ولا سَبيلَ إلى أَنْ تُحَسَّ . ومهما يَبْلُغْ أَفلاطونُ مِنْ إثباتِها فلَنْ يَصِلَ إلى تفسيرِ هذا العالَمِ الْمَحْسُوسِ . فكيفَ وُجِدَ هذا العالَمُ ؟ يَرَى أَفلاطونُ أَنَّ الإله وحدَهُ لا يَستطِيعُ إيجادَ هذا العالَمِ ، بل إنَّ هذه الحقائقَ لا تَسْتَطيعُ إيجادَ هذا

العالَمِ . وإذاً فلا بُدَّ مِنْ عُنْصُرٍ ثالثٍ لِيُوجَدَ هذا العالَمُ ، وهذا العُنْصرُ الثالِثُ هو المادَّةُ التى وُجِدَتْ وَحْدَها والَّتى اتَّخَذَها الإِلٰهُ سَبِيلاً إِلى إيجادِ هـذا العالَمِ المحسوسِ .

نَظَرَ إِلى الحقَائِقِ الخالدةِ التى صدَرتْ عَنْه ، فاتخَذَها مُثُلاً ونَماذِجَ ، صاغَ عليها هـذا العالَمَ المحسوسَ . ثُمَّ لِأَجلِ أَنْ تَنْبَعِثَ الحياةُ فى هذا العالَمِ المحسوسِ أَوْجَدَ الإِلٰهُ صِـلَةً بينَهُ وبَيْنَ هـذه المُثُلِ ، فلَيْسَ الإِنسانُ الموجودُ فى الخارجِ إِلَّا مَظْهَراً لِلحقيقةِ الثَّابتةِ الخالدةِ التى هِيَ الإِنسانيَّـةُ ، وكذلكَ قُلْ فِي جميعِ المَـوجوداتِ الأُخْرَى .

وليس يَعْنِينا أَن نُفَصِّلَ هذه الصِّلاتِ بَيْنَ الحقَائِقِ الثابتَةِ والعالَمِ المحسوسِ ، ولا أَنْ نَصِفَ هذه الطُرُقَ

المُلْتَوِيَةَ التى اتَّخَذَها أفلاَطونُ لِيُبَيِّنَ كَيْفَ اُسْتَطَاعَ الإلهُ إيجادَ العالَمِ وتَدْبيرَه. كُلُّ ذلِكَ لا يَعْنِينا الآنَ؛ وإِنَّما الذى يَعْنِينَا هو أَنْ نُلاحِظَ أنَّ هذه الفَلْسَفَةَ كانَ لها الأَثَرُ العظيمُ جِدًّا فى حياةِ العَقْلِ الإنْسانِيِّ قديماً وحدِيثاً . فأثَرُ المدرسةِ الأفلاطونيَّةِ القديمةِ ، وأثَرُ المدرسةِ الأَفلاطونيَّةِ الحديثةِ فى العالَمِ اليونانيِّ والرُّومانيِّ أشهرُ مِنْ أنْ نَحْتاجَ الى ذِكْرِهِ ثُمَّ أَثَرُ المدرسةِ الأَفلاطونيَّةِ التِى أُنْشِئَتْ فى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ظاهرٌ بيِّنٌ. وحَسْبُكَ أَنَّ الديانةَ المَسِيحيَّةَ لَمْ تَخْلُصْ منه. وحَسْبُكَ أَنَّهُ عَمِلَ فى تكوينِ العَقْلِ الشَّرقِيِّ عَمَلًا بعيدَ الأَثَرِ ، لَمْ يتناوَلْ الطَّبقَاتِ الراقيةَ وحدَها ، بلْ جاوزَها إِلى غيرِها من الطبقاتِ الدُّنْيا فى العصورِ المختلفةِ. أَمَّا أثرُ هذه الفَلْسَفَةِ فى الحياةِ الأُورُبِيَّةِ أَثْناءَ القرونِ الوُسْطى

وفى هذا العَصْرِ الحديثِ فأَعْظَمُ وأَبعَدُ مِنْ أَنْ نُلِمَّ بهِ فى هذا الفَصْلِ . ولعلّكَ تعلمُ أَنَّ الفَلْسَفَةَ الأَفلاطونيَّةَ ما زالتْ حَيَّةً إلى الآنَ ، وما زالَ لها ممثِّلوها والمُدافِعونَ عَنْها بَيْنَ فلاسِفَةِ الغَرْبِ .

٦ — عَلَى أَنَّ جُزْءًا آخَرَ مِنْ فَلْسَفَةِ أَفلاطونَ يَسْتَحِقُّ عِنايةً خاصَّةً ، لِأَنَّهُ يَمْتازُ بشيءٍ مِنَ الخِصْبِ والْغَنَاءِ ، لَمْ تظْفَرْ به الأجزاءُ الأُخْرَى لِفَلْسفتهِ ؛ نُرِيدُ به هـذا الجُزْءَ الخُلُقِيَّ السياسِيَّ ، فشخصيَّةُ أَفلاطونَ فيه بارزةٌ قويَّةٌ خالدةٌ مهما تَخْتَلِفْ العُصُورُ وتتبـدَّل الظروفُ . وهـذا الجزءُ مِنْ فَلْسَفَةِ أَفْلاطونَ مُتَّصِلٌ بالْأَجْزَاءِ الأُخْرَى ، ليس مُنْفَصِلًا عنْهَا ولا مُمْتازًا منها . فقد رأيتَ أَنَّ الكونَ كلَّهُ يَدُورُ حولَ نُقْطَةٍ وَاحدةٍ ، عَنها صَدَرَ ، وإِليها يَرْجِعُ ، وهى فِكرَةُ الخيرِ أو الإِله .

وإذا كانَتْ هذه الفكرةُ هِىَ مَصدَرَ الكَوْنِ ومَرْجعَهُ ، وَهِىَ التى يَنْتَهِى إليها بَحثُ الفيلسوفِ ، فيَنْبَغِى أَنْ تَكونَ هذه الفِكرةُ نَفْسُها غايةَ الحياةِ الْعَمليَّةِ الإنْسَانيَّةِ أيضاً ؛ يَنْبَغِى أَنْ تَكُونَ هِى مَصْدَرَ السَّعادةِ ، وَيَنْبَغِى أَنْ تكُونَ هى الْمَثَلَ الأَعْلَى الذى يَطْمَحُ اليهِ الإنسانُ فى حياتِه العملِيَّةِ ، كَمَا أَنَّها المَثَلُ الأعلَى الذى يَنْتَهِى إليه فى حياتِهِ النَّظَرِيَّةِ . ذلك لِأَنَّ الأَخْلاقَ لَيْسَتْ عَمَلاً عندَ أفلاطونَ ، وإِنَّمـا هِىَ عِلْمٌ ؛ أوْ قُلْ إنَّ أفلاطونَ لا يُفَرِّقُ فى الأَخلاقِ بَيْنَ الْعِلْمِ والعَمَلِ ؛ فهُو يُؤَكِّدُ ، كما كان يُؤَكِّدُ سُقْرَاطُ ، أَنَّ مَصْدَرَ ما نَتوَرَّطُ فيه من الرَّذَائِلِ والآثامِ إِنَّما هو جَهْلُنَا بِالْخَيْرِ وقُصُورُنَا عَنْ إدراكِهِ ؛ فإذا أُزِيلَ هذا الجَهْلُ وأُتيحَتْ لنا الْقُوَّةُ التى تُمَكِّنُنَا مِنْ إِدراكِ الخيرِ وَمشاهَدتِهِ ،

فنحنُ بِمأمَنٍ مِنَ الرَّذائِلِ والآثامِ . وليسَ يَسْتَطِيعُ أَفلاطونُ ، كَمَا لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ سُقْرَاطُ ، أنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّ الإِنسانَ يُقْدِمُ عَلَى الشَّرِّ وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ ، وينصَرِفُ عنِ الخيرِ وهو يعْلَمُ أنَّهُ خيْرٌ . وإذًا فالفَلْسَفَةُ التي تُؤَدِّى إلى إدراكِ فِكْرَةِ الْخَيرِ ليست مَصْدَرَ السعادةِ النَّظَرِيَّةِ العِلْمِيَّةِ وَحْدَهَا ، بل هِيَ مصدرُ السعادةِ العَمَلِيَّةِ أيضاً ؛ فالفيلسوفُ أسْعَدُ الناسِ لِأَنَّهُ يُدْرِكُ الخيْرَ ويراه ، ثُمَّ لِأَنَّهُ يَسْعَى إِليهِ وَيَطْمَعُ فيه ويُنَظِّمُ حياتَهُ تنظيماً يجْعلُها ملائمةً له .

عَلَى أَنَّ أَفلاطونَ لا يَكْتَفِي بهذا التفسيرِ النَّظَرِيِّ الخالصِ ، وإِنَّما يُحاوِلُ أَنْ يُفَسِّرَ لنا مَصْدرَ هذا الجَهْلِ الذى يُوَرِّطُنا فى الشَّرِّ والإِثمِ . وتَفْسِيرُه لهذا الجَهْلِ بَدِيعٌ قَوِيٌّ . فيه شِعْرٌ ، وفيهِ فَلسَفَةٌ معاً .

فالنَّفْسُ عِندَ أَفلاطونَ مِزاجٌ يتألَّفُ مِنْ قُوَى ثلاثٍ ، إحْدَاها هــــذه القُوَّةُ العاقِلةُ التى تتَفَهَّمُ الأَشياءَ وتَتَبَيَّنُها ، وتَنْتَقِلُ مِنَ المحسوسِ إلى المَفْهومِ ومِنَ المُرَكَّبِ إلى المجرَّدِ حتى تَنتهِىَ إلى الحقائقِ الثابتةِ ، ثُمَّ إلى حقيقةِ الحقائقِ أَو فِكْرةِ الخيرِ أو الإله . والثانيةُ هذه القُوَّةُ الغَضَبِيَّة التى وُكِلَ إليها الدِّفاعُ عنِ الحياةِ والاِحْتِفاظُ بها ، وهىَ التى نُسَمِّيها الشجاعةَ ، وهى التى تَحْمِلُنا عَلَى أَنْ نَغْضَبَ ونَثُورَ ، كلَّما احْتَجْنا إلى الغَضَبِ والثَّورةِ . والثالِثةُ هذه القوَّةُ الشهوِيَّةُ ، التى تُعْنَى بوجودِ الجِسْمِ المادِّىِّ ، لِأَنَّها تَحْمِلُه عَلَى إرضاءِ شَهَواتِهِ المختلِفةِ : مِنَ الأَكلِ والشُّرْبِ وما يتَّصِلُ بهما مِنْ أَنواعِ اللَّذَّاتِ . ولِكلِّ قُوَّةٍ مِنْ هــــذه القُوَى الثلاثِ مَرْكزُها فى الجِسْمِ . فأَمَّا الأولى فمستقرُّها الرأسُ .

وأَمَّا الثانيةُ فمستقَرُّها الصَّدْرُ. وأَما الثَّالثةُ فمستقَرُّها البَطْنُ. والنَّفْسُ عِندَ أَفلاطونَ تُشْبِه عَرَبَةً يَقودُها جَوَادانِ أَصيلانِ: أَحدُهما الغَضَبُ، والآخَرُ الشَّهوةُ. أَمَّا سائقُ الجوادَيْنِ فهُوَ الْعَقْلُ. وإِذاً فلا بُدَّ مِنْ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَ هذيْنِ الجوَادَيْنِ تَوَازُنٌ فى القُوَّةِ وتوافُقٌ فى الْحَركةِ مِنْ جهةٍ، ولا بُدَّ مِنْ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَهُما وَبيْنَ السَّائِقِ تَوَازُنٌ آخَرُ يَضْطَرُّهُما إِلى الْخُضُوعِ لَهُ والإِذْعانِ لِأَمْرِهِ مِنْ جهَةٍ أُخْرَى. فإِذا اُخْتَلَّ التَّوازُنُ بَيْنَ الجوادَيْنِ أَو بَيْنَهُما وَبيْنَ السَّائِقِ، فذلِك مَصْدَرُ الشَّرّ الَّذِى نَتوَرَّطُ فِيهِ. قد تُسْرِفُ القُوَّةُ الغَضَبِيَّةُ حَتَّى تُسَيْطِرَ عَلَى القُوَّتيْنِ الأُخْرَيَيْنِ؛ وإِذاً فنحنُ مُتَهَوِّرون مُنْدَفِعُون. وقد تُسْرِفُ القُوَّةُ الشَّهوِيَّةُ؛ وإِذاً فنحن عَبِيدُ اللَّذَّةِ وأَرِقَّاؤُها. وعَلَى هذا النَّحْوِ يَرَى أَفلاطونُ

انَّ الفضيلةَ حقًّا إنَّما هِيَ مِزَاجٌ يَنْتُجُ مِنَ التَّوَازُنِ بَيْنَ هذه القُوَى بحَيْثُ يَسْتطيعُ الجِسْمُ أَنْ يَحْيا ويَحتَفِظَ بحيَاتِهِ دُونَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَ النَّفْسِ العاقِلَةِ وَبَيْنَ الطُّموحِ إلى الخَيْرِ والسعي إلى الوصُولِ إليهِ

شيءٌ آخَرُ يُتِمُّ نَظَرِيَّةَ أَفْلاطونَ فِي الأَخْلاقِ ، ويُعِينُ عَلَى فَهْمِ هذه الشَّخصيَّةِ القَوِيَّةِ ، وعَلَى فَهْمِ ما كانَ لِفَلْسَفةِ أَفْلاطونَ مِنْ أَثَرٍ بَعِيدٍ فِي الحَياةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وهو رَأْيُهُ فِي العُقُوبَةِ الخُلُقِيَّةِ . فَلَيْسَ يَكْفِي أنْ يُمَثِّلَ لكَ الخيْرَ وَيدْعُوكَ إليه ، بَلْ لَيْسَ يَكفِي أَنْ يُمَثِّلَ لك الشَّرَّ ويُحَذِّرَكَ مِنْهُ ، وَإِنَّما هُوَ يَرَى أَنَّ العُقُوبَةَ أَمْرٌ محتُومٌ لا مُنْصَرَفَ عَنْهُ ولا مَفَرَّ مِنْهُ . فلِكلِّ عَمَلٍ جزَاؤُهُ . له الثَّوابُ إِنْ كَانَ خيْراً ولَهُ العِقَابُ إِنْ كانَ شرًّا ؛ تِلْكَ نَتِيجَةٌ محْتُومَةٌ لِلعَدْلِ ،

وهىَ نَتِيجَةٌ طبيعيَّةٌ لَيْسَتْ مُتكَلَّفَةً ولا مُصْطَنعة ، لَيْسَتْ كهذِهِ العُقُوبَاتِ الَّتِي تفرِضُهـا الْقوَانِينُ الْمكتُوبَةُ ، وَإِنَّمَا هِيَ أَقْوَى وأَنْفَعُ وأَلْزَمُ مِنْ هذه العقوباتِ . يرَى أفلاطونُ أنَّ هذه العقوبةَ لَيْسَتْ شَرًّا ، وَإِنَّمَا هِيَ الْخَيْرُ كلُّ الْخَيْرِ ؛ ذلك أَنَّها لا تَرْمِي إلى الِانتقامِ وَلا إلى التَّعذيبِ ، وإنَّما تَرْمِي إلى التَّصْفِيَةِ والتَّطْهِيرِ . فالنَّفْسُ الآثِمةُ عِنْدَ ما تُعاقَبُ تُطَهَّرُ مِنْ أَدْرَانِ الإِثْمِ ، وتُعَدُّ لِأَنْ تَسْتأْنِفَ حَياتَهـا الصالحةَ الرَّاقِيَةَ التي تُلْحِقُها بنفُوسِ الأَخْيَارِ وتَرْقَى بهـا إلى مُسْتقرِّها الأَوَّلِ فِي المَلَإِ الأَعْلَى . أمَّا تَفْصِيلُ هذه العُقُوباتِ فجميلٌ لا يَخْلُو مِنْ لَذَّةٍ شِعْرِيَّةٍ ، ولا مِنْ قُوَّةٍ خيَالِيَّةٍ مُدْهِشَةٍ . وحَسْبُكَ أَنَّ مَذْهَبَ التَّناسُخِ يَخْتَصِرُ هذه العقوباتِ : فالنَّفْسُ الآثِمَةُ بَعْدَ الموتِ تعُود

إلى هذه الحياةِ لتمحُوَ إثمَهَا ، وهى تَستَقِرُّ فى جسمٍ مِنَ الأَجسامِ يُلائِمُ نوْعَ الإِثمِ الَّذِى اقترفتْهُ : كانَتْ نَفْسَ رَجُلٍ ، فهى الآنَ نَفسُ امْرأةٍ . كانَتْ نفسَ إِنْسَانٍ ، فهى الآنَ نَفْسُ فَرَسٍ ، أو نَفْسُ كلْبٍ ، أو نَفْسُ حِمارٍ ، وهَلُمَّ جرًّا . . . فأَنْتَ تَرَى أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الْخُلُقِيَّةَ لِأَفلاطُونَ مُتَّصِلةٌ بنَظَرِيَّتِهِ فى الطبيعَةِ وفيما بَعْدَ الطَّبيعةِ . وليْسَتْ نَظَرِيَّتهُ السياسيَّةُ بأقلَّ اتِّصالاً بفَلْسَفَتِهِ العامَّةِ مِنْ نَظَرِيَّتِهِ الْخُلُقِيَّةِ . ذلك لِأَنَّ رأيَهُ السياسىَّ يَقُومُ عَلَى رأيِه الْخُلُقِىِّ : فالجماعةُ عِنْدَهُ كالفَرْدِ تتأَثَّرُ بِما يتأَثَّرُ به ، وتَخْضَعُ لما يَخْضَعُ له ، ويجِبُ أنْ تَطْمَحَ إلى ما يَطْمَحُ إليهِ . وإذا كانَ الفَرْدُ مُكَلَّفًا أن يَطْمَحَ إلى العَدْلِ الَّذِى يَرْقى به إلى المْثَلِ الأَعْلَى وهو الخيْرُ ، فالجماعةُ مُكَلَّفةٌ أَنْ تَطْمَحَ أيضاً إلى هذا

العَدْلِ . وقد رأينا أَنَّ العَدْلَ بالْقياسِ إِلى الْفَرْدِ هو التَّوَازُنُ بينَ قُوَى النفْسِ الثَّلَاثِ ، أَوْ بين الأَنْفُسِ الثَّلَاثِ ، كَما يقُولُ أفلاطونُ ، فكذلك العَدْلُ السِّياسىُّ توازُنٌ بينَ الأَنْفُسِ الثَّلاثِ الِاجْتماعِيَّةِ أو السِّياسيَّةِ . فلِلْجماعةِ أنْفُسٌ ثلاثٌ كالفَرْدِ : لَها نَفْسُها العاقلةُ ، وهىَ الحكومةُ التى تقومُ مِنْهَا مَقامَ العَقْلِ مِنَ الفَرْدِ . ولَها نَفْسُها الغَضَبِيَّةُ التى تَحْميهَا وتَحْفَظُ علَيْهَا قِوامَها فِى الدَّاخلِ والخارجِ وهىَ الجيْشُ . ولها نفْسُها الشَّهوِيَّةُ التى تُقَدِّمُ إِليها ما تَحْتاجُ إِليهِ من أَدَوَاتِ الْحياةِ ، وهى طبقَةُ العُمَّالِ والزُّرَّاعِ ومَنْ إِليهم . وإِذاً فالحياةُ الِاجْتماعِيَّةُ السَّعيدَةُ هِىَ الَّتى يَتحقَّقُ فيها التَّوَازُنُ بيْنَ هذه الأَنْفُسِ الثَّلاثِ . وليْسَ تَحقيقُ هَذا التَّوازنِ بالأَمْرِ اليسيرِ ، كما أَنَّ تَحقيقَ التَّوازُنِ عِنْدَ الْفَرْدِ

ليسَ بالأَمْرِ اليَسِيرِ أيضاً . أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الكَثْرَةَ المُطْلَقَةَ مِنَ الْأَفْرَادِ أَشْقِيَاءُ ؟ أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ كُلَّ المُدُنِ والدُّوَلِ القائِمَةِ إِنَّمَا تَخْضَعُ لِأَلْوَانٍ مِنَ الشَّقَاءِ السِّيَاسِيِّ لا تَكَادُ تُوصَفُ ولا تُحْصَى ؟ وإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يُؤْخَذَ الفَرْدُ بِنَوْعٍ خاصٍّ من التَّرْبِيَةِ يُمَكِّنُهُ من أنْ يُحَقِّقَ التَّوَازُنَ بَيْنَ أَنْفُسِهِ الثَّلاثِ ، فَلَيْسَ هُناكَ بُدٌّ مِنْ أَنْ يُؤْخَذَ الْأَفْرَادُ بِتَرْبِيَةٍ سياسيَّةٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَنْ يُكَوِّنُوا المَدِينَةَ الفاضِلَةَ الَّتِي يَتَحَقَّقُ فيها التَّوازنُ بَيْنَ الأَنْفُسِ الِاجتماعيَّةِ الثَّلاثِ . وَلَسْتُ أُفَصِّلُ لَكَ قَواعِدَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ أفلاطونَ ، فذلك شَيْءٌ يَطولُ ، ومِنَ اليَسِيرِ عليكَ أَنْ تَقْرَأَهُ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ ؛ فَسَتَجِدُ فِي قِرَاءَتِهِ لَذَّةً لاَ تَعْدِلُها لَذَّةٌ . ولكِنِّي أُجْمِلُ لك النَّتَائِجَ السياسيَّةَ الَّتِي انْتَهَى إِلَيها أَفلاطونُ والتي كَوَّنَتْ

مدينَتَهُ الفاضِلَةَ التى هى فى الحَقِيقَةِ مَثَلٌ أعْلَى ليْسَ إلى تَحقِيقِهِ من سَبِيلٍ والتى نَدْهَشُ نَحْنُ الآنَ لِأَنَّ فيلسوفاً كأفلاطونَ تَصَوَّرَها وحاوَلَ أَنْ يَجْعَلَها حَقِيقَةً واقِعةً .

يُرِيدُ أَفلاطونُ أَنْ تتأَلَّفَ مَدِينَتُه الفاضِلةُ مِنْ هٰذِه الطبقاتِ الثَّلاثِ الَّتى قَدَّمنا الإشارةَ اليها ، ويُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الطَّبَقَةُ الأُولى التى تُشْرِفُ عَلَى الْحُكمِ بِمَنْزِلَةِ الْعَقْلِ مِنَ الفَرْدِ . وكَيْفَ تكُونُ هذه الطَّبقَةُ بِمَنْزِلَةِ الْعَقْلِ إذا لَمْ تتأَلَّفْ مِنَ الفلاسِفَةِ ! . . الفلاسِفةُ وَحْدَهم قادِرون عَلَى تَدْبيرِ الحَياةِ الفَرْديَّةِ والِاجتِماعِيَّةِ ؛ لأَنَّهم وحدَهُم قادِرون عَلَى تصَوُّرِ الخيرِ والوُصولِ إليهِ . وإذاً فأَفلاطونُ عدُوٌّ لِلدِّيمُقراطِيَّةِ التى تَكِلُ الحكمَ الى النَّاسِ جَمِيعاً دُونَ أَنْ تُفَرِّقَ بينَ كِفاياتِهم وحُظوظِهم مِنَ القُوَى العَقْلِيَّةِ . وهو عدُوٌّ لِلأَرِسْتُقْرَاطِيَّةِ التى

تَعْتَمِدُ عَلَى المَوْلِدِ أَو عَلَى الثَّرْوةِ وَالجاهِ . أَفلاطونُ أَرِسْتُقْرَاطِيٌّ، ولٰـكِنَّ أَرِستُقْراطيَّته تَعْتَمِد عَلَى الفَلْسَفَةِ . ولا تَبْتَسِمْ ساخِراً أو مُزْدَرِياً ! فمَا زالَ الفلاسِفَةُ الى اليَوْمِ وإلى غَدٍ يَنْحُونَ هذا النَّحْوَ ، وَيَطْمَعُونَ أَو يَتَمَنَّوْنَ ، أَنْ يكُونَ الْحُـكمُ إِلى الْفَلْسَفَةِ . ولعلَّك تَعْلَمُ شيْئاً مِنْ رَأْى رينَانَ فى هذا .

ثُمَّ يُرِيدُ أَفلاطونُ أَنْ يَأْخُذَ الطبقَةَ الثانيةَ ، طَبقَةَ الْجيشِ ، بنَوْعٍ من النِّظَامِ شديدٍ صارِمٍ، يُمَكِّنُهَا مِنْ أَنْ تُؤَدِّىَ واجِبَ الدِّفاعِ كَمَا يَنْبَغِى ، وَيُمَكِّنُهَا مِنْ أَنْ تَحْفَظَ التوازُنَ بينَ هذه القُوَى التى تتأَلَّفُ مِنْها المدِينةُ ؛ ويُعِدُّها فى الوقتِ نفسِهِ لأَنْ تَرْقَى إِذَا أَدْرَكَتْها السِّنُّ إلى طَبَقَةِ الفَلَاسِفةِ الذينَ يَحْكُمُونَ . يُرِيدُ أَفلاطونُ أَنْ يُزِيلَ بينَ أَفرادِ هذه الطَّبقةِ كلَّ سببٍ للفُرْقةِ

أَوِالْخُصُومَةِ . وأَىُّ سببٍ للفُرْقةِ أَوِالْخُصُومَةِ أَقْوَى مِنَ الشَّخْصِيَّةِ ؟ يَجِبُ إِذاً أَنْ تزُولَ الشَّخْصِيَّةُ ، يَجِبُ أَلاَّ يُوجَدَ الْفَرْدُ لِنفْسِهِ بَلْ لِلدَّوْلةِ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ كلَّ ما يُكَوِّنُ الفَرْدَ وشَخْصِيَّتَهُ ، يَجِبُ أَنْ يزُولَ . يَجِبُ أَنْ تُمْحى الْمِلْكِيَّةُ ، فلا فَقْرَ ولاَ غِنًى ولاَ حِقْدَ بينَ الْفَقِيرِ والْغَنِيِّ ولاَ خُصومَةَ بينَ الأَغْنِياءِ . يَجِبُ أَنْ تَزُولَ الأُسْرَةُ ، فَلاَ زَوْجِيَّةَ ولاَ أُبُوَّةَ : أَىْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ المَرْأَةُ حَظًّا شائِعاً بينَ أَفْرَادِ الطَّبقةِ جَمِيعاً تشْرِفُ الْحُكُومَةُ عَلَى توْزِيعِهِ بَيْنَ هؤُلاَءِ الأَفْرَادِ . ويَجِبُ أَنْ تُمْحَى الأُبُوَّةُ ، فَلاَ يَثْبُتُ النَّسَبُ مِنَ الأَفْرَادِ ، وإِنَّمَا الأَطْفَالُ جَمِيعاً أَبْنَاءُ الدَّوْلةِ ، تَغْذُوهُمْ وتَقُومُ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وتَنْشِئِهِمْ حَتَّى يبْلُغُوا سِنَّ الرُّشْدِ ويَنْدَمِجُوا فِي الجَيْشِ . وهىَ لا تُرَبِّيهِمْ جَمِيعاً ، أَوْ قُلْ

لا تَحْتَفِظُ بِهِمْ جَمِيعاً ، وإِنَّمَا تَحْتَفِظُ مِنْهُم بِمَنْ تَسْتَيْقِنُ أَنَّهُ نافِعٌ للدَّوْلَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهَا حَقًّا . وإِذاً فالمَرْضَى مِنَ الأَطْفالِ والَّذِينَ سَاءَ تَكْوِينُهُمْ أَوْ أَصَابَتْهُمُ العَاهَاتُ ، يَجِبُ أَنْ تَنْبِذَهُمُ الدَّوْلَةُ نَبْذاً . ولا يُفَرِّقُ أَفلاطونُ فى الْحُقوقِ والواجباتِ بينَ الرَّجُل والْمَرْأَةِ فى هذه الطَّبَقَةِ ، وإِنَّمَا هُمَا سَوَاءٌ عَلَى أَنْ تُوَزِّعَ الْحُكُومَةُ بَيْنَهُمَا حُظُوظَهُمَا مِنَ الْحُقُوقِ والواجباتِ ، فتُكَلِّفَ كلاًّ مَا هُوَ أَهْلٌ لهُ مِنَ الواجباتِ لصِيانَةِ الدَّولةِ وحِياطَتِها .

أَمَّا الطَّبقةُ الثَّالِثَةُ ، فيَكادُ يُهْمِلُها أفلاطونُ ، وهُو لا يُرِيدُ مِنْها إِلاَّ أَنْ تُقَدِّمَ إِلى الجيْشِ والْحُكُومَةِ ما يَحْتَاجانِ إِليهِ . ومِنْ هُنَا لَمْ يُلْغِ الْمِلْكِيَّةَ فى هذِهِ الطَّبقةِ ولَمْ يُلْغِ الأُسْرَةَ ؛ ومَا يَعْنِيهِ مِنْ هذِهِ الطَّبَقةِ مَا دَامَتْ خاضِعَةً لِسُلْطَانِ الْجَيْشِ وَسُلْطَانِ الْحُكُومَةِ ؟ !

هذهِ هِيَ الْمَدِينةُ الفاضِلةُ الأَفلاطونيَّةُ ، أَعْطَيْتُكَ مِنْها صُورَةً مُوجَزَةً بل نَاقِصَةً ، لِأَنِّى أَهْمَلْتُ كثيراً مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الأَفْلاطونيَّةِ فى السِّياسَةِ والتَّرْبِيَةِ ، حِرْصاً عَلَى الإِيجاز . والنَّاسُ يَرَوْنَ أَنَّ هذهِ المدِينةَ الأَفلاطونِيَّةَ حُلْمٌ مِنْ أَحْلاَمِ الخيَالِ . ولكنْ مِنَ الحقِّ علَينا أَنْ نُلاحِظَ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهما أَنَّ أفلاطونَ نَفْسَهُ قَدْ سبَقَ النَّاسَ جَمِيعاً إِلى الشُّعور بِأَنَّ مَدِينَتَهُ هذه خَيالٌ، لَيْسَ إِلى تحْقِيقِهِ مِنْ سَبِيلٍ ؛ فَعَدَلَ فِي كتابِ القوانِينِ — وهو آخِرُ كتابٍ كتَبَهُ ، ويُقَالُ إِنه تَرَكَهُ غيرَ كاملٍ ولا مُنَقَّحٍ — عَنْ بَعْضِ هَذِهِ الآراءِ الخياليَّةِ ؛ لا لِأَنَّهُ جَحَدَهَا أَوْ عَرَفَ أَنَّهُ مُخْطِئٌ فيها ، بَلْ لأَنَّ تجارِبَهُ فِي صِقِلِّيَةَ ومُلاحظَاتِه فِي بِلادِ اليُونَانِ ، قَدْ بَيَّنَتْ لَهُ مَكَانَ الغُلُوِّ فى هذه النَّظرِيَّاتِ ، وعلَّمَتْهُ أَنَّ المَثلَ

الْأَعْلَى شَيْءٌ والحقيقةَ الواقعة شَيْءٌ آخَرُ . الملاحظَةُ الثَّانيــةُ أَنَّ هذه النَّظريَّاتِ الأَفلاطونيَّةَ الَّتِي تُمَثِّلُ ما يَجِبُ أَنْ يكونَ ، لا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ ، قَدْ تَرَكَتْ آثاراً قَوِيَّةً جِدًّا فِي الحياةِ الإِنْسَانِيَّةِ المُعاصِرَةِ لَهُ والتي جاءتْ بَعْدَه . فقد يُقَالُ إِنَّ بَعْضَ الْمُدُنِ اليُونَانِيَّةِ الأَسْيَوِيَّةِ تَأَثَّرَتْ بسِياسَةِ أفلاطونَ ، وَطَلَبَتْ إِلى بَعْضِ الأَفلاطونيِّينَ أَنْ يَضَعُوا لَها النُّظُمَ السياسيَّةَ المُلائِمَةَ لِلْمَدِينَةِ الفاضِلَةِ قَلِيــلاً أَوْ كَثيراً ، كما أَنَّ بَعْضَ المُدُنِ اليُونَانِيَّةِ فِي إِيطَالِيا تَأَثَّرَتْ بِالفَلْسَفةِ الفِيثَاغُورِيَّةِ وَوكَلَتْ أُمُورَهَا إِلى الفِيثاغُورِيِّينَ .

ومَهْمَا يَكُنْ نَصِيبُ السِّياسةِ الأَفلاطونيَّةِ مِنَ الْفَوْزِ أَو الإِخْفَاقِ فى حَياةِ المدُنِ اليُونانِيَّةِ ، فإِنَّ هذه السِّياسَةَ قَدْ أَحْرَزَتْ فَوْزاً عَظِيماً لا يَزَالُ قَائِماً إِلى الآنَ وإِلى

غدٍ ، وهو فوزُها في الكَنيسةِ المَسيحيَّةِ الكاثُوليكيَّةِ بنوعٍ خاصّ . فإنَّ شيئاً من المُقارنةِ بينَ نظامِ أفلاطونَ وتصوّرِه للطَّبقةِ الحاكمةِ في مدينتهِ الفاضلةِ وبينَ نظامِ الكَنيسةِ الكاثوليكيَّةِ ، يُقنعكَ بأنَّ هذهِ الكَنيسةَ تأثَّرتْ تأثُّراً غيرَ قليلٍ بالفلسفةِ الأفلاطونيَّةِ في نظامِها الدُّستوريِّ الَّذي لا يزالُ قائماً .

☆
☆ ☆

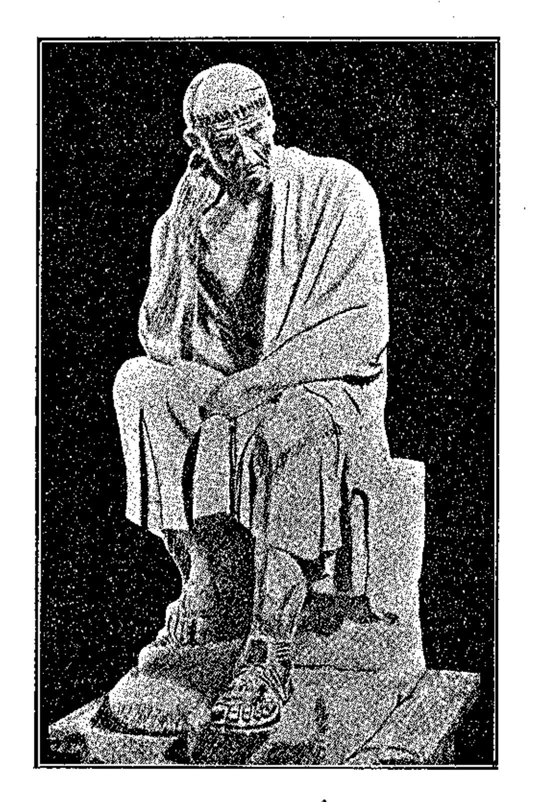
وجملةُ القولِ أنَّ شخصيَّةَ أفلاطونَ كانتْ وما زالتْ وستظلُّ أبداً شخصيَّةً قويَّةً عظيمةَ التأثيرِ في الحياةِ العامَّةِ ، بحيثُ إنَّكَ لنْ تستطيعَ أنْ تدرُسَ مذهباً رُوحيًّا ، قديماً كانَ أوْ حديثاً ، دينيًّا كانَ أوْ فلسفيًّا ، إلَّا وجدتَ للفلسفةِ الأفلاطونيَّةِ فيهِ أثراً ، يختلفُ قوَّةً وضعفاً باختلافِ الظُّروفِ الَّتي أحاطتْ

بتكوين هذا المذهب . ولقد يكون من اللذيذ أن ندرس في يوم من الأيام تغلغل التأثير الأفلاطوني في الطبقات المختلفة من الشعوب المتباينة ؛ فإلى الفلسفة الأفلاطونية ممتزجة بعناصر أخرى متنوعة ، يرجع كثير من فنون السحر والكهانة والتصوف وما إلى ذلك من هذه الفنون التي لا تزال عظيمة السلطان على الطبقات الدنيا في أكثر الشعوب .

لم يكد أفلاطون يأخذ في تعليمه الفلسفي في أثينا حتى أسرع إليه الناس يستمعون له ، ويناقشونه ويحاورونه ، وما هي إلا أن أصبحت مدرسته مجمعا علميا ، أو قل مجمعا فلسفيا لا يتألف من التلاميذ والأستاذ ، بل يتألف من طائفة من الفلاسفة ، يتقسمون العمل فيما بينهم ، ويعنى كل واحد منهم

بِمَسْأَلَةٍ أَوْ طَائفـةٍ مِنَ المَسائِلِ ، يَدْرُسُهـا ويَفْرُغ لِتَحْقِيقِها ؛ حتّى إذا ماتَ أفلاطونُ ، خَلَفَهُ تلامِيذُهُ عَلَى إدارَةِ المَدْرسَةِ ، وتَفَرّقَ أَصحابُهُ فى المُدُنِ اليُونَانِيّةِ كما تفَرّقَ أَصحابُ سُقْرَاطَ ، فَأَنْشَأُوا فِيهـا المدَارسَ الأَفْلاطونيَّةَ الَّتى اخْتَلَفَتْ مُيُولها ، ولٰـكِنَّها كانَتْ أَقربَ إلى الاتِّفاقِ مِنَ المدارسِ الَّتى أُنْشِئَتْ بَعْدَ سُقْرَاطَ . عَلَى أَنَّ تِلْمِيذاً مِنْ تَلاَميذِ أفلاطونَ كَانَ قَدْ نَزَلَ مِنْ قَلْبِ أُسْتَاذِهِ مَنْزِلَةً خَاصَّةً ، حَتَّى أُعجِبَ بِهِ هَذَا الأُسْتَاذُ ، فكانَ يُسَمِّيه « الْعقْلَ » . هذا التِّلْمِيذُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَنْشَأَ مَدْرسةً فى أَثينا نَفْسِها ، تَعرَّضَتْ لِدَرْسِ المسَائلِ الفَلْسَفِيَّةِ الَّتى تَعرَّضَ لهَـا أفلاطونُ ، فَغيَّرَتْ وِجْهَةَ النَّظَرِ الفَلْسَفِيِّ تَغْيِيراً ظاهِراً ، وأَعْطَتِ الْفَلْسَفةَ اليُونَانيَّةَ شَكْلَها الأَخِيرَ ؛ نُرِيدُ بهذا التِّلْميذِ

« أَرسْطَطالِيسَ » ، وبِهـذِه الْمَـدْرسَةِ مَدْرسَةَ « اللُّوكَايُون » (Lycée) . ولاَ بُدَّ مِنْ أَنْ نُخصِّصَ لِأَرسْطَطاليسَ ومدرسَتِهِ بَحْثاً كَهذَا الْبَحْثِ الَّذِى خَصَّصْنَاه لِأَفْلاَطونَ .



أرسطاليس

ارسطَطاليس

١ — شَهِدَ سُقْراطُ فى شَبَابِه مَجْدَ الأُمَّةِ اليُونَانيَّةِ عامَّةً ومَدِينةِ أَثينا خاصَّةً ؛ وشَهِدَ فى شَيْخُوخَتِه هذه الْجهودَ العَنِيفةَ التى كانَتْ تبذُلُها هذه الأُمَّةُ اليونانيَّةُ نَفْسُها لتَقْضِيَ عَلَى ما كانَ لَهَا مِنْ قُوَّةٍ وسُلطانٍ : شَهِدَ تلك الْحَرْبَ الَّتى لَمْ يَعْرِفِ الْعالَمُ القديمُ مِثْلَها ، والتى أَثَّرَتْ فى الحياةِ اليونانيَّةِ تأْثيرَيْنِ مُخْتَلِفَيْن : فَرَقَّتِ الحياةَ العَقْليَّةَ وحطَّتِ الحياةَ السياسيَّةَ ؛ وكانَتْ فَلْسَفةُ سُقْراطَ مُمَثِّلَةً لهذَيْنِ التَّأْثيرَيْنِ : كَانَ فيها انْصرافٌ عنِ الْحياةِ السياسيَّةِ وازْدِراءٌ لهَا ، أَوْ قُلْ كانَ فيها سُخْطٌ عَلَى هذه الحياةِ السياسيَّةِ ، وكانَتْ فيها مِنْ ناحيةٍ أُخْرى عِنايةٌ بالحياةِ العَقْليَّةِ ، وحِرْصٌ عَلَى تقْوِيتها وتَرْقيتها

وتَهْذِيبِهَا . وشَهِدَ أَفلاطونُ فى شَبابِه ضَعْفَ الأُمَّةِ اليونانيَّةِ عامَّةً ومدينَةِ أَثينا خاصَّةً ، وتَدَخُّلَ الأَجْنَبِيِّ فى أَمْرِ هذه الأُمَّةِ الَّتى كانَتْ شَديدةَ البأْسِ واسِعةَ السُّلطانِ ؛ فأَصبحَتْ أَداةً تَصْطَنِعُها الأُمَّةُ الفارِسيَّةُ لإِرْضاءِ مَطامِعِها الْمُخْتلِفَةِ فى أسيا وفى أُوربا . وشَهِدَ فى شَيْخوخَتِه انْحِلالَ هذه الأُمَّةِ اليونانيَّةِ وموتَ الرُّوحِ الوَطنيِّ فيها . وكانَتْ فَلْسَفتُه ممثِّلةً لهذا العَصْرِ الَّذِى عاش فِيهِ تَمْثيلاً صحيحاً : فكانَتْ مِنْ جهةٍ كفَلْسفةِ سُقراطَ ، تَرْمِى إِلى تقويَةِ الحياةِ العَقْليَّةِ ومُحاوَلةِ أَنْ تكونَ وحدَها غايةَ الرَّجُلِ الحكيمِ . وكانَتْ مِنْ جهةٍ أُخْرَى كفَلْسَفةِ سُقراطَ أَيضاً تُمثِّلُ السُّخطَ عَلَى الحياةِ السياسيَّةِ الحاضرةِ ، وتتَّخِذُها مَوْضوعاً لِلْعَبَثِ والسُّخْرِيَةِ . ولِكنَّها لَمْ تكُنْ يائسةً مِنَ الإِصلاحِ ، وإِنَّما كانَتْ

تُخالِفُ فَلْسَفَةَ سُقْراطَ وتَرْمى إلى وَضْعِ نِظامٍ جَديدٍ للحياةِ السياسيَّةِ ليس يَعْنِينا الآنَ أكانَ فى نَفْسِهِ حَسَناً أَمْ سَيِّئاً ، معْقُولاً أَمْ غَيْرَ مَعْقولٍ ؛ ولكنَّ الَّذِى يَعْنِينَا أَنَّهُ كانَ محاوَلةً للإصلاحِ ورَغْبَةً فى إِقامةِ بناءٍ سياسيٍّ جَديدٍ ، ودَليلاً وَاضحاً عَلَى أَنَّ البناءَ السياسيَّ القديمَ الَّذِى كانَ قد أَخذَ يتصدَّعُ أيامَ سُقراطَ قد أَشْرَفَ الآنَ عَلى أَنْ ينْهارَ ، ولَمْ يَبْقَ مِنَ الاُسْتِعْدادِ بُدٌّ لأقامةِ بناءٍ جَديدٍ عَلَى أَنْقاضِه . وقد عَرَفْتَ مِنَ الفُصولِ السابقةِ فَلْسَفةَ سُقراطَ وأفلاطونَ وتأْثيرَها فى الرَّأْىِ العامِّ أَثْناءَ حياةِ هذَيْنِ الفِيلُسوفَيْنِ وبعدَ مَوْتِهما . أَمَّا الفِيلُسوفُ الذى أُريدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عنهُ فى هذا الفَصْلِ فمُتَّصِلٌ بهذينِ الرَّجُلَيْنِ العَظيمَيْنِ مِنْ جهَةٍ ، ومُنْفَصِلٌ عنهُما مِنْ جهَةٍ أُخْرَى .

هو سُقراطىٌّ ، وهو أفلاطونىٌّ ، لأَنَّه كان كسقراطَ

وكأفلاطونَ : يُقيمُ فَلْسَفَتَه عَلَى أَنَّ الحقائقَ ثابتةٌ وعَلَى أَنَّ الشكَّ سخيفٌ ، وعلى أَنَّ هذه الحقائقَ الثابتَةَ تنتهى كلُّها آخِرَ الأَمْرِ إلى حقيقةٍ عُليا ، عَنْها صَدَرَتْ وإليها تعودُ ، وهى حقيقةُ الإِلٰه ، الّذِي صَدرَ العالَمُ عَنْهُ والذى يَعُودُ العالَمُ إليـهِ ؛ ولكنَّهُ يُخالِفُ سُقراطَ ويُخالِفُ أَفلاطونَ فى طريقةِ البحثِ والتَّفكيرِ والنتائجِ الفَلْسَفيَّةِ التَّفْصيليّةِ الّتى انتهى إليها . ورُبَّما كان مِنَ الْحَقِّ أَنْ نَقُولَ إِنَّه يُخالِفُ سُقراطَ وَأَفلاطونَ مُخَالَفَةً شـديدةً فى تكْوينِ عَقْلِهِ وتوجيهِ هذا العَقْلِ إلى حقائقِ العِلْمِ وظواهرِ الحياةِ .

٢ — وكَما أَنَّ فلسفةَ سُقراطَ وفلسفةَ أَفلاطونَ تُمثِّلانِ الحياةَ اليُونَانِيَّةَ فِى عَصْرَيْهِما فإنَّ فَلْسَفَةَ أَرِسْطَاليسَ تُمثِّلُ هذه الحياةَ أيضاً تمثيلًا قوِيًّا صادقاً ،

فهى الدليلُ الناطقُ بأَنَّ الْفَلْسَفَةَ السُّقراطية قَدْ نَجَحَتْ فيما كَانَتْ تُحاولُ مِنْ إِضْعافِ النُّظُم السياسيَّةِ القائمةِ ؛ وهى الدليلُ النـاطقُ بأَنَّ الفلاسفةَ كانوا مصيبينَ فِى فَهْمِ الحياةِ السياسيَّةِ والِاقتناعِ بأنّها سَيّئَةٌ وَبأنّها مُنْتَهِيَةٌ للكوارثِ مِنْ غيرِ شَكٍّ .

كانَ عَصْرُ أَرسْطَاليسَ عَصْرَ تَطَوُّرٍ غَرِيبٍ لَمْ يَشْهَدِ الْعالَمُ القديمُ مِثْلَهُ . وَقَدْ بَدَأَ هـذا التطَوُّرُ ضَئِيلًا ضَيِّقًا لَمْ يُجَاوِزْ شِبْـهَ جَزِيرَةِ البَلْقانِ حيْثُ أَخَذَ سلطانُ المقدونيِّينَ يَعْظُم وَيَقْوَى ويُجَاوِزُ حدودَ مَقْدُونْيا فى عَصْرِ فِيلِيبَ . وبينما كانَ سُلطانُ المقدونيِّينَ يَشْتَدُّ داخلَ مَقْـدُونْيا وَيَنْبَسِطُ خَارِجَها ، كان الفَسَادُ يَعْظُمُ ويَشِيعُ فِى الْمُدُنِ اليونانِيَّـةِ عَلى اخْتلافِ قُوَّتِها ونُظُمِها السياسيَّةِ ؛ فلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَطْمَحَ هذه

الدَّولَةُ الناشِئةُ الى السيطرةِ عَلَى هذه الُمدُنِ المشْرِفةِ عَلَى الفَناءِ . ثُمَّ لَمْ تَـكَدْ تَخْطُرُ هذه الفِكْرَةُ لِزعيمِ المقدونيِّينَ وملـكِهم فيليبَ حتَّى أَخـذَ فِي تنفيذِها ؛ وكان كُلُّ شَيْءٍ يُسَهِّلُ عَلَيه هذا التنْفِيذَ ، وكانَ للفَلْسَفةِ حَظٌّ عظيمٌ فِي تَسْهِيلِهِ ، فهى عَمِلَتْ فِي هَدْمِ النُّظُمِ السياسيَّةِ القديمةِ وأسرفَتْ فِي ازْدِرائِها حتَّى شكَّكت الناسَ فيهـا وصَرَفَتْهُمْ عنها . ثُمَّ لَمْ تكتَفِ بذلِك بلْ أخذَتْ تَدْعُو إلى تَغْيِيرِ هـذه النُّظُمِ وإِلى القَضاءِ عَلَى هذِه الحياةِ التى تَضْطَرُّ اليونانيِّينَ إِلى الخصُومَةِ والعُنْفِ وتُورِّطُهُمْ فِي الحرُوبِ المتَّصِلةِ المُهْلِكَةِ للنُّفُوسِ والأموالِ. وظَهَرَ فِي البلادِ اليُونَانِيَّةِ قومٌ يَدْعُونَ سِرًّا وَجهْراً إلى وُجُوبِ أَنْ يَقُومَ سلطانٌ قَوِىٌّ قَاهِرٌ يَبْسُطُ قُوَّتَه عَلى هذِه الأُمَّـةِ اليُونَانيَّةِ فيَضْبِطَ أُمُورَها ويُـكرِهَها عَلَى

أُحترامِ السّلْمِ فيما بينَهَا مِنْ جهَةٍ ، ويُوَجِّهَ قُوَّتَهَا الحربيةَ إلى الشَّرْقِ وإلى الفُرْسِ مِنْ جهَةٍ أُخْرَى .
ولَيْسَ مِنْ شَكٍّ فى أنَّ هَؤُلاَءِ الدُّعاةَ مِنَ الكُتَّابِ والأُدَبَاءِ والفلاسِفةِ كَانُوا مُتَّصِلينَ أشَدَّ الِاُتِّصَالِ بِقَصْرِ فِيلِيبَ ، وفى أنَّ فِيلِيبَ كَانَ يَمُدُّ أكثَرَهم بالمالِ والمَعُونةَ ويَتَّخِذُهم قُوَّةً معنويةً يُمَهِّدُ بها لقُوَّتِه الماديَّةِ الضَّخْمَةِ .
وَقَدْ وُفِّقَ فِيلِيبُ فى هذَا ، فَظَهَرَتْ فِى المُدُنِ اليُونَانِيَّةِ كلِّها أوْ أكثرِها أحزابٌ سِياسِيَّةٌ تَمِيلُ إلى مَقْدُنْيا وتَرْغَبُ فِى مُحَالَفتِهَا ومُنَاصَرَتِهَا . وكانَتْ هَذِهِ الأحزاب بِطَبِيعَتِهَا مخاصِمَةً للدِّيمُقْراطيَّةِ أو للدِّيمُقْراطيَّةِ المُتَطرِّفَةِ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ . وقَدْ تَمَّ النَّصْرُ لفِيلِيبَ فَقَهَرَ الأُمَّةَ اليونانيَّةَ وَاضْطَرَّهَا إِلى أنْ تُذْعِنَ لِسُلْطَانِه وتَنْتَخِبَهُ قائداً عامًّا لِجُيُوشِها وتُكَلِّفَهُ حَرْبَ مَلِكِ الفرس . فَلَمَّا

مَاتَ فِيلِيبُ نَهَضَ ٱبْنُهُ ٱلْإِسْكَندرُ لِتَنْفِيذِ خُطَّتِهِ ، فنفَّذَها كما تَعْلَمُ وكما سَنعْرِضُ لذلكَ في فصلٍ غَيْرِ هَذا الفَصْلِ .

وكانَ أَرسطاليسُ يونانيَّ الأَصلِ ولكِنَّهُ مقدونيُّ النَّشأَةِ : وُلِدَ في مُستعمَرَةٍ يُونانيَّةٍ قريبةٍ مِنْ مَقدُونْيا يقال لها « ستاجيرا » ؛ ولكنه نشأ في مقدُونْيا ، لأَنَّ أَباه نِيكُومَاخُوسَ كانَ طبيباً لِمَلِكٍ مِن مُلوكِها . وقد تأَثَّرَ مِنْ غَيْرِ شكٍّ بحياةِ القَصْرِ المَقدونيِّ وعاداتِ الأَشرافِ المقدونيِّينَ ، وظهرَتْ نتائجُ ذلك واضِحةً جليَّةً في حياتهِ وفلسفتِه معاً . فلمْ يكُنْ أَرسطاليسُ سُقراطيَّ السِّيَرِ ولا أفلاطونيًّا في حياتهِ ، وإِنَّما كانَ رَجُلاً عمليًّا يَعيشُ كَما يعيشُ غيرُه مِنَ الناسِ مُستمتِعاً بلذَّاتِ الحياةِ كَما يَستَمْتِعُ بها غيْرُه مِنَ النَّاسِ ، لا يُضيِّقُ على نَفْسِه ولا

يَتَكَلَّفُ زُهْداً ولا تَوَرُّعاً ولا حِرْماناً . وكانَ ، كما سترَى ، عَمَلِيًّا فى فَهْمِهِ وتَصَوُّرِهِ وحُكْمِهِ عَلَى الأَشياءِ . وليسَ مِنْ شَكٍّ فى أَنَّهُ كانَ مقدونىَّ النَّزْعَةِ السياسيَّةِ يُقَدِّرُ فَسادَ الحياةِ اليونانيَّةِ العامَّةِ كما يُقَدِّرُ قُوَّةَ مقدُونيا وقُدْرَتَها عَلَى ضَبْطِ الأُمورِ . وقد رَحَلَ إلى أَثينا حينَ بَلَغَ العِشرين فاخْتَلَفَ إلى أَساتِذَةِ البيانِ والفَلْسَفَةِ فيها ، ولكنَّهُ لازَمَ أفلاطونَ مُلازَمَةً خاصَّةً .

فُتِنَ بأفلاطونَ وفُتِنَ بِهِ أفلاطونُ أيضاً ، حتى لقد يُقالُ إنَّ أفلاطونَ كانَ يُؤْثِرُهُ وكانَ يُسَمِّيهِ القَرَّاءَ ، وكانَ يُسَمِّيهِ العَقْلَ أيضاً . وقد ظَلَّ مُلازماً لأفلاطونَ أعْواماً طِوالاً ، فَقَدْ كانَ يَخْتَلِفُ إلى الأكاديميه ويَشْتَرِكُ فى مُحاوَراتِها الفلسفيَّةِ المُخْتَلِفَةِ . فلما مَاتَ أَفلاطونُ سنةَ ٣٤٧ قَبْلَ المَسيحِ وتَفَرَّقَ نَفَرٌ مِنْ تلاميذِهِ عَنْ أَثينا

سَاحَ أَرسْطَطاليسُ فى الأَرضِ حِيناً فزارَ آسيا اليونانيَّةَ التى كانَتْ خاضِعَةً حِينئذٍ لسُلطانِ الفُرْسِ . وكَمَا أَنَّ حياتَه فى مقدُونْيا وفى البلادِ اليونانيَّةِ أَقْنعَتْهُ بضَعْفِ السُّلطانِ اليُونانىِّ وفَسَادِ أَمْرِ اليونانِ ، فإِنَّ حياتَه فى آسيا أَقنعَتْهُ بضَعْفِ الفُرْسِ وَفَسَادِ أَمْرِهِم . وَلا شَكَّ فى أَنَّ رَجُلاً ذَكِيَّ القَلْبِ رَشيداً كأَرسطَطاليسَ كانَ يُقَدِّرُ هذا الفسادَ العامَّ فى الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ، ويَرَى كَمَا كانَ يَرَى غَيْرُه مِنَ المفكِّرينَ أَنَّ الخيرَ كُلَّ الْخيرِ هو أَنْ تَقُومَ دولةٌ قَوِيَّةٌ فتَجْمَعَ كُلَّ هذِه القُوى الْمُتَفَرِّقَةِ الضَّائِعةِ وتُوَجِّهَهَا إِلى ضَبْط الأَمْرِ فى العالَمِ الْمُتَحَضِّرِ ؛ ولكنَّ حَيَاةَ أَرسطَطاليسَ لَمْ تَكُنْ فى ظاهرِ الأَمْرِ سياسيَّةً وإِنَّمَا كانَ الرَّجُلُ مُنْصَرِفاً إِلى التَّفكيرِ وإِلى البَحْثِ الفَلْسفىِّ ، وقد عادَ إِلى أُوربَّا ودَعاهُ فِيلِيبُ إِلى تَرْبِيَةِ

ابْنِهِ الإِسْكَنْدَرِ وتأديبِهِ فعَاشَ في القَصْرِ المقدونيِّ أعْواماً.
ومهْما يكُنْ مِنْ شَيءٍ ومَهْمَا تَسْكُتِ النُّصُوصُ التاريخيَّةُ
فقَدْ كانَتْ لحِياةِ أرسطاليسَ في قَصْرِ فِيلِيبَ آثارٌ
سياسيَّةٌ مُزْدَوِجَةٌ : كانَ يُشِيرُ على فِيلِيبَ، وكانَ يُكَوِّنُ
الإِسْكَندرَ تكْوِيناً مُلائمًا لأَطْوارِ العَصْرِ الَّذِي يَعِيشُ
فيه ولآمالِ فِيليبَ وآمالِ مَقْدُونْيا أيضاً .

ثُمَّ مَاتَ فِيليبُ وأخَذَ الإِسكَنْدَرُ في تَنْفِيذِ خُطَّةِ
أبيهِ ، فعادَ أرسطاليسُ إلى أثينا وأنْشَأَ فيها مَدْرَستَه
المعروفةَ بِاسمِ « لُوكايون » (Lycée) واتَّصلَتِ الرَّسائلُ
بَيْنَهُ وَبيْنَ تلميذِهِ المَلِكِ ، وكانَ المَلِكُ يُرْسِلُ إليه الأموالَ
والطَّرائفَ مِنْ آسيا مَعُونةً له على بَحْثِهِ العِلْميِّ . على أنَّ
الصِّلَةَ فَسَدَتْ آخِرَ الأَمْرِ بينَ الأُستاذِ وتلميذِه لأَنَّ
ابْنَ أُخْتِ الفيلسوفِ الَّذِي كانَ مُرَافِقاً للملِكِ اتُّهِمَ

بالِائتمارِ بالمَلِكِ ، فقتَلَه الإسكندرُ ، ونَتجَ عَنْ ذلِكَ فسادُ الأمْرِ بينهُ وبينَ أستاذِه .

ماتَ الإسكَندرُ ، وانْتقَضَ اليونانيُّون على السُّلْطانِ المَقْدُونِيِّ، ورَفعَتْ الدِّيمقْراطيةُ اليُونانيَّةُ برأسِها، وأخَذَتْ في تَتَبُّعِ المقدونيِّينَ وأنصارِهم؛ فخَرَجَ أرسطَطاليسُ مِنْ أثِينا هَارباً ، ولكنَّهُ لمْ يَلبَثْ أنْ ماتَ بعدَ سَنةٍ أو نَحْوِ السَّنةِ فِي جَزِيرة « أُبوا » سنةَ ٣٢٣ قبلَ المَسيح .

٣ — المؤرِّخون القُدماءُ والمُحْدَثون مُجْمِعونَ على أنَّ أرسْطَطاليسَ تَرَكَ مِنَ الآثَارِ الْفَلْسَفِيَّةِ شَيْئاً ضَخْماً لمْ يُسْبَقْ إلىَ مِثْلِهِ وَلا إِلَى مَا يُشْبِهُهُ، ولكنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي مِقْدَارِهذه الآثارِ اخْتِلافاً عَظِيماً جدًّا . وقَدْ لا يكونُ مِنَ الْخيرِ أنْ نَعرِضَ لهذا الِاخْتِلافِ ولا لتفصِيلِ البحثِ عَنْ كُتبِ أرسْطَطاليسَ ومَا بَقِيَ مِنْهاَ فإنَّكَ

تجدُ ذَلك مُفَصَّلاً فِي مُقَدَّمَةِ كِتاب « الْأَخلاقِ » الَّذِى تَرْجَمَهُ إِلى العربيَّةِ الأسْتاذُ أَحْمَدُ لُطفِي السَّيِّد بِكْ وفى مُقَدِّمَةِ « نِظَامِ الْأَثينيِّينَ » الَّذِى تَرْجَمْتُه أَنَا إِلى العربيَّةِ. وإِنَّما نَكْتَفِي هُنا بالإِشارةِ إِلى أَنَّ أَرسْطَاليسَ كَانَ يَنْهَجُ فِي مَدْرَسَتِهِ مَنْهَجَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ : منهجَ التَّعْلِيمِ الخاصِّ الَّذى لا يَحْضُرُه ولا يُشْتَرِكُ فيه إِلاَّ تلاميذُ المدرسةِ وأَعْضَاؤُهَا ، ومنهجَ التَّعْلِيم العامِّ الَّذِى كان مُباحًا للكافَّةِ .

وكَما أَنَّ تعليمَهُ قَدِ انْقَسَمَ إِلى هذين القِسْمَيْنِ فإِنَّ كُتُبَهُ وكُتُبَ تلاميذِه انقسمَتْ إِليْهما أَيضاً ، فكانَتْ مِنْها الكُتُبُ المَدْرَسِيَّةُ الخالِصَةُ الَّتِي أُنْشِئَتْ للمَدْرَسَةِ ولِبُحُوثِها والَّتى لَمْ يَكُن يُحْسِنُ فَهْمَهَا ولا التَّصَرُّفَ فيها إِلاَّ الَّذينَ تَعَوَّدُوا لغَةَ المدرسةِ وأَساليبَها ومناهجَها

الفَلْسَفِيَّةَ ، وكانَتْ مِنْهَا كُتُبٌ أُخْرَى سَهْلَةٌ يَسِيرَةٌ تُوضَعُ لعامَّةِ الناسِ وتُذَاعُ فِيهِمْ ؛ وهَذه الكتُبُ هي التي ذَهَبَتْ بها كلِّها أَوْ أَكْثَرِهَا أَحْداثُ الزَّمان ، أَمَّا الأُخْرَى فقد بَقِيَتْ فِي المدرسةِ ثُمَّ انتقَلَتْ مِنها وعَبِثَتْ بها الحوادثُ حيناً حتَّى استولَى « سُولا » الرُّومانيُّ عَلَى مدينةِ أَثينا فنَقَلها إلى رُومَا وقد أَصَابها فسادٌ شديدٌ.

ومِن ذلك الوقتِ أَخَذَ الفَلاَسِفَةُ فِي دَرْسِها وتصْحِيحِها وإِذاعَتِهَا ؛ وقد بَقِيَ لنا أكثرُ هذه الكتُبِ وهو يَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ . وإِذا نَظَرْنَا في جُمْلَةِ ما بَقِيَ لنا مِنْ آثَارِ أَرسْطاليسَ استَطَعْنَا أنْ نَتَصَوَّرَ بِوَجهٍ مَّا عَمَلَ مَدْرَستِهِ وعَمَلَهُ أيضاً ؛ فقَدْ يَظْهَرُ أَنَّ أَرسْطاليسَ لَمْ يَكُنْ يَقْصُرُ عَمَلَهُ كما كانَ يَفْعَلُ أفلاطونُ عَلَى الْبَحْثِ الْفَلْسَفِيِّ ووضْعِ الكتُبِ الْفَلْسَفِيَّةِ المختلِفةِ ، وإِنَّما كانَ

يَقْصِدُ إلى شَىْءٍ آخَرَ أَجَلَّ خَطَراً وأَبْعَدَ أَثَراً فى الحَيَاةِ العَقْلِيَّةِ العامَّةِ مِنْ هذا كُلِّه . كانَ يُرِيدُ أنْ تَكُونَ فَلْسَفَتُه وكُتُبُه خُلاصةً صادِقةً لِكُلِّ ما وَصلَ إليهِ العَقْلُ الإنسانىُّ مِنْ نتائجِ البَحْثِ عَنْ كُلِّ شىءٍ : كانَ يُرِيدُ أَنْ تَكونَ كُتُبُه أَشْبَهَ شىءٍ بِما نُسَمِّيهِ نَحْنُ دائِرَةَ المعَارِفِ الآنَ . ويَظْهَرُ أَنَّهُ كانَ يُقَسِّمُ الْعَمَلَ بَيْنَ أَصحابِه فيَخْتَصُّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَحْثِ وفَنٍّ مِنْ فُنونِ الفَلْسَفَةِ يَدْرُسُهُ ويَسْتَقْصِيه ويُقَدِّمُ نَتِيجةَ دَرْسِهِ إلى المدرَسَةِ ؛ ومِنْ هذِهِ النتائجِ المخْتَلِفَةِ كانَ يَتَكَوَّنُ البحثُ الفَلْسَفِىُّ العامُّ الذِى يَخْتَصِرُها ويُلَخِّصُها . يَظْهَرُ هذا ظُهُوراً قَوِيًّا فِى كِتابِ « السِّياسةِ » ؛ فَنَحْنُ نَعلَمُ أَنَّ أَرسْطَاليسَ جَدَّ فى الاستعدادِ لِهذا الْكِتاب فاسْتَقْصَى النُّظُمَ

الدُّستورية لطائفةٍ ضَخْمَةٍ جدًّا مِن المدُنِ اليُونَانيَّةِ وغَيْرِ اليُونَانِيَّةِ، واُستطَاعَ بَعْدَ هذا الِاُستقصاءِ أَنْ يَضَعَ كِتابَ « السِّيَاسةِ » الَّذِى هُو اُلْخلاصةُ العامَّةُ لِكلِّ هَذا البَحْثِ الطَّوِيلِ الدَّقيقِ . ولدَيْنا نُموذَجٌ لهذا البَحْثِ المفَصَّلِ وهُو كِتَابُ « نِظَامِ الأَثِينيِّينَ » الَّذى اسْتُكْشِفَ فى مِصرَ آخِرَ القَرْنِ الماضى والَّذِى يُمَثِّلُ لنا دِقَّةً فى الْبَحْثِ ومَهارةً فِى الِاُستقْراءِ لَمْ يَكُنْ لِلْعلْمِ بِهِما عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ .

٤ — عَلَى أَن ارسطَاليسَ يُخَالِفُ أفلاطونَ وسُقراطَ مِنْ وجْهةٍ أُخْرى ، هى نَهْجُه التَّعلِيمىُّ الخالِصُ ؛ فلَمْ يَكُنْ يَعتَمِدُ فى هَذا النَّهْجِ كمَا كانَ يَعتَمِدُ سُقراطُ وأفلاطونُ عَلَى الحْوَارِ ، ولَمْ يَكُنْ يُعْنَى كَمَا كَانَ يُعْنَى أفلاطون بالإِجَادَةِ الفَنِّيَّةِ البيَانِيَّةِ ، وإِنَّما كانَ عالِماً قبلَ كُلِّ شيءٍ ،

يَهْجُم عَلَى مَوضوعِهِ هُجوماً دونَ أَنْ يدُورَ حولَه بالْحِوارِ والْمُناقَشَةِ ، ويُعْنَى بالفِكْرةِ قَبْلَ أَنْ يُعْنَى باللَّفْظِ الَّذِى يَصُوغُها فِيهِ ؛ ومِنْ هُنَا لَمْ تكُنْ كُتُبُ أَرسطَاليسَ كَكُتُبِ أفلاطونَ نُموذَجاً فَنِّيًّا لِلْإِجادةِ البَيَانيَّةِ ، وإِنَّما هِىَ نُموذَجٌ خالِدٌ لإِجادَةِ البَحْثِ العَقْلِيِّ وإِتْقانِهِ . عَلَى أَنَّ هُناكَ وَجْهاً آخَرَ ظهرَ فيهِ الْخِلافُ بينَ أَرسطَاليسَ وبينَ أفلاطونَ وسُقراطَ ؛ فَقَدْ كانَ سُقراطُ يَتَنَقَّلُ بفَلْسَفتهِ فى شوارعِ أَثينا مِنْ حانوتٍ إِلى حانوتٍ ومِنْ مَيْدَانٍ إِلى مَيْدَانٍ ؛ ثُمَّ جاءَ أفلاطونُ فأَقرَّ تَعْلِيمَهُ الفَلْسَفِيَّ فى مَدْرَسةٍ اخْتَارَهَا لِهذَا التَّعليمِ هِىَ « الْأَكادِميه » كانَ يَعِيشُ فيهَا وَيَخْتَلِفُ إِليهِ تلامِيذُه فيَدْرُسُون ويتَحَاوَرُونَ ؛ أَمَّا أَرسطَاليسُ فقَدْ تَخَيَّرَ الْمَدرسةَ واسْتقرَّ فِيها معَ تلاميذِه كما فعلَ أفلاطونُ ، ولـكِنَّهُ لَمْ

يكُنْ يُعلِّمُ ولا يُحاوِرُ جالِساً مُسْتَقِرًّا ، وإنَّما كانَ يَمْشِي في حَدِيقَةِ مَدْرَسَتِه وَمِنْ حولِهِ أَصحابُه وتلاميذُه ، فيَدْرُسونَ وَيُحَلِّلونَ وَيَسْتَنْبِطُونَ ، فكانَ وَسَطاً في ذلكَ بينَ سُقراطَ المتَنَقِّلِ وأفلاطونَ المُسْتَقِرِّ . ومِنْ هذا المَشْيِ مَعَ أَصحابِهِ سُمِّيَتْ مدرستُه مدرسةَ المشَّائِين ، وأُطْلِقَ اسْمُ المشَّائِينَ عَلَى الذين يَنْتَمونَ إلى مذهبِ أَرسطاليسَ في الفَلْسَفةِ . ورُبَّما كانَ مِنَ الحقِّ أَنْ نُقَرِّرَ أَنَّ أَرسطاليسَ قد نَهَضَ بالفَلْسفةِ نُهُوضاً عظِيماً ، وَرَقَّاها تَرْقِيَةً بعِيدةَ الأَثَرِ ، حينَ عَدَلَ عَنْ أُسلوبِ الحِوَارِ إلى أُسلوبِ البَحْثِ المُباشِرِ المُتَّصِلِ ؛ فقَدْ يَصْلُحُ الحِوارُ في أَلْوانٍ مِنَ الفَلْسفةِ وضُروبٍ مِنَ التَّفكِيرِ ، ولكِنَّه مِنْ غَيْرِ شَكٍّ بَعِيدٌ كلَّ البُعْدِ عَنْ أَنْ يُلائِمَ البَحْثَ الفَلْسَفِيَّ العَمِيقَ عَن الطبيعَةِ ومَا بَعْدَ الطَّبيعةِ وعَنِ المَنْطِقِ

وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ فُنونُ الأَدَبِ ؛ فَهُو إِذَا صَلُحَ أُسْلوباً للبَحْثِ السِّياسيِّ والْخُلُقِيِّ لا يَصْلُحُ لغَيْرِهما . ومِنْ هُنَا كانَتْ فَلْسفةُ أَرسطَاليسَ فى الطَّبيعةِ ومَا بَعْدَ الطَّبيعةِ أَشَدَّ اُسْتِقراراً وأَقْدَرَ علَى البقاءِ مِنْ فَلْسفةِ أفلاطونَ .

٥ — ولَقَدْ أَشُقُّ ولقد أُسْرِفُ فى الإِطالةِ لَوْ أَنِّى حاوَلْتُ أَنْ أَخْتَصِرَ لكَ صُورَةً مَّا مِنْ فَلسفةِ أَرسطاليسَ. وكيفَ السَّبيلُ إِلى ذلكَ فى صُحُفٍ مَعْدودةٍ ولَمْ يَتْرُكْ أَرسطاليسُ فنًّا من فُنُونِ الفَلْسَفةِ ولا لَوْناً مِنْ أَلْوَانِ البَحْثِ الإِنسانىِّ إِلَّا عَرَضَ له وقال كلِمتَهُ فِيهِ ! إِنَّما الَّذى يَعْنيكَ مِنْ فَلْسفةِ أَرسْطاليسَ هُو أَنْ تَعْلَمَ أَنَّه الفيلسوفُ الوحيدُ الذى حاوَلَ فى العَصْرِ القديمِ أَنْ يُنَظِّمَ العِلْمَ الإِنْسَانىَّ مِنْ جِهةٍ ويَسْتَقْصِىَ قوانينَ التَّفكيرِ والتَّعْبيرِ والسِّيرَةِ العامَّةِ والخاصَّةِ مِنْ جِهةٍ أُخْرى.

فَفَلْسفتُه تدورُ عَلَى هذَيْنِ الأَمْرَيْنِ . تُرِيدُ أَنْ تعلَمَ إِلى أَىِّ حَدٍّ وصَلَ العَقْلُ الإِنسانىُّ فى القَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمَسِيحِ فى دَرْسِ مَسأَلةٍ بِعَيْنِها مِنْ مَسائِلِ الطبيعةِ أَوْ مَا بَعْدَ الطَّبيعةِ ؟ فمَرْجِعُكَ فى ذلكَ إِنَّما هُو أَرسطَاليسُ، تجِدُ فيهِ نتائجَ البَحْثِ الَّذِى سَبَقَهُ ، وَتَجِدُ فيهِ نقْدَ هذهِ النَّتائجِ ، وتَجِدُ فيهِ رَأْيَهُ الخاصَّ فى هذِهِ النَّتائجِ . ومِنْ هُنا انْقَسَمتْ فَلْسفةُ أَرسطاليسَ إِلى قِسْمَيْنِ أَساسيَّيْنِ : أَحدُهما القسمُ الَّذِى أَحْدَثَ آثارَه الطبيعيَّةَ المعْقُولَةَ ثُمَّ أَصبحَ شيئًا تاريخيًّا يَرْجِعُ إِليه الَّذِينَ يدْرُسُون تاريخَ الفَلْسفةِ وتاريخَ الحياةِ العَقْليَّةِ عامَّةً ليَسْتَعِينوا على فَهْمِ هـذا التَّاريخِ ، وهذا القِسْمُ هو المباحِثُ الَّتى تتَّصِلُ بالطَّبيعَةِ ومَا بَعْدَ الطَّبيعةِ ، فهُو يُدْرَسُ الآنَ ويُدْرَسُ دَرْسًا دقيقًا لا لِيُنْتَفَعَ بِهِ انتِفاعًا مُباشرًا فى الحياةِ العَمَلِيَّةِ ، بلْ لِيُسْتَعانَ به عَلَى

فَهْمِ العَقْلِ الإنسانىِّ ومَا نالَه من التَّطوُّرِ عَلَى اُختلافِ العُصُورِ ، ولَيْس هذَا بالشَّىءِ القليلِ . الثَّانى هو الْقِسْمُ الذى أَحدَثَ آثارَهُ الطَّبيعيةَ الْمعْقُولَةَ ، وما زَالَ يُحْدِثُها ، وسَيُحْدِثُها أَبَداً دونَ أَنْ ينالَه فى ذلكَ ضَعْفٌ أو قُصُورٌ ، أَىْ هو القِسْمُ الذى بَقِىَ وسَيَظَلُّ صالِحاً لِلبقَاءِ ، والَّذِى لَمْ يَسْتَطِعِ اُلْعقْلُ الإنْسانىُّ عَلَى رُقِيِّهِ ونُضُوجِه أَنْ يَمْحُوَهُ أَوْ يُغيِّرَ مِنْـــهُ قليلاً ، وهو كُلُّ مَا تَرَكه أَرسططاليسُ فى الْمَنْطِقِ والأَدبِ والأَخْلاق والسِّياسَةِ ؛ فقَدِ اُسْتَقْصَى أَرسططاليسُ فى الْمَنْطِقِ قوانينَ الْعقْلِ الإنْسانىِّ فى الْبَحْثِ والتَّفْكيرِ عَلَى اُختلافِ درجاتِهما وأَطوارِهما ؛ وهذه القوانينُ ثابتَةٌ لا تَتَغَيَّرُ ، ملائِمَةٌ للإنسانِ مِنْ حَيْثُ هو إنسانٌ ، لا مِنْ حَيْثُ إِنَّه شَرْقِىٌّ أَوْ غَرْبِىٌّ ، ولا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدِيمٌ أَوْ حديثٌ . وقد

يَتَطَوَّرُ الْعَقْلُ الإنسانىُّ فيَشْتَدُّ تأَثُّره بناحيةٍ من أَنْحاءِ الْبَحْثِ دونَ ناحيةٍ أُخْرى ؛ ولكنَّ هذا لا يَسْتَتْبِعُ إلغاءَ قانونٍ مِنَ الْقوانينِ الَّتى استكشفها أرسطَاليسُ وإنَّما يَسْتَتْبِعُ تقديمَ بعضِ هذه القوانينِ عَلَى بَعْضٍ ؛ فقَدْ كانَ الْقُدَمَاءُ وأَهلُ القُرُون الوُسْطى مِنَ العَرَبِ والأُوربِّيِّين يُعْنَوْن عِنايةً خاصَّةً بالقياسِ ، ويَعْتَمِدون عليْهِ فى بَحْثِهم الْفَلْسفىِّ ؛ ثُمَّ تَطَوَّرَ الْعَقْلُ وأصْبَحَتِ الْفَلْسفةُ الحديثةُ تَعْتَمِد عَلَى الِاسْتقراءِ أكثرَ مِمَّا تعتمدُ عَلَى القِياسِ . ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَرسطَاليسَ قد اسْتَكْشَفَ قوانِينَ القِياسِ وقوانينَ الِاسْتقراءِ جميعاً ، وأنَّ الفَلْسفةَ الحديثةَ إنْ عُنِيَتْ عِنَايةً خاصَّةً بالِاسْتِقْرَاءِ فهِىَ لاَ تُلْغى القِياسَ ولا تَسْتَطِيعُ أنْ تُلْغِيَهُ ، لِأَنَّه صورةٌ طبيعيَّةٌ من صُوَرِ التَّفكيرِ الإِنْسَانىِّ.

وكَمَا أنَّ مَنْطِقَ أرسطاليسَ خَالِدٌ فأَدَبُهُ خالدٌ أيضاً ،

ونُرِيدُ بهذا الأَدبِ قوانينَ الْبيانِ التى استَكْشَفَها أَرسطَاليسُ فى العِبارةِ والشِّعرِ والْخَطَابَةِ . فهذِهِ القوانينُ باقِيةٌ خالدةٌ ؛ لأَنها الصُّوَرُ الطبيعيَّةُ لتَعْبيرِ الإنسانِ عَنْ آرائهِ ، كَمَا أَنَّ قوانينَ الْمَنْطِقِ هى الصُّوَرُ الطبيعيَّةُ لتكوينِ هذهِ الآرَاءِ . ومِنْ غريبِ الأَمْرِ أَنَّ أَهْلَ الأَدَبِ الأُوربِّىِّ فى أَواخِرِ القُرونِ الوُسْطَى وأَوائِلِ الْعَصْرِ الْحديثِ ، كَانُوا يَزْعُمُون أنَّ أرسطاليسَ يُقيِّدُ القِصصَ التَّمْثيليَّةَ المحْزِنَةَ بقُيُودٍ يُقالُ هِىَ الوَحَداتُ الثَّلاثُ : وَحْدَةُ الزَّمانِ ، والمَكانِ ، والْعَمَلِ . فلمَّا وَضَعَ « كُرْنيلُ » قِصَّةَ « السيد » اشْتَدَّتْ حَمْلَةُ النُّقَّادِ عليْهِ لأَنَّهُ شَذَّ عن هذِهِ الوَحَدَاتِ ، ونَشَأَ مِنْ هذا خِلافٌ بينَ الأَدبِ القديمِ والأَحرارِ مِنَ الأَدبِ الْحديثِ كَثُرَ فيهِ القَوْلُ كَثْرَةً فاحِشَةً . ثُمَّ استُكْشِفَ أَدَبُ أرسطَاليسَ

وما كتبهُ عنِ الشِّعْرِ وعَنِ الْقِصَصِ التَّمْثيليةِ المحزنةِ ، فإذا هُوَ لَمْ يَذْكُرْ هذِهِ الوَحَداتِ ولَمْ يُشِرْ إليها ، وإذا آراءُ الأوربيِّينَ الذينَ كانُوا يُضِيفُونَ اليهِ هذِهِ الوَحَداتِ لَمْ تَكُنْ قائمةً إلّا عَلَى الْجَهْلِ وَالْوَهْمِ ، وَإذا القوانِينُ الْأَدبيَّـةُ التي استكْشَفَهَا أَرسطَاليسُ لا تَزالُ باقيةً صالحةً للبقاءِ كقوانينِ المَنطِقِ . وقُلْ شَيْئاً يُشْبهُ هذَا بالقِياسِ إلى القوانينِ السّياسيَّةِ والْخُلُقيَّةِ التي استكْشَفَهَا أرسطَاليسُ ؛ فقَدْ تَطَوَّرَتِ النُّظُمُ السياسيَّةُ وقَواعِدُ الأَخلاقِ، ولا شَكَّ في أَنَّها ستَتَطَوَّرُ، ولٰكِنَّ القواعِدَ الأَساسيَّةَ لأَرسطاليسَ ستَظَلُّ قائمةً ، باقيةً لأنّها تتبَّعُ هذا التَّطَوُّرَ وتُسَيْطِرُ عليهِ ؛ فَمهْمَا تتَغَيَّرِ الْجَماعاتُ ونظُمُها فَستَظَلُّ القاعِدَةُ السياسيَّةُ الأَساسيَّةُ هي هذا القانُونَ الذي وَضَعَهُ أرسطاليسُ ، وهو أَنَّ حُسْنَ الْحكومَةِ وقُبْحَها شَيْئانِ إضافيَّانِ

فالحُكومَةُ الحَسَنَةُ ليْسَتْ هى المَلَكِيَّة ولا الجمْهوريَّةُ أرستقراطية كانَتْ أوْ دِيمُقْراطيَّةً ، وإنَّما هى الحكُومَةُ الملائِمَةُ للشَّعْبِ : وإذاً فكلُّ حكومةٍ مَهْمَا تَكُنْ صورَتُها ، خيْرٌ إذا لاءمَتْ روحَ الشَّعْبِ ومنافِعَهُ . فأىُّ تَطَوُّرٍ اجْتماعىٍّ أوْ سياسىٍّ يَستَطِيعُ أنْ يُغَيِّرَ هذه القاعدةَ الخالِدَةَ ؟ كذلك قَدْ يَتَغَيَّرُ شُعُورُ الإنْسانِ وحُكْمُهُ عَلَى الأَشْياءِ ومَذْهَبُهُ فى قياسِ الخَيْرِ والشَّرِ ، ولكنَّ القانُونَ الخُلُقِيَّ الذى وضَعهُ أَرسطاليسُ سَيَظَلُّ خالداً لأَنَّهُ فَوْقَ التَّطوُّرِ يُدَبِّرُهُ ويُسَيْطِرُ عليْهِ . فأىُّ تطَوُّرٍ يَسْتَطيعُ أنْ يُغَيِّرَ هذا القانُونَ قانُونَ الأَوْساطِ الذى يَقْضِى بِأَنَّ الإِسْرافَ شَرٌّ ، وبأَنَّ التَّقْصيرَ شَرٌّ ، وبأَنَّ الخيرَ حقًّا إنَّما هو التَّوَسُّطُ فى الأَمْرِ ؟ وأىُّ تَطَوُّرٍ يَسْتَطِيعُ أنْ يُغَيِّرَ هذا القانُونَ الآخَرَ الَّذى استكْشَفَه

أرسطاليسُ وانتهى إليهِ العِلْمُ الحديثُ وهو أنَّ الأمْرَ في الأَخْلاقِ كالأَمْرِ في السِّياسَةِ يجبُ أنْ يَقُومَ عَلَى الإضافيَّةِ، فلَيْسَ هنَاكَ خيرٌ مطلقٌ أَوْ شرٌّ مطلقٌ لاَ ينالهما تغيرٌ أَوْ تبَدُّلٌ، وإنَّما الخَيْرُ والشَّرُّ إضافِيَّانِ يتأثَّرانِ بكلِّ مَا تتأثَّرُ بهِ الحياةُ العامَّةُ والخاصَّةُ مِنَ الظُّرُوف.

إذاً فليسَ مِنَ الحقِّ أنَّ أرِسطاليسَ فيلسوفٌ قديمٌ، وإنَّما الحقُّ أنَّه فيلسوفٌ خالدٌ مُلائمٌ لكلِّ زمانٍ ولكلِّ مكانٍ، هو — كما سَمَّاه العربُ حقًّا — «الْمُعَلِّمُ الأَوَّلُ».

٦ — وهو بحُكمِ هذا الإسْمِ قائدٌ مِنْ قادَةِ الفِكْرِ أَوْ قُلْ أَكْبَرُ قائدٍ من قادةِ الفِكْرِ. وكَيْفَ تُرِيدُ أَنْ أُثْبتَ لكَ أنَّهُ أَكْبَرُ قائدٍ من قادةِ الفِكْرِ وأَنْتَ تَعْلَمُ مَعِي أَنَّ فلسفةَ أرِسطاليسَ سَيْطَرَتْ مُنْذُ ظهورِهَا عَلَى العَقْلِ الإنْسَانيِّ القديمِ، وأَنَّ فلسفةَ أرِسطاليسَ هِي

الَّتى كان لها الأثرُ الأكبرُ فى تكوينِ العقلِ العربىِّ الإسلامىِّ . وفى وجودِ فلسفةِ العربِ وعلمِ الكلامِ عندهم ، وهى الَّتى تَغَلْغَلَتْ فى الحياةِ العَرَبيَّةِ حتَّى أثَّرَتْ فى البيَانِ العَرَبِىِّ تأثيراً قَوِيًّا ، وأَنَّ فلْسَفةَ أرسطاليسَ هِىَ الَّتى كونَتِ الْعَقْلَ الأُوربىَّ فى القُرونِ الوُسْطَى وهىَ الَّتى اتَّخَذَهَا الْعَقْلُ الأوربىُّ مَصْدراً وأَساساً لِعلْمِهِ وفَلْسَفَتِهِ فى العَصْرِ الحديثِ . بَلْ هُناكَ مِيزَةٌ يَخْتَصُّ بِهَا أَرسطاليسُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْفَلاَسفةِ القُدماءِ والمُحْدَثِينَ وهِىَ أَنَّ خُصومَهُ والمُنْتَمِينَ إلى المذاهبِ الفَلْسَفِيَّةِ والدِّينيَّةِ المُنَاقِضَةِ لفَلْسَفَتِهِ يتَّخِذُونَ فَلْسفَتَه نَفْسَها وسِيلةً إلى مُحَارَبَتِهِ : فالأَفْلاَطونِيُّونَ يَنْقُضُونَ فَلْسَفةَ أَرسطاليسَ بِنَفْسِ القواعِدِ الَّتى كَشَفَهَا أرسطاليسُ لِلْبَحْثِ والنَّقْضِ والاِسْتِدلالِ؛ وكَذَلكَ قُلْ عَنِ المَسِيحيِّينَ

وَالْمُسْلِمِينَ والْمُحْدَثِين مِنَ الفلاسِفَةِ ، كُلُّ أُولئكَ أُسْتَخدَمَ وما زَالَ يَسْتَخْدِمُ مَنْطِقَ أَرسطاليسَ لِمُخَاصَمَةِ أَرسطاليسَ . إِذاً فهذَا الِاسْمُ مِنَ الأَسْماءِ الخالدةِ الَّتى قد تَكُونُ أَشَدَّ مِنَ الدَّهْرِ قُدْرَةً عَلَى الْبقَاءِ ، إِنْ صَحَّ مِثْلُ هذا التَّعْبيرِ . ومَنْ أرادَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ قادةِ الفِكْرِ فلَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُوَفَّقَ إِلى إِجادةِ الْبَحْثِ وإِحسانِهِ إِلاَّ إِذَا عُنِيَ بِأَرسطاليسَ وفَلْسفتِهِ وأَنْزَلَهُما منْزِلَتَهُما الحَقيقِيَّةَ ، وهى الْمَنْزِلَةُ الأُولى .



اسكندر المقدونى

الاسكندر

(١) كَانَتْ قِيادةُ الْفِكْرِ إلى الشُّعَرَاءِ أوَّلَ عَهْدِ الْعالَمِ الْقَدِيم بالوُجُودِ الِاجْتماعِيِّ والسياسِيِّ ، ثُمَّ ارْتقَى هذا الْعالَمُ الْقَدِيمُ مِنَ الوِجْهَـةِ الِاجْتماعِيَّـةِ والسِّياسِيَّةِ والعَقْلِيَّـةِ ، فانتقَلَتْ قِيَادةُ الفِكْرِ مِنَ الشِّعْرِ إِلى الْفَلْسَفةِ ، وَأَصْبَحَ قادةُ الْفِكْرِ فلاسفةً ومُفَـكِّرِينَ ، بَعْدَ أَنْ كانوا أصحابَ شِعْرٍ وَخَيَالٍ . ولكنَّ هذه الفَلسفةَ نَفْسَها جَدَّتْ فِي سبيلِهـا التى سَلَـكَتْها إلى الرُّقِيِّ ، وانتهَتْ إلى ما لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَنْتَهِيَ إِليهِ ، فأَحدثَتْ فِي النُّفُوسِ شَـكًّا ، وتناوَلَتِ النُّظُمَ الْقائِمةَ بالنَّقْدِ حتى هَدَمَتْهَا ، أَوْ كَادَتْ تَهْدِمُهَا ؛ وظهرَ أَنَّها عاجِزةٌ عَنْ قِيادةِ الْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ وصلَتِ الْجماعاتُ إلى

هذا الطَّوْرِ الذى وصَلَتْ إليه فِى الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبلَ المَسيحِ ، كَما ظهَر منذُ قُرُونٍ عَجزُ الشِّعْرِ عن قِيَادَةِ الْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ تبدَّلَتِ الحياةُ الِاجْتماعيَّـةُ والسياسيَّة . ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ من أَنْ تَنزِلَ الْفَلْسَفةُ عَن سُلْطانِهَا لشىءٍ آخَرَ يَخْلُفهَا عَلَى قِيَادَةِ الْفِكْرِ وتوجيهِ الحياةِ الإِنسانيَّةِ وِجهةً جديدةً ، تُلائِمُ هـذهِ الأَطوارَ الجديدةَ الَّتى انْتهَتْ إليها الجماعاتُ . وفى الْحَقِّ أَنَّ هذا القرنَ الرَّابعَ قَبْلَ المَسيحِ كانَ عصْرَ انْتِقَالٍ عامّ تَظْهَرُ آثارُه فى جميعِ أَجْزاءِ العالَمِ القديمِ : فى الشَّرْقِ الأَسْيَوِىِّ ، وَفِى الغَرْبِ الأورُبِّى ، وفى بلادِ اليونَانِ خاصَّةً ، وشِبْـهِ جَزيرَةِ البلقَانِ بوَجْهٍ عامّ . فأَنْتَ حينَ تستعْرِضُ تَاريخَ العالَمِ القديمِ فِى هذا العَصْرِ ، لا تَجدُ إِلاَّ تَغَـيُّراً وتبَـدُّلاً فِى النُّظُمِ وأُصُولِ الْحُـكْمِ ، فِى الأَخْلاَقِ والْعَادَاتِ ، بَلْ

فى الشعورِ الدِّينىِّ نفسِهِ . أمّا فى الشَّرقِ ، فقد كانتِ الدَّولةُ الفارسيَّةُ العُظمى ، التى بسطتْ سُلطانَها على أعظمِ أمبراطوريَّةٍ عرفها تاريخُ الشَّرقِ القديمِ ، وأخضعتْ لهذا السُّلطانِ بلادَ الفراعنةِ وبلادَ البابليِّينَ والأشوريِّينَ والفينيقيِّينَ ، كانتْ قدِ انتهتْ إلى شىءٍ منَ الضَّعفِ آذنَ بأنَّ سقوطَها قدْ أصبحَ أمراً ليس منْهُ بُدٌّ : كان الفسادُ قدِ اشتملَ على مُلوكِها وزُعمائِها ، وكانَ التَّرفُ قد عبثَ بعامَّةِ شعبِها الذى كانَ مصدرَ قُوَّتِها وبأسِها ، وكانَ العِصيانُ قدْ انبثَّ فى أقطارِ الأرضِ التى خضعتْ لها ، فأصبحتْ هذه الأقطارُ ثائرةً مُضطربةً ، يطمعُ بعضُها فى استردادِ استقلالِه القديمِ ، ويخضعُ بعضُها الآخرُ لأطماعِ الحُكَّامِ والمُستبدِّينَ . وكانتِ السُّلطةُ المركزيَّةُ قدْ يئستْ مِنْ أنْ تقبضَ بنفسِها

عَلَى أَزِمَّةِ الأمْرِ ، فَلَجَأَتْ إلى أَعْدائِهَا اليُونَانِ ، تَجَنِّدُهم لحمايَةِ أَقْطَارِها ، وتَسْتَأْجِرُهم للدِّفاعِ عَنْ سُلطانِهَا . وكانَتِ الْأُمَّةُ اليونانيَّةُ ، عَلَى مَا عَلِمْتَ فى الفَصْلِ الماضى ، مِنَ الضَّعْفِ والِانحلالِ ، والفَسَادِ الخُلُقِيِّ والسِّيَاسِيِّ ، والزُّهْدِ فِي هـذهِ النُّظُمِ السِّياسيَّةِ التى أَلِفَتْهَا والتى ظَهَرَ فَسَادُهَا وعَجْزُهَا عَنْ ضَبْطِ الأُمُورِ . ولمْ تَكُنْ إيطاليَا ولا غَرْبُ أورُبَّا أقلَّ اضْطِرَاباً مِنْ بلادِ اليُونَانِ والشَّرْقِ : فَقَدْ كانَتْ مدِينةُ رُومَا النَّاهضةُ ، تَبْسُطُ سُلطَانَها الجديدَ قَليلاً قَليلاً عَلَى إيطاليَا ، وكان الجهادُ عنيفاً بينَها وبَيْنَ عناصرَ مُخْتَلِفَةٍ كانَتْ تُنازِعُهَا السُّلطانَ : كانَ الْجِهادُ عَنِيفاً بَيْنَها وبَيْنَ الْمستعْمَرَاتِ اليونانيَّةِ الإيطَالِيَّةِ ؛ وكانَ عَنِيفاً بينَها وبَيْنَ الفِينيقِيِّين مِنْ أَهْلِ قَرْطَاجَنَّةَ ؛ وكان عَنيفاً بينَها وبَيْنَ الْمُدُنِ الإيطاليَّةِ

التى كَانَتْ تَسْتَمْتِعُ بالحياةِ المُستقلَّةِ فى أَمْنٍ وسِلْمٍ، فأَصْبَحَتْ الآنَ تَرَى هـذه الحياةَ المستقلّةَ مُعرَّضَةً لِلخَطَرِ؛ ذلك إلى هذه القبائِلِ البَرْبَرِيَّةِ التى أَخَذَتْ تَنْدَفِعُ إلى بِلادِ إيطاليا وإلى غَرْبِ أُورُبَّا، والتى لَمْ تَجِدْ رُومَا بُدًّا مِنْ أَنْ تَقِفَ مِنْهـا مَوْقِفَ المُدَافِعِ المانِعِ. كلُّ شَىْءٍ فى الْعالَمِ القَدِيمِ كان يَدُلُّ فى هذا القَرْنِ الرَّابِعِ عَلَى أَنَّ الحياةَ الإِنْسَانيّةَ فِى حاجَةٍ إلى أَنْ تَتَغَيَّرَ، وعَلَى أَنَّ القُوَّةَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَظْهَرَ لِتَضْبطَ الْأَمْرَ وتَقْضِيَ عَلَى هَذِه الفَوْضَى الْعَامَّةِ.

(٢) وكانَ لهذِه القُوَّةِ المنتظَرَةِ مَرْكزَانِ، أَحدُهما قَرِيبٌ مِنَ الشَّرْقِ فى مَقْدُونيا، والآخَرُ قريبٌ مِنَ الغَرْبِ فى رومَا. ولكنَّ هذه القوَّةَ المَقْدُونيَّةَ كانَتْ، فِيما يَظْهَرُ، أَقْدَرَ عَلَى الظَّفَرِ وَأَخْلَقَ بالِانتصارِ مِنَ

القُوَّةِ الرُّومانيَّةِ ؛ لِأَنَّها كانَتْ قَرِيبَةً مِنْ مَرْكَزِ الحياةِ الأَدَبِيَّةِ والسياسيَّةِ القَوِيَّةِ : كانَتْ قَرِيبةً مِنَ اليُونَانِ شَدِيدةَ الِاتِّصَالِ بِهِمْ ، وكانَتْ قرِيبَةً مِنْ آسِيا أَيْضاً .

ولَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلى أَنْ أَذْكُرَ لكَ مَقْدونيا وتَارِيخَها ، ولاَ إِلى أَنْ أُفَصِّلَ لكَ نَهْضَتَها السِّياسيَّةَ واسْتِئْثَارَهَا بِالقُوَّةِ ، فكُلُّ ذلكَ شيءٌ لاَ يَعْنِينا الآنَ ؛ وإِنَّما الذى يَعْنِينا هُوَ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِهَا وهُو فِيلِيبُ ، قَدِ اسْتَطاعَ أَنْ يَكْسِبَ لها قُوَّةً حَرْبِيَّةً ضَخْمَةً ، واسْتطاعَ بهذه القوَّةِ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بالأَمْرِ كلِّه فى الْبلادِ اليُونَانِيَّةِ ، وأَنْ يُخْضِعَ هذه المُدنَ اليونانيَّةَ لِسُلطانٍ قَوِيٍّ حازِمٍ ، وَيقْضِيَ عَلَى مَا كانَ بينها مِنْ نِزاعٍ وخُصومةٍ ، ويُوَجِّهَ قُوَّتَها الماديَّةَ والمعنويَّةَ إِلى وِجْهَةٍ جَديدةٍ نافِعةٍ ، هى الِاستيلاءُ عَلَى الشَّرْقِ والقضاءُ عَلَى سُلطانِ الفُرْسِ فيهِ .

ولٰـكِنَّ فِيلِيبَ قُتِلَ غِيلَةً ولمَّا يَبْدَأْ تحقيقَ غايتِهِ الكُبرَى التى كانَ يَسْعَى إِلَيْها ؛ فَنَهَضَ بالْأَمْرِ بعده ابْنُهُ الشَّابُّ الإسكندَرُ ؛ واُستطَاعَ لاَ أَنْ يُحَقِّقَ غايةَ أَبِيهِ ، بَلْ أَنْ يتجاوَزَها إلى شَىْءٍ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لِفِيلِيبَ ولا لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَقْدُونيِّينَ واليُونَانِ ، بَلْ لَمْ يَخْطُرْ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ ، وهو إِخْضاعُ العالَمِ القديمِ الْمُتَحَضِّرِ كلِّهِ لسلطانٍ واحِدٍ قَوِيٍّ مُنَظِّمٍ .

لعلَّكَ تَعْجَبُ حِينَ تَرَانِى أُحَدِّثُكَ عَنِ الإِسكَنْدَرِ الفاتِحِ ، فى كِتابٍ يَبْحَثُ عَنْ قَادَةِ الفِكْرِ . ولعلَّكَ تَسْأَلُ ما بَالُ قَائِدٍ مِنْ قُوَّادِ الجيُوشِ يُخْلَطُ بهؤلاءِ الذين لَمْ يَتَسلَّطُوا إِلاَّ عَلَى العُقُولِ ؟ ولكِنِّى قُلْتُ لكَ فى أَوَّلِ هَذا الفَصْلِ إِنَّ قِيادَةَ الفِكْرِ قَدِ انْتَقَلَتْ مِنَ الشِّعْرِ إلى الفَلْسَفةِ ، ثُمَّ مِنَ الْفَلْسَفةِ إلى السِّياسةِ ، وكانَ

الْإِسْكَنْدَرُ هو الَّذِى نَقَلَها ، أَوْ قُلْ هو الَّذِى أُنتزِعَها
مِنَ الفَلْسَفة وأَقرَّها للسِّياسةِ . ولَقَدْ يكُونُ مِنَ الْحقِّ ،
ومِنَ الواجبِ أيضاً ، أَنْ يتغيَّرَ رَأْيُ النَّاسِ فِي الإِسْكندَرِ ،
وفى عَظَمَتِه ، وفى مَصْدَرِ هذه العَظَمَةِ ؛ فالنَّاسُ جَمِيعاً
يُؤْمِنُونَ بأَنَّ الإِسْكَنْدَرَ عَظِيمٌ ، ولكنَّهُم يَرُدُّونَ هذِهِ
العَظَمَةَ إِلى مَا أَحْدَثَ الْإِسْكَنْدَرُ مِنْ فَتْحٍ لَمْ يَعْرِفْهُ
التَّارِيخُ القديمُ . وكيفَ لاَ يكونُ عظيماً ذلك الشابُّ
الذى نَهَضَ بالأَمْرِ بَعْدَ أَبِيهِ ، فلَمْ يَكَدْ يَسْتَقْبِلُ الْمُلْكَ
حتَّى فَسَدَ عليهِ كُلُّ شَىءٍ ، واُضطربَ مِنْ حَوْلِهِ كُلُّ
شَىءٍ ، فإِذا جِيرانُه يُغِيرُونَ عَلَى مَمْلَكتِه مِنْ كُلِّ
صَوْبٍ ، وإِذَا حُلفاؤُهُ يَنْقُضُونَ الْحِلْفَ ويَثُورُونَ بِهِ
يُرِيدونَ أَنْ يَقْضُوا عَلَى سُلطانِهِ ؛ وإِذا هُو عَلَى حداثَةِ
سِنِّهِ وقِلَّةِ حَظِّهِ مِنَ التَّجْرِبَةِ ، قَدْ ثَبَتَ لِهذا كلِّهِ ،

فَصَدَّ الْمُغِيرَ ، وردَّ الْحليفَ إلى الوَفاءِ بالعَهْدِ ، وقَضَى عَلَى أَطْماعِ جيرانهِ ، ومَحَا آمالَ اليُونَانِ فى الاُستقلالِ ، واتَّخَذَ مِنْ خُصومهِ وأَعْدائهِ عَلَى اُخْتِلافِ أَجْناسِهِمْ ، وتَبَايُنِ أَهْوائِهِمْ ، وتَفاوُتِ حُظُوظِهِمْ مِنَ الرُّقِيِّ الْعَقْلِيِّ ، جَيْشًا ضَخْماً مُنَظّماً ، عَبَرَ بِهِ الْبَحْرَ إِلى آسِيَا . فلَمْ يَكَدْ يَظْهَرُ فِيهَا حتَّى طرَدَ الفُرْسَ مِنْ آسيَا الصُّغْرى ، ومَضَى فى طرِيقِهِ يَتْبَعُ ساحِلَ البَحْرِ حتَّى أَخْضَعَ الْبَحْرَ كُلَّهُ لسُلطانهِ ، وإِذَا هُوَ فى الشَّامِ ، وإِذا هُوَ فى مِصْرَ ، وإِذَا هُو وارثُ مُلْكِ الفَراعِنَةِ ، وإِذا هُو يُؤَسِّسُ عاصمةَ العالَمِ الْجديدِ ، وإِذا هُو يَتْرُكُ مِصرَ وَيتعمَّقُ فى آسيا ، فيَقْضى عَلَى دَوْلةِ الفرسِ ويَرِثُ عَرْشَها ، وإِذا هُو يجِدُّ فى غَزْوِهِ ويُمْعِنُ فى فَتْحِهِ ، فيَبْلُغُ الشَّرْقَ الأَقصى ، ويُوغِلُ فى الهِنْدِ إِيغالاً ، ويَرْفَعُ لِوَاءَ الحضَارةِ اليُونَانيَّةِ والأَدبِ

اليُونانيِّ فى أرضٍ لمْ تَسْمَعْ باليُونانِ مِنْ قَبْلُ ، وإذا هُو يَعُودُ إلى بِلادِ الفُرْسِ ويَسْتَقِرُّ للرَّاحَةِ فى بابِلَ ، وقَدْ وَرِثَ مُلْكَ الفَرَاعِنَةِ والبابِليِّينَ والأشُورِيِّينَ والفُرْسِ وسُلطانَ اليُونانِ والفِينِيقِيينَ ، وضَمَّ هذا كلَّهُ إلى مُلْكِ مَقْدُونيا الذى وَرِثَهُ عن أبِيه . كُلُّ ذلِكَ لَمْ يُرْضِهِ ولَمْ يُقْنِعْه ، وما كانَ اُسْتِقْرارُهُ فى بابِلَ إلَّا اُستِعْداداً لِحَرَكَةٍ أُخْرَى أشَدَّ عُنْفاً مِنَ الحَرَكَةِ الأُولى وأبْعَدَ مِنْها أثَراً ؛ فَقَدْ كان يُرِيدُ أنْ يَسْتأنِفَ السَّيْرَ فيَعْبُرَ البَحْرَ إلى إفْرِيقِيَّةَ ، ويَمْضِيَ فى طرِيقِهِ حتَّى يَبْلُغَ عَمُودَ هِرَقْلَ أوْ مَضِيقَ جَبَلِ طَارِقٍ ، فيَقْضِيَ عَلَى سُلْطَانِ الفِينِيقِيِّينَ فى إفْرِيقِيَّةَ الشَّمالِيَّةِ ، ويَبْسُطَ سُلطانَهُ عَلَى أُورُبَّا الغَرْبِيَّةِ ، ويَقْتَحِمَ هذا القِسْمَ مِنْ أورُبَّا حتى يُتِمَّ دَوْرَتَه . ويَنْتَهِيَ إلى مَقدونيا حيثُ اُبتدأ حرَكَتَه . كانَ يَسْتَعِدُّ لِهذا

كلِّه ، وكانَ زَعِيماً أَنْ يُتِمَّهُ ويُوَفَّقَ إليه ، لَولا أَنَّ الموت عاجَلَه فَوَقَفَهُ فى مُنْتَصَفِ الطريقِ

كَيفَ لا يكونُ عَظيماً هذا الشابُّ الذى فعلَ هذا كلَّه فى عَشْرِ سِنِينَ أَوْ أَقلَّ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ! نَعَمْ هُو عَظِيمٌ ، ولَمْ تُخْطِئِ الأَجْيَالُ الماضِيةُ حينَ أَضَافَتْ عظَمَتَهُ إلى هذِهِ الحَرَكَةِ العنيفةِ الخِصْبَةِ .

٣ — ولكنَّنا مَعَ ذلِك نَرَى أَنَّ عَظَمَةَ الإسكَنْدَرِ يَنْبَغِى أَنْ تُضَافَ إلى شَىْءٍ غَيْرِ هذا خَليقٍ بالْخُلودِ حَقًّا ، لِأَنَّه يتَّصِلُ بِالْعَقْلِ لاَ بالأَرْضِ ؛ فلَمْ يكُنِ الإسكَنْدَرُ قائدَ جَيْشٍ ليسَ غَيْرُ ، وإنَّما كانَ قائِدَ فِكرٍ قَبلَ كُلِّ شيءٍ ، وبَعْدَ كُلِّ شَيءٍ ، وفَوْقَ كُلِّ شيءٍ . لَمْ يفْهَمْهُ مُعاصِرُوه ، ولَمْ يَفْهَمْهُ خُلفاؤُه ، وفهمناه نحنُ ؛ ولكنَّنا لَمْ نَفْهَمْهُ بَعْدُ كما يَنْبَغِى .

عُدْ إلى الفَلسفةِ اليُونَانيَّـةِ التى أَزْهَرَتْ فِى القَرْنِ الخامِسِ وَالرَّابِعِ قبْلَ المَسيحِ ، والتى انتهَتْ بِإِفْسَادِ النُّظُمِ السِّياسِيَّـةِ اليُونَانيَّـةِ ولَمْ تُوَفَّقْ إلى إِيجادِ نُظُمٍ جَديدةٍ تَخْلُفُها ؛ عُدْ إلى هَذِهِ الفَلْسفةِ تَجِـدْهَا كانَتْ تَطْمَحُ ، قَبْلَ كُلِّ شَىْءٍ وبِدُونِ أَنْ تَشْعُرَ ، إلى تَوْحِيدِ الْعَقْلِ الإِنسَانىِّ وَأَخْـذِهِ بنظامٍ واحدٍ فى التَّصَوُّرِ والتَّفكيرِ والْحُـكْمِ . ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ إِذَا انتصرَتْ هذه الفَلسفةُ مِنْ أَنْ تتَقَاربَ الشُّعوبُ وتَتَعاوَنَ عَلَى تَوْحِيـدِ الْحَضَارةِ وتَرْقِيَتِها ، وعلى إِيجادِ نَوْعٍ إنسانىٍّ مُتَّحِدِ الْغَايَةِ مُتَشَابِهِ الوَسائلِ فى مَساعِيه . ولَـكِنْ ، ما السَّبِيلُ إلى انتصارِ هذِه الفَلسفةِ ؟ ومَا الوَسِيلَةُ إلى تحقيقِ غَايتِهَا هذهِ ؟ أَمَّا الدَّعْوَةُ والنَّشْرُ ، فَمَا كَانَ مِنْ شأنِهما أَنْ يَضْمنَا هـذا النَّصْرَ ولا أَنْ يُحَقِّقَا هذه الْغَايَةَ ، فَـكَيْفَ

تَتَصَوَّرُ انْتِشَارَ فلاسفةِ اليونانِ فى البلادِ الشرقيَّـةِ وإذاعَةَ فَلْسَفتِهم فى هذه البلادِ ، إذا لَمْ يُمَهَّدْ لذلك بإِزَالَةِ الفُروقِ السِّياسِيَّـةِ والاِجتماعيَّـةِ والاِقْتِصَاديَّةِ بينَ اليُونانِ وغيرِهِمْ مِنَ الشُّعُوبِ . فَهِمَ الإِسكندرُ هذا وجَدَّ فيه فَوُفِّقَ إليه : أَخْضَعَ العالَمَ القدِيمَ المُتَحَضِّرَ كلَّهُ لِسُلطانٍ وَاحِدٍ ، وأَزالَ بينَ شُعُوبِهِ تِلْكَ الفُرُوقَ التى أَشَرْنَا إليها آنِفاً ، وأَتَاحَ لِلْآدابِ اليُونانيَّةِ والفلسفةِ اليُونانيَّةِ أَنْ تَتَغَلْغَلَا فى أَعْمَاقِ الشَّرْقِ ، وتُؤَثِّرا فى نُفُوسِ الشَّرْقِيِّينَ ، وتَصْبُغَاها هذه الصِّبْغَةَ اليُونَانيَّةَ التى كانَتْ قَدْ أُعِدَّتْ مِنْ قَبْلُ لِتَكُونَ صِبْغَةً عَامَّةً خالدَةً لِلْعَقْلِ الإنسانىِّ كلِّه . بل لم يَكْتفِ الإِسْكندرُ بإِزالةِ هذه الفُرُوقِ السِّياسِيَّةِ وإخضاعِ العالَمِ القديمِ كلِّه لِسُلْطَانٍ واحِدٍ ، وإنَّما طَمِعَ فِى شَىْءٍ آخَرَ أَبْعَدَ مدًى

وأَعْسَرَ مُتَنَاوَلاً : طَمِعَ فِى إزَالَةِ الفُرُوقِ الْجِنْسِيَّةِ بيْنَ النَّاسِ . لمْ يَكْتَفِ بِخَلْطِ الشُّعُوبِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ، بلْ أَرَادَ أَنْ يَمْزُجَهَا ويَسْتَخْلِصَ مِنْها شَعْباً واحِداً . اُنْظُرْ إليــهِ حينَ اُسْتَقَرَّ بِبابِلَ وقَدْ أَخَذَ فى هذا المَزْجِ بالفِعْلِ ، فَبدَأَ يُزَاوِجُ بينَ اليُونَانِيِّينَ والمَقْدُونيِّينَ مِنْ جِهَةٍ ، والفُرْسِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ؛ حتَّى لقَدْ أَحْدَثَ فى يَوْمٍ واحدٍ عَشَرَةَ آلافٍ مِنْ هَذه المُزَاوجَةِ ، وأَنْفَقَ فى تَشْجِيعِ هذِهِ الْحَرَكَةِ أَمْوَالاً ضَخْمَةً ، وجعَلَ نَفْسَهُ وزُعَماءَ جَيْشِهِ قُدْوَةً لعامَّةِ الْجَيْشِ . بَلْ لمْ يَكْتَفِ بِهَذَا ، وإِنَّمَا أَزْمَعَ إحْداثَ حَرَكَةٍ عامَّةٍ ، وأرادَ أنْ يَنْقُلَ طَبقَاتٍ ضَخْمَةً مِنَ الفُرْسِ إلَى الْبَلْقَانِ ، وطَبَقاتٍ ضَخْمَةً مِنَ الْبَلْقَانِ إلى الفُرْسِ ، لاَ يُرِيدُ بهذَا كلِّهِ إلَّا مَزْجَ الشُّعُوبِ ، وإزالةَ مَا بَيْنَهَا مِنَ الْفُرُوقِ الْجِنْسِيَّةِ .

ولكنَّ الموتَ عاجَلَهُ قبلَ أنْ يَبْدَأَ فِي هذه التَّجْرِبَةِ التى لَوْ تَمَّتْ لَغَيَّرَتْ وجْهَ الأَرْضِ، وَلَحَوَّلَتْ سَيْرَ التَّارِيخِ. وسَوَاءٌ عَلَينَا أَكَانَ الإسكَنْدَرُ مُصِيباً أمْ مُخْطِئاً فى هذه الفِكْرَةِ وفى انْتِهَاجِ هذَا النَّهْجِ، وسَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوُفِّقَ أَمْ لَمْ يُوَفَّقْ؛ وإنَّمَا الشيءُ الوَحِيدُ الذى لا شَكَّ فيهِ هُوَ أنَّ الإسكندرَ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أنْ يَفْتَحَ الأَرْضَ وحدَها، وإنَّما كانَ يُرِيدُ أن يفْتَحَ معَهَا العَقْلَ، بَلْ قُلْ إنَّهُ إنَّما كانَ يَفْتَحُ الأَرْضَ تَمْهِيداً لهذَا الفَتْحِ العَقْلِيِّ؛ بَلْ لاَ تَسْتَعْمِلْ كَلِمةَ الفَتْحِ؛ فلَمْ يكُنِ الإسكندرُ فاتِحاً بالمَعْنَى الَّذِى فَهِمَتْهُ الأَجْيَالُ المختلِفَةُ: لم يكُنْ صاحِبَ حَرْبٍ وقَهْرٍ وغَلَبٍ، وإنَّما كانَ صاحبَ مَوَدَّةٍ ومَحَبَّةٍ وإخَاءٍ وتَسْوِيَةٍ بَيْنَ النَّاسِ. ولقَدْ أُسْرِفُ فِي الإطَالَةِ لَوْ أنِّى تحدَّثْتُ إليكَ بِمَا لَقِيَ الإسكندرُ فِي ذَلِكَ مِنَ

مَشَقَةٍ وَعَنَاءٍ ، فقد أنْكَرَهُ المقدونيُّونَ حتَّى ثَارُوا بِه وهو زَعِيمُهم ، وقَدْ سَخِرَ مِنْهُ اليُونَانُ ، ودَبَّرَ أُولئِكَ وهؤلاءِ المؤامَراتِ ، واُضْطُرَّ الإسكَنْدَرُ إلى أنْ يتَّخِذَ العُنْفَ وَسِيلَةً إلى قَهْرِ خُصُومِه مِنْ أَنْصَارِ القديمِ . كانَ الإسكندرُ قائدَ فِكْرٍ كما كانَ قائدَ جَيْشٍ ، وقد وُفِّقَ فى قِيادَةِ الفِكْرِ إلى مَا لَمْ يُوَفَّقْ إليهِ فِي قِيادَةِ الْجيْشِ . وهُنَا عِبْرَةٌ تارِيخِيَّةٌ يجِبُ أنْ يَتفَكَّرَ فِيهَا مَنْ يُرِيدُ أنْ يَتَّعِظَ ويُقَدِّرَ الأَشْياءَ كما هى .

ظَفِرَ الإسكَنْدَرُ فِى قِيادَتِهِ العسكريَّةِ بكُلِّ ما كانَ يُرِيدُ ، خَضَعَتْ لَهُ أقْطَارُ الأَرْضِ ، وَوَرِثَ تِلْكَ العُرُوشَ التى وَرِثَها ، وَعَبَدَتْهُ الشُّعُوبُ عَلَى اُخْتِلافِهَا . ولكنَّ هذا الظَّفَرَ لَمْ يَدُمْ ، فَلَمْ يَكَدِ الإسكندرُ يُفَارِقُ هذِهِ الحياةَ ، حتَّى تفرَّقَ أصحابُه واُخْتَلَفُوا ،

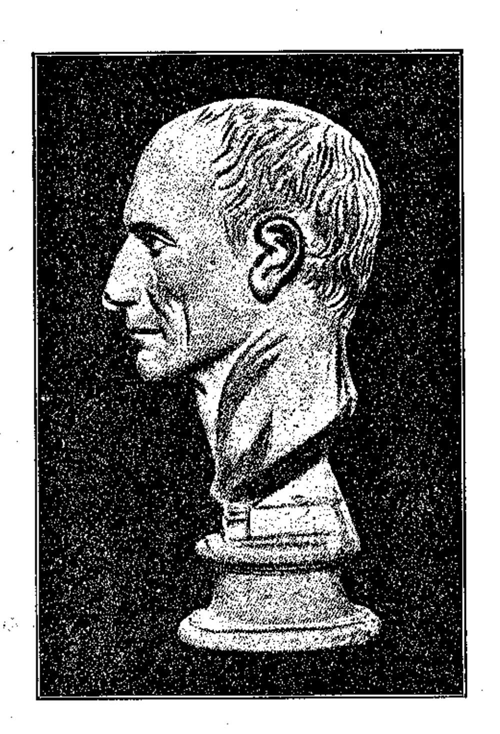
وشَبَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ ، وتَقَطَّعَ هَذا المُلْكُ ، ولَمْ يَتِمَّ تَكْوِينُ هذه الدَّوْلَةِ الَّتى كانَ يَرْمِى إليها الفاتِحُ العَسْكَرىُّ . وفَشِلَ الإسكَنْدَرُ فى قِيادَتِهِ الفِكْرِيَّةِ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ مَا كَانَ يُرِيدُ مِنْ تَوْحِيدِ الشُّعُوبِ ، والتَّقْرِيبِ بينَ الْعُقُولِ ، وَإِيجادِ حَضَارَةٍ واحِدَةٍ مُشْتَرَكَةٍ ؛ ولـكِنَّهُ ظَفِرَ بهذا كُلِّه بَعْدَ مَوْتِهِ ؛ لِأَنَّ فَتْحَهُ الْعَسْكرىَّ قد غَرَسَ هذه الفِكْرَةَ فى جَمِيعِ أَقطَارِ الأرضِ التى وطِئَتْهَا جُيوشُهُ . وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الوَقْتِ لتَسْتَطِيعَ هذِه الفِكْرَةُ أَنْ تَنْبُتَ وتَنْمُوَ وتُؤْتِىَ ثَمَرَاتِهَا . ولَمْ يَكَدْ يَنْتَهِى الْقَرْنُ الثامِنُ حتى كانَتِ الْحَضَارَةُ اليُونانِيَّةُ حضارةَ الشَّرقِ القَدِيمِ ، واللُّغَةُ اليُونانِيَّةُ لغةَ الشَّرْقِ القديمِ ؛ وحتَّى أَخَذَ الشَّرْقُ يُشَارِكُ اليُونَانَ فى آدابِهِم وفُنُونِهم وفَلْسَفتِهِمْ ؛ وحَتَّى

نَشَأَ مِنَ اُخْتِلَاطِ اليُونَانِيِّينَ والشَّرْقِيِّينَ مِزَاجٌ خَاصٌّ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَهُ وَاضِحاً جلِيًّا إِذَا دَرَسْتَ الفَلسفةَ الإِسكندرِيَّةَ، أو آدَابَ الإِسكَنْدَرِيِّينَ، أو زُرْتَ المتَاحِفَ ورَأَيْتَ هذِهِ الآثَارَ الباقيةَ التي اُشْتَرِكَ فيها الشَّرْقُ واليُونَانُ . وما لنا نَضْرِبُ الْأَمْثَالَ بِهَذِهِ الأشياءِ الَّتى لا يُتاحُ للنَّاسِ جَمِيعاً أَنْ يَشْهَدُوهَا وَبَيْنَ يَدَيْنَا مِثَالَانِ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَهُمَا مُنْكِرٌ ! : الْأَوّلُ الدِّيَانَةُ المَسِيحِيَّةُ ؛ فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدِّيَانَةُ إِلَّا نَتِيجَةً لازِمَةً لتعاوُنِ العَقْلَيْنِ الشَّرْقِيِّ والغَرْبِيِّ ، ومِثَالاً صَادِقاً لِهذَا المِزَاجِ الجَدِيدِ الَّذى نَشأَ مِنْ هذا التَّعاوُنِ ؛ ولِهذَا ظَفِرَتِ الدِّيَانَةُ المَسِيحِيَّةُ مِنَ الْفَوْزِ فى أُورُبَّا بِما لَمْ تَظْفَرْ به الدِّيانَةُ اليَهُودِيَّةُ لِأَنَّها سَامِيَّةٌ خَالِصَةٌ ، وبِما لَمْ يَظْفَرْ به الإِسلَامُ لأَنَّهُ أَعْرَقُ فى السامِيَّةِ مِنَ الدِّيانَةِ

المَسيحيَّةِ . والثَّانِي هَذَا التَّفَاهُمُ القائِمُ بَيْنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ ؛ فَمَهْمَا تكُنِ الْفُرُوقُ بَيْنَ الشَّرْقِيِّينَ والغَرْبِيِّينَ ، فهى فُرُوقٌ سِياسيَّةٌ أوِ اجتماعيَّةٌ أَوْ جنسيَّةٌ . أَمَّا الفُرُوقُ العَقْلِيَّةُ فَقَدْ مُحِيَتْ مَحْواً تامًّا ، وأَصْبَحَ الشَّرْقِيُّ والغَرْبِيُّ يفهَمانِ وَيحْكُمانِ عَلَى نَحْوٍ واحِدٍ ، فَلَيْسَ هُناكَ عِلْمٌ شَرْقِيٌّ وعِلْمٌ غَرْبِيٌّ ، ولَيْسَتْ هُناكَ فَلْسفةٌ شَرْقِيَّةٌ يَعْجِزُ الغَرْبِيُّ عَنْ فَهْمِهَا ، ولا فَلْسَفةٌ غَرْبِيَّةٌ يَقْصُرُ الشَّرْقِيُّ عَنْ إساغَتِها . كُلُّ ذَلِكَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ الإسكندرِ ، فهُوَ الَّذِى قَارَبَ بينَ الشَّرْقِ والغَرْبِ ، وَمَزَجَ العَقْلَ الشَّرْقِيَّ بِالعَقْلِ الغَرْبِيِّ . ولولاَ حَرَكَةُ الاسكندرِ هَذِهِ لَكانَتْ لِلشَّرْقِ والغَرْبِ شُؤُونٌ غيْرُ شُؤُونِهِمَا التى عَرَفَهَا التَّارِيخُ .

الاسكَنْدَرُ إذاً قائِدٌ من قَادَةِ الفِكْرِ ، بلْ هُوَ زَعِيمٌ

مِنْ زُعَماءِ قادَةِ الفِكْرِ ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ قَادةِ الفِكْرِ القُدَماءِ إِنْتَاجًا وأَكثرُهم نفْعًا . فما قِيمَةُ الفَلسفةِ اليونانيَّةِ كُلِّها لَوْ لَمْ يُتَحْ لها الإِسكَنْدَرُ ، ليُذيعَها في أَقْطَارِ الأَرْضِ وَيَبُثَّها في مُخْتَلَفِ الشُّعوب ؟



يليوس قيصر

يليوس قيصر

١ — ليسَ مِنَ اليَسِيرِ أَنْ يُذْكَرَ الإِسكَندرُ دُونَ أَنْ يُذْكَرَ قَيْصَرُ؛ فَقَدْ كانَ التَّشابُهُ بَيْنَهُما عَظِيماً، عَلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنَ اخْتلافِ الْجِنْسِ، وعَلَى ما بَيْنَ عَصْرَيْهِمَا مِنْ تبايُنٍ، وعَلَى مَا بَيْنَ الظُّرُوفِ الَّتِي أَحاطَتْ بِحَيَاتَيْهِما وبالعالَمِ القَدِيمِ في عَصْرَيْهِمَا مِنَ افْتِراقٍ. كانَ التَّشَابُهُ بَيْنَهُمَا عَظِيماً إِلى حَدِّ أَنَّ ثَانِيَهُمَا مُكَمِّلٌ لِأَوَّلِهِمَا تَكْمِيلاً شَعَرَ بِهِ القُدَماءُ أَنْفُسُهم، فَشَبَّهُوا قَيْصَرَ بِالإِسْكندَرِ، واخْتَرَعُوا في ذلِكَ أَسَاطِيرَ مُخْتَلِفَةً كثيرةً. وسَواءٌ أَكانَ قَيْصَرُ يُفَكِّرُ في الإِسكندرِ ويَتَّخِذُهُ مَثَلاً في سِيرَتِهِ ومَطامِعِه السِّياسِيَّةِ أَمْ لَمْ يَكُنْ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ في أَنَّ حَياةَ قَيْصَرَ وسِيرَته قد تَمَّمَا حَياةَ الإِسكندرِ وسِيرَته.

أرادَ الإسكندرُ أنْ يُخْضِعَ العالَمَ القديمَ كُلَّه لِسُلطانٍ وَاحدٍ سياسِيٍّ ، وأرادَ أنْ يكُونَ خُضوعُ العالَمِ لهذا السُّلطانِ السِّياسيِّ وَسيلةً إلى إيجادِ الوَحْدَةِ العَقليَّةِ فى النَّوْعِ الإنسانيِّ كُلِّه ، وإلَى إزالةِ الفُرُوقِ المُخْتلِفَةِ التى كَانَتْ تفَرِّقُ بينَ الشُّعوبِ . وقد أخْضَعَ جُزْءًا عَظِيماً جِدًّا مِنَ العالَمِ القديمِ لِسُلطانهِ ، ولم تُتِحْ له الحياةُ الوقتَ الكافِيَ لإخْضاعِ بقيَّةِ العالَمِ القديمِ لهذا السُّلطانِ : فَتَحَ الشَّرْقَ ولَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يفتَحَ الغَرْبَ ؛ بَلْ إنَّ الظُّروفَ أرادَتْ ألَّا يكونَ فوْزُ الإسكندرِ هذا مُتَّصِلاً ، فَقَدْ عاجَلَهُ الموتُ ولَمَّا يُجَاوِزْ الخامِسَةَ والثَّلاثينَ مِنْ عُمُرِهِ ، ولَمَّا يَضَعْ لِدَوْلَتِهِ الضَّخْمَةِ مِنَ النُّظُمِ والقوانينِ مَا يَكْفُلُ لَها الوَحْدَةَ السِّياسيَّةَ التى كانَ يُرِيدُ تَحْقيقَها . فمَا هِيَ إلاَّ أَن اخْتَلَفَ قُوَّادُهُ ، وتَقَطَّعَ مُلْكُهُ ، وقامَتْ عَلَى

أَنْقَاض دَوْلَتِهِ الضَّخمةِ دُوَلٌ كثيرةٌ مُخْتلِفةٌ . ومعَ هَذَا ، فَإِنَّ فَوْزَ الإِسكندرِ عَظِيمٌ ، مَثَّلْنَاهُ لكَ في الفَصْلِ المَاضِي ؛ لِأَنَّ هذِه الدُّولَ الَّتي قامَتْ عَلَى أنقاضِ دَوْلَتِهِ فِي أَقْطَارِ الشَّرْقِ ، كَانَتْ كُلُّها يُونانِيَّةً ، فقارَبَتْ بينَ الشُّعوبِ ، ووحَّدَتِ الْحَضَارَةَ الإِنسانيـةَ ، وجَعَلَتْ تَعَاوُنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ أمْراً مَيْسوراً .

وبَيْنَما كانتْ هذِه الدُّوَلُ اليُونانيَّةُ الشرقِيَّةُ تُؤَدِّى فى الشَّرْقِ هذِه الْخِدْمَةَ الإِنسانِيَّةَ القيِّمةَ ، كانَ الغَرْبُ الأورُبِيُّ الَّذى لَمْ يَسْتَطِعِ الإِسكندرُ أنْ يَصِلَ إليهِ ، خَاضِعاً لِمُؤثِّرَيْنِ مُخْتلِفيْنِ ، هَزَّاه هَزًّا عَنيفاً . وأَحْدَثا فِيهِ نَفْسَ الظَّاهِرَةِ الَّتِي أحْدَثَتْها حَرَكَةُ الإِسْكَنْدَرِ فى الشَّرْقِ : أوَّلُ هَذينِ الْمُؤَثِّرَيْنِ ، ظُهُورُ الْجمهوريَّةِ الرُّومانيَّةِ فى إيطاليا ، وانْبِسَاطُ سُلْطانِها قَليلاً قَليلاً عَلَى

شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الأيطالِيِّ ، فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ الْجُمهورِيَّةُ قُوَّةً سياسيَّةً وعسكريَّةً لَمْ يَعْهَدِ الْغَرْبُ الأُورِبيُّ مِثْلَها ، وكانَتْ نَهْضَتُها فى الغَرْبِ ، كَنَهْضَةِ مَقْدُنيا فى الشَّرْقِ ، تَمْهِيداً لِحَرَكَةٍ عَامَّةٍ ، غايَتُهـــا القَضَاءُ عَلَى الفَوْضَى والوُصُولُ إِلَى جَمْعِ أُمُورِ الشُّعوبِ الغَرْبِيَّةِ فى يَدٍ قَوِيَّةٍ حازِمَةٍ تَضْبُطُ الأمورَ . الثـانى الْجِهادُ بينَ الْحَضارةِ اليُونانيَّةِ التى كانَتْ تُمَثِّلُها الْمُسْتَعْمَراتُ اليُونانيَّةُ فى إيطاليا وفَرَنْسا وأَسْبانيا وصِقِلِّيَةَ ، والْحَضارةِ السَّامِيَّةِ التى كانَتْ تُمَثِّلُها هذه الجُمْهُوريَّةُ الفِينِيقِيَّةُ الضَّخْمَةُ فى إِفْرِيقِيَّةَ الشَّمالِيَّةِ ، وهى جُمْهُورِيَّةُ قَرْطَاجَنَّةَ . كانَ اليُونَانُ قدِ أَنْشَوا عَلَى السَّاحِلِ الايطالِيِّ والفَرَنْسِيّ والأَسبانِيِّ وفى جَزِيرَةِ صِقِلِّيَةَ ، ونَشَرُوا حَضَارَتَهُم وسياستَهم وآدابَهُم وفَلْسَفتَهم فى جَمِيعِ البلادِ الَّتى اُسْتَقَرُّوا فِيها . وكانَ

الفِينِيقِيُّونَ قدِ انْبَثُّوا فى ساحلِ إفْرِيقِيَّةَ الشَّماليَّةِ وفى أَسبانيا وفى جَزِيرةِ صِقِلِّيَةَ . وكانَ الجِهادُ عَنيفاً بينَ الْجِنْسَيْنِ ، كِلاهُما يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بسِيادةِ البَحْرِ ليَحْتَكِرَ التِّجارَةَ احْتِكاراً . ولكنَّ الطبْعَ اليُونانِيَّ الذى كانَ يَسْتَتْبِعُ الخصُومَةَ الْجزْبِيَّةَ داخِلَ الْمُدُنِ والحرُوبَ السياسيَّةَ بينَ الْمُدنِ ، أَنْتجَ فى هذَا القِسْمِ مِنَ الْغَرْبِ نَفْسَ الذى أَنْتجَهُ فى الشَّرْقِ ، فَضَعُفَ أَمْرُ اليونانِ ، وتَفرَّقَتْ جُهودُهُم ، واسْتَفَادَ الفِينِيقِيُّونَ مِنْ هذَا فِى الْغَرْبِ ، كما استفادَ الفُرْسُ مِنْهُ فى الشَّرْقِ . ونَهَضَتِ الْأُمَّةُ الرُّومانيَّةُ فى إِيطاليا لتُحَقِّقَ نَفْسَ الغَايةِ التى حَقَّقَتْها النَّهضةُ اليُونانيَّةُ فى الْبَلقانِ ، فأَخْضعَتِ الْمُدُنَ الايطاليَّةَ الْمُستَقِلَّةَ ، وقَضَتْ عَلَى سُكانِ الْمُسْتعْمَراتِ اليُونَانيَّةِ فى إِيطاليَا وصِقِلِّيَةَ ، وكَوَّنَتْ وَحْدَةً غَرْبِيَّةً

قوِيَّةً جاهَدَتِ الْفِينِيقِيِّينَ كما جاهَدَ الإسكندرُ دَوْلَةَ الفُرْسِ؛ وقَضَتْ عَلَى الفِينِيقِيِّينَ كما قَضَى الإسكندرُ عَلَى الفُرْسِ؛ وخَضَعَ الْغَرْبُ كلُّه للرُّومانِ، كما خَضَعَ الشَّرْقُ كلُّه لليونانِ. ثُمَّ لَمْ يَبْقَ بُدٌّ بَعْدَ أَنْ تَمَّ هذا كلُّه مِن أَنْ تَصْطَدِمَ القوَّتانِ الشرقِيَّةُ والغربِيَّةُ، وتفُوزَ بالسُّلطانِ أَقْدَرُهُما عَلَى الْحياةِ وأَصْلَحُهُما لِلبقاءِ. ولسْتَ فى حاجةٍ إِلَى أَنْ أُبيِّنَ لكَ فَسادَ الأَمْرِ فى الدُّوَلِ الْيُونانيَّةِ الشَّرْقيَّةِ وصَلاحَهُ فى الدَّوْلةِ الرُّومانيَّةِ الغَرْبيَّةِ؛ فأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ هذا مُفَصَّلاً فى كُتُبِ التَّاريخِ؛ وإِنَّما الذى يَعْنينا فى هذا الفَصْلِ، هو أَنْ نَقُولَ: إِنَّ القرْنَ الثَّانِيَ قَبْلَ الْمَسِيحِ لَمْ يَكَدْ يَنْقَضِى حتَّى كانَ السُّلْطانُ الرُّومانِيُّ مُنْبَسِطاً بِدَرَجاتٍ تَخْتَلِفُ قُوَّةً وضَعفاً عَلَى البِلادِ اليُونانيَّةِ فى أُورُبَّا، وعَلَى الدُّوَلِ اليونانيَّةِ فى الشَّرْقِ؛ وحتَّى كانَتْ

فِكْرَةُ الإسكندرِ — وهى تحقيقُ الوَحْدةِ السِّياسيَّةِ للعالَمِ القديمِ — قَدْ أَخَذَتْ تُسْرِعُ إلى التَّحقُّقِ وتَظْفَرُ بالوُجودِ الفِعْلِيِّ .

٢ — ولكنَّ شيْئًا واحداً كانَ يَحُولُ دُونَ تَحْقيقِ هذه الفِكْرةِ بالفِعْلِ ، وهو أَنَّ العالَمَ القديمَ ، عَلى ما أصابَهُ مِنَ التَّطَوُّرِ العَقْلِيِّ والسياسىِّ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْسَى نُظُمَهُ القَدِيمةَ ويَضَعَ لِنَفْسِه نُظُماً مُلائمةً لحياتِهِ الجديدةِ ؛ فكانَتْ بِلادُ اليُونانِ مُحْتفِظةً بحياةِ المدُنِ عَلَى النَّحْوِ القديمِ ؛ وكانَتْ دُولُ الشَّرْقِ قائمةً عَلَى نُظُمِ الدُّوَلِ الشَّرْقيَّةِ القَديمةِ ؛ بلْ كانَتْ مَدِينَةُ رُومَا نَفْسُها تَعيشُ عَلَى نِظَامِها الجُمهُورِىِّ القَديمِ ، وكانَ العالَمُ حينئذٍ مَظْهَراً لِطَائفَةٍ مِنَ التَّناقُضَاتِ الغَرِيبةِ ، لا تَكادُ تُحْصَى دُوَلُهُ ومُدُنُهُ المُسْتَقِلَّةُ . ولكنَّ هَذَا الاستقلالَ الذى

كَانَتْ تَسْتَمْتِعُ بِهِ إِنَّمَا كَانَ اُسْتِقلالاً لَفْظِيًّا لا حقيقيًّا ، لِأَنَّ السُّلطةَ الفِعْلِيَّةَ كانَتْ لِمَدِينَةِ رُوما . عَلَى أَنَّ مَدِينَةَ رُوما نَفْسَها لَمْ تَكُنْ تَسْتَمْتِعُ باستقلالِها وحُرِّيَّتِها إِلاَّ اُسْتِمْتَاعاً لَفظِيًّا ، فقد كانَتِ النُّظُمُ الْجُمْهُورِيَّةُ قائِمَةً فِيهَا ، وَلَـٰكِنَّ السُّلطَةَ الفِعْلِيَّةَ كانَتْ قَدِ اُنْحصَرَتْ فى أَيْدِى الْأَغنِياءِ يُدِيرُونَهَا كَما يَشْتَهُونَ ، ويُصَرِّفُونَهَا كَما تُرِيدُ أَطْمَاعُهُم وأَهْوَاؤُهم ، وكانَ السُّخْطُ عامًّا عَلَى هذِهِ الحالِ المنكَرةِ التى تُعْلِنُ أَنْواعاً مِنَ الِاستِقلالِ لاَ قِيمةَ لَهـا ، وتَجْعَلُ حياةَ الشُّعوبِ المُخْتَلِفَةِ إِلَى أَفْرَادٍ مِنَ النَّاسِ ، لاَ يَكادُونَ يَبلُغونَ الْأَلْفَ عَدًّا ، فكانَ الِاضْطِرابُ مُتَّصِلاً فى الشَّرْقِ ، وكانَ الْجِهادُ بَيْنَ الطَّبقَاتِ عَنِيفاً فى الغَرْبِ ، وكانَ كلُّ شَىْءٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَلَاحَ الْأَمْرِ واُسْتِقْرَارَهُ فى هَذَا العَالَمِ القَدِيمِ

لَنْ يَتِمَّ إلاَّ إِذَا تَحققَتْ بالفِعْلِ فِكْرَةُ الإسكندرِ ، وأَشرَفَ عَلَى هذِهِ الدُّولِ والمُدُنِ المُسْتَقِلَّةِ سلطانٌ قَوِىٌّ قاهِرٌ حازِمٌ يَضْبِطُ الأمورَ فيهاَ . وأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ فى تاريخِ الرُّومانِ تفْصِيلَ هذِهِ الاضطراباتِ وهذِهِ الألوانِ مِنَ الجِهادِ الذى خَتَمَ حياةَ الْجمهوريَّةِ الرُّومانيَّةِ ، وكانَ مُقَدِّمَةً لتكوينِ الأمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ .

٣ — فى هذَا الوقتِ ظَهَرَ شَابٌّ رومانىٌّ مِنْ طَبَقَةِ الأَشرافِ ، هو يُليوسُ قَيْصَرُ . ليسَ فى حياتِهِ الأُولى ما يُمَيِّزُه مِنْ غَيْرِهِ إلاَّ أنهُ كانَ مُسْرِفاً ، فاسِدَ الأَخلاقِ ، دَنِسَ السِّيرةِ ، مُبَغَّضاً إِلَى الَّذينَ كانُوا يَحْرِصونَ عَلَى الآدابِ الرُّومانيَّةِ القَدِيمةِ ، ومعَ ذلِكَ فَقَدْ كانَ داهيةً ماكِراً لاَ حَدَّ لأَطماعِهِ ، وكانَ معَ هذا كلِّه لا يَعْرِفُ حَدًّا خُلقيًّا يحولُ بينَه وبينَ المُنْكَرِ فى سبيلِ تَحْقيقِ

هذهِ الأَطماعِ . كانَ مِنَ الأشرافِ ، وكان يَزْعُمُ أَنَّ نسبَهُ يتَّصِلُ بالإلٰهَةِ « ڤِينُوسَ » ؛ ولٰكنَّهُ كانَ ذَكِيًّا ، فما أَسْرَعَ ما فَهِمَ العَصْرَ الَّذِى كانَ يَعِيشُ فيهِ ! ومَا أَسْرَعَ ما قَدَّرَ ظروفَ الحياةِ مِنْ حَولهِ ! وما أَسْرَعَ ما عَرَفَ أَنَّ الفَوْزَ السِّياسيَّ إِنَّما يُنالُ بالتَّملُّقِ إلى طَبقَاتِ الشَّعْبِ والمُبالَغَةِ فى إرضاءِ هذهِ الطَّبقاتِ ! وما هِى إلاَّ أَنْ أَخَذَ يَترَضَّى هذه الطبقاتِ ، فإذا هُو كريمٌ مُسْرِفٌ يُنْفِقُ بغيرِ حسابٍ ، يَسْتَدِينُ حَتَّى يُثْقِلَهُ الدَّيْنُ ، ولا يَدَعُ شَيْئًا يَتوَهَّمُ أَنَّ فيهِ رِضاً لطبقاتِ الشَّعْبِ إلاَّ أَقدَمَ عَلَيهِ وأَسْرَفَ فِيهِ ، وإِذَا هُوَ زَعِيمٌ يَلْجأُ إِليهِ الْفُقَرَاءُ والبَائِسُونَ وَيلْتَفُّ حَولهُ أَصحَابُ الْأَطماعِ علَى اخْتِلافِهِمْ ، وإِذَا هُوَ قُوَّةٌ يَجِبُ أَنْ تَحسِبَ لهَا الدَّولَةُ حِسابًا ، وإِذَا هُوَ يَتقَدَّمُ إلى مَناصِبِ الدَّوْلةِ فيَظْفَرُ فى الِانْتخابِ ،

وإذا هُوَ خَصْمٌ لِمَجْلِسِ الشُّيُوخِ الرُّومانىِّ يُدَافِعه ويُجاهِدهُ يُظْهِرُ نَفْسَهُ مَظْهَرَ الصَّدِيقِ للدِّيمُقْرَاطِيَّةِ ، وانْظُرْ إليه قَدْ فَازَ فى جِهَادِهِ فَتَوَلَّى حُكْمُ إقليمٍ مِنَ الأَقاليمِ الرُّومانيةِ . ولمْ يَكَدْ يَصِلُ إلى هذَا الإقليمِ فى فَرَنْسَا حتى ظَهَرَتْ مَقْدِرَتُه السِّياسيَّةُ والعَسْكَرِيَّةُ ، فَفَتَحَ فرنْسا كُلَّها وتعَمَّقَ فى أَلمانيا ، وعبَرَ البَحْرَ إلى بِرِيطانيا العُظمىٰ ؛ وأستفادَ لِنَفْسِه مِنْ هذهِ الفتوحِ ثَرْوَةً ضَخْمَةً اُسْتَعَانَ بِهَا عَلَى كَسْبِ الفُقَرَاءِ والمُصَوِّتينَ فى رُوما وإيطاليا ، كَمَا أَنَّهُ ضَمَّ إِلَى رُومَا جُزْءًا مِنَ الْأَرْضِ وَاسِعًا خِصْبًا ، وأَتاحَ لِلْحَضَارَةِ اليُونانيَّةِ الرُّومانيَّةِ أَنْ تَثْبُتَ فى أَقطارِ الغَرْبِ كمَا ثَبَتَتْ فى أَقْطارِ الشَّرْقِ . فلمَّا أُتيحَ لَهُ كُلُّ هذَا الْفَوْز، كَثُرَ خُصومُه ومُنَافِسُوهُ ، وعَظُمَتْ أَطماعُه ؛ وإِذَا مَجْلِسُ الشُّيوخِ الرُّومانىُّ يُرِيدُ أَنْ يعزِلهُ مِنْ مَنْصِبِه ؛

وإِذَا هُوَ يُمَانِعُ فى هذا العَزْلِ ؛ وإِذَا الْحَرْبُ قد شَبَّتْ بينَه وبينَ الْجُمهوريَّةِ ؛ وإِذَا هُو يَقْتَحِمُ إِيطاليا فيَظفَرُ برُوما ، وقَدْ فَرَّ خُصُومُهُ ينْصِبُونَ له الحربَ فى الشَّرْقِ . وهُنا ظَهَرَ أَنَّ قَيْصَرَ خليفةُ الإِسكندرِ حقًّا : اُنْظُرْ إِليهِ قَدْ أَخْضَعَ إِيطاليا ، ثُمَّ طَارَ إِلَى أَسْبَانيا ، فَقَضَى فِيهَا عَلَى الْحِزْبِ الْمُنَاصِرِ لخصُومِه ، وأَخضَعَ فى طريقهِ مَدينَةَ مَرْسِيليا التى كانَتْ مُسْتَعْمَرَةً يُونَانيَّةً مُسْتقِلَّةً . ثُمَّ انْظُرْ إِليهِ قَدْ طارَ إِلَى الشَّرْقِ ، فقضَى عَلَى خُصُومِه فى مَوْقِعَةِ فِرْسَالَ . ثُمَّ هُو فى مِصْرَ يَقْضِى عَلَى الْمُنَاصِرِينَ لِخصُومِه ، ويجدُ مِنَ الوقتِ ما يُمَكِّنُه مِنَ التَّدَخُّلِ فى أُمُورِ مِصْرَ ومِنَ السَّعَادةِ بِالْحيَاةِ مَعَ مَلِكَتِها « كليوبَطْرَة » . وهُوَ الآنَ فى أَسِيا يُصْلِحُ مِنْ أَمْرِهَا ويَقْضِى عَلَى الاُضطرابِ فيهَا . ثُمَّ هُوَ فِى إِفرِيقيَّةَ الشَّماليَّةِ يبْطِشُ بخُصُومه بَطْشاً

أَخيراً . ثمَّ هُوَ في أسبانيا يَقْضِي عَلَى آخِرِ مُقَاوَمَةِ خُصُومِهِ . ثُمَّ هُو في مَدِينَةِ رُوما يُعْلِنُ ظَفرَهُ وفَوْزَهُ ويَسْتَمْتِعُ بنَتَائِجِهِمَا ، وقَدْ تَمَّ لَهُ ما لَمْ يَتِمَّ للإسكندرِ مِنْ مُلْكِ العالَمِ القديمِ المُتَحَضِّرِ كلِّه .

٤ — وكانَ حظُّه خَيْراً من حَظِّ الإِسكَنْدرِ ؛ فقدِ استطاعَ أَنْ يُنَظِّمَ هــذهِ الوَحْدةَ السِّياسيَّةَ التي فَشِلَ الإِسكندرُ في تَنْظِيمِها أَوْ أَنْ يَضَعَ الأَساسَ لِهذَا التَّنظيمِ . لَمْ يَكَدْ يستقِرُّ في رُوما حتى محا السيادةَ الفِعليَّةَ للنِّظامِ الُجمهوريِّ واُستأثَرَ بالسُّلطةِ كلِّها ، فجعلَ نَفْسَهُ دِكْتَاتُوراً طُولَ حَياتهِ ، وجعلَ نَفْسَه مُقَدَّساً ، وجَعَلَ لِنفْسِه السُّلطةَ الدِّينيَّةَ العليَا ، ونَصَبَ نَفْسَه زَعِيماً للضُّعفاءِ يَحْميهم ويَحُوطُهم ؛ ولَمْ يَبْقَ إلاَّ أَنْ يتَّخِذَ لَقَبَ المُلْكِ ؛ وكأَنَّه كانَ يُريدُ أَنْ يتَّخِذَه لَوْلاَ أَنْ تَعجَّلَه

الْمُؤْتَمِرُونَ فَقَتَلُوه فى مَجْلِسِ الشُّيوخِ (مارس سنة ٤٤ قبلَ الْمَسيح)

٥ — قَتَلُوهُ وَقَدْ خُيِّلَ إِليهمْ أَنَّهُم سَيَقْضُونَ عَلى الطُّغيانِ ، ويَرُدُّونَ إلى الشَّعْبِ الرُّومانىِّ حُرِّيَّتَهُ ونُظُمَه الجمهوريَّةَ ؛ ولكنَّ الحوادثَ دلَّتْ على أَنَّهُمْ كانوا مُخْطِئِينَ وعَلَى أَنَّ الشَّعْبَ الرُّومانِىَّ قَدْ زَهِدَ فى هذِهِ الحرِّيَّةِ وَسئِمَ النُّظُمَ الْجُمْهُورِيَّةَ ، وعَلَى أَنَّ الْعَالَمَ القَدِيمَ كُلَّهُ كَانَ قَدْ نَضِجَ لتَحْقِيقِ فِكْرَةِ الإِسكندَرِ وإِيجادِ هذِهِ الوَحْدَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْعَامَّةِ التى يُشْرِفُ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ قَوِىٌّ مَتِين . كَانَ الإِسْكَنْدَرُ إِذاً صَاحِبَ الْفِكْرَةِ ، وكانَ قَيْصَرُ مُنَفِّذَهَا . ومَهْمَا يَقُلِ الْفَلاَسِفَةُ وأَنْصَارُ الْحُرِّيَّةِ ، ومَهْمَا يَكُنْ حُكْمُ التَّارِيخِ عَلَى قَيْصَرَ أَوْ لَهُ ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِى أَنهُ — بَعْدَ الإِسكندرِ — أَكْبَرُ قائِدِ

لِلفِكْرِ السِّيَاسِيِّ فِي العَصْرِ القَدِيمِ : هوَ الَّذِى أَسَّس الأَمْبِرَاطُورِيَّةَ الرُّومانِيَّةَ ورَسَمَ نِظَامَهَا ، وجَمَعَ العَالَمَ القَدِيمَ كُلَّهُ تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ ، وأَخْضَعَهُ لِنِظَامٍ سياسِيٍّ وَاحِدٍ ، ولِنِظَامٍ قَضَائِيٍّ وَاحِدٍ ، وأَعدَّهُ لِيَخْضَعَ لِنِظَامٍ دِينِيٍّ واحِدٍ أَيْضاً . والعَالَمُ القَدِيمُ مَدِينٌ لِقَيْصَرَ بِهَذَا كلِّـه . وأُورُبَّا فِى القُرُونِ الوُسْطَى مَدِينَةٌ لقَيْصَرَ بحيَاتِهَا السِّياسِيَّةِ . وحَسْبُكَ أَنَّ الأَمبرَاطورِيَةَ الأَلْمَانِيَّةَ كانَتْ تَرَى نَفْسَهَا وارِثةً للأَمبراطورِيَّةِ الرُّومانِيَّةِ التى أَسَّسَهَا قَيْصَرُ ، وكانَ رُؤَسَاؤُهَا يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُم قياصِرَةً ؛ بلْ إِنَّ أُورُبَّا مدينةٌ بنظامِها السِّياسِيِّ فِى العَصْرِ الْحَديثِ لِقَيْصَرَ . فَمَا كانَ لُويسُ الرَّابعَ عَشَرَ فِى فرنسا ، ولاَ قياصِرَةُ الأَلمانِ الذينَ كانُوا يُخاصِمُونه ، إِلاَّ مُتَأَثِّرِينَ بالنِّظَامِ القَيْصرِيِّ ؛ بَلْ لَقَدْ عَصَفَتْ بِأُورُبَّا وَبالعالمِ

الْحديثِ عاصفةُ الثَّوْرةِ الفرَنْسِيَّةِ ؛ فَمَا هِيَ إلَّا أَعْوامٌ حتَّى أَنْتَجَ النِّظامُ الْجمهورِيُّ الفرَنْسِيُّ نَفْسَ ما أَنْتَجَهُ النِّظَامُ الْجمهورِيُّ الرُّومانِيُّ ، وقَامَ نابليُونُ بُونابرتَ فى باريسَ مقامَ يُلْيُوسَ قَيصرَ فى رُومَا .

بين عصرين

١ — ظَنَّ الذين ائْتَمَرُوا بِقَيْصَرَ وقتلوه أَنَّهُمُ ائْتَمَرُوا بما كان يُمَثِّلُهُ قَيْصَرُ وقَضَوْا عليهِ. وظنُّوا أَنَّهم قد وُفِّقوا إلى ما كانُوا يَطْمَعونَ فيهِ مِنْ رَدِّ أُمورِ الْحُكْمِ إلى الشَّعْبِ، ومَحْوِ السُّلطانِ الذى كانَ يُحَاوِلُ القَضَاءَ عَلَى الرُّوحِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ. وما الذى يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَظُنُّوا ذلكَ أَوْ يُؤْمِنوا بِهِ، وقَدِ ائْتَمَرَ المُؤْتَمِرُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ بالطُّغيانِ فأَزَالوهُ، وانْتَدَبُوا لنَصْرِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وحُرِّيَّةِ الشُّعُوبِ فَوُفِّقُوا إليهِ؟ ولٰكنَّ كلَّ شيءٍ وقَعَ بَعْدَ قَيْصَرَ دَلَّ عَلَى أَنَّ هؤلاءِ المؤتَمِرين كانُوا أَصحابَ خيالٍ لا أَصحابَ تحقيقٍ، وعَلَى أَنَّهُم لَمْ يَأْتَمِرُوا بالطُّغيانِ، وإِنَّما ائْتَمَرُوا بمَا كانَ بَاقياً مِنَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، ولَمْ يَقْضُوا عَلَى الْجديدِ وَإِنَّما

قَضَوْا عَلَى القديمِ . نَعَمْ ! ودَلَّ كلُّ شَيْءٍ وَقَعَ بَعْدَ قَيْصَرَ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ كانوا قَدِ ائْتَمَرُوا مِنْ قَبْلُ بِالطُّغاةِ والطُّغيانِ إِنَّما وُفِّقُوا إِلَى الفَوْزِ لِأَنَّ نِظَامَ الطُّغْيانِ كانَ قَدْ أَضْعَفَ نَفْسَهُ وانتهى إلى غايتِهِ ، ولِأَنَّ النِّظَامَ الدِّيمُقْرَاطيَّ كانَ حَدِيثَ العَهْدِ يَكادُ النَّاسُ يَجْهَلُونَهُ ، ولكنَّهُم مَعَ ذلكَ يُحِبُّونه ؛ بَلْ قُلْ إنَّهُم كانوا يُحِبُّونَهُ لأَنَّهُم يَجْهَلُونَهُ . وكانَ هذا النِّظامُ الدِّيمقراطيُّ يُرِيدُ أَنْ يَعُمَّ ويَسُودَ ، فلا يَحُولُ بينَه وبينَ ما يُرِيدُ إِلَّا هٰذا النِّظَامُ العَتيقُ : نظَامُ الطُّغيانِ واستئثارُ الأفرادِ والأَقلِّيَّاتِ بالأَمْرِ ؛ فلمَّا أُزِيلَ هٰذا النِّظَامُ العَتيقُ ، خَلَتِ الطَّرِيقُ للجَديدِ ، فظَهَرَ وانتصَرَ وسَيْطَر على العُقولِ والعَواطِفِ وفُروعِ الحياةِ العَمَلِيَّةِ . أَمَّا فى عَصْرِ قَيْصَرَ فقد كان الأَمْرُ عَلَى عَكْسِ هٰذا : كان الناسُ قد سَئِمُوا

الْحرِّيَّةَ ، أَو قُلْ كانَ النَّاسُ قَدْ ضاقُوا بِهذه الْحُرِّيَّةِ ذَرْعًا ؛ لِأَنَّهُم عَجَزُوا عَنِ النُّهُوضِ بِأَعْبائِهَا فلَمْ يَنْتَفِعُوا بِها ولَمْ تَنْتَفِعْ بِهم . وكان النِّظَامُ الديمقراطىُّ القديمُ قَدْ أَصْبَحَ عَتِيقاً مَمْلُولًا ، لاسُلْطَانَ لهُ على النُّفُوسِ ولَا تأْثِيرَ لهُ فِى القُلوبِ . وكانَ اُخْتِلَاطُ الشُّعُوبِ واشْتِدَادُ الصِّلَةِ فيما بينَها قَدْ أَثْبَتَ عَجْزَ النظَامِ الدِّيمُقراطىِّ القديمِ عَنْ سِيَادةِ العالَمِ وضَبْطِ أموره . وكان العالَمُ فى حاجَةٍ شديدةٍ إلى مَنْ يَسُودُهُ ويَضْبُطُ أُمورَهُ فى حَزْمٍ وعَزْمٍ . وكانَ قَيْصَرُ هذا السيِّدَ الحازِمَ العازِمَ الذى أُتِيحَ له أَنْ يُزِيلَ أَنقاضَ القديمِ ، ليُتِيحَ للجَديدِ أَنْ يَظْهَرَ ويَظْفَرَ ويَسُودَ . لذلِكَ لَمْ يُحْسِنِ الْمُؤْتَمِرُونَ بقَيْصَرَ إِلَى الدِّيمُقْراطِيَّةِ ، وإِنَّما أَسَاءوا إِليْهَا ، وتَعَجَّلُوا قضاءَ اللهِ فيهَا . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ جِسْمَ قَيصرَ لَمْ يَكَدْ يُدَسُّ فى التُّرَابِ حتَّى

كانَ أَنْصَارُهُ والمشيّعُون لَهُ أَكْثَرَ مِنْ خُصُومِهِ والسَّاخِطِينَ عَلَيْهِ ، وَحتَّى اُضْطُرَّ الَّذين اُئْتَمَرُوا بِه وقَتَلُوه أَنْ يَفِرُّوا بِدِيمُقْرَاطِيَّتِهِم وحُرِّيَّتِهِم إِلَى مَكانٍ بَعِيدٍ . وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الذينَ نَهَضُوا بالْأَمْرِ بَعْدَ قَيصرَ مَا زَالُوا بِهؤُلاءِ المُؤْتَمِرِينَ حتَّى ثَأَرُوا مِنْهُم لقَيصرَ ، وأَنَّهُم بَعْدَ أَنْ فرَغُوا مِنْ هَؤُلاءِ المؤتَمِرِين اُنْقَسَمُوا على أَنْفُسِهِم ، واُضْطُرُّوا إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْجِهَادِ كلَّفَتِ العَالَمَ رِجالًا وأَمْوالًا ، وجَشَّمَتْهُ خُطُوبًا وأَهْوَالًا ؛ واُنْتَهَتْ آخِرَ الْأَمْرِ إِلَى حيثُ كانَ قَيْصَرُ قَدِ اُنتهى مِنْ تَثْبِيتِ سلْطانِ الفَرْدِ مِنْ ناحيةٍ ، وجَمْعِ الشَّرْقِ والغَرْبِ تحْتَ هَذا السُّلطانِ مِنْ ناحِيةٍ أُخْرى ، واُسْتِقْرَارِ أُغُسْطُس حَيْثُ كَانَ اُسْتَقَرَّ خالُه قَيْصرُ .

كلُّ هٰذه الأَحداثِ الَّتى أُلَمِّحُ إليها تَلْمِيحًا ، تَدُلُّ

دَلالةً واضِحةً قَوِيّةً ، عَلَى أَنَّهُ كانَ قدْ آنَ لِقيادةِ الفِكْرِ أَنْ تَنْتَقِلَ مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْرٍ ، ومِنْ يَدٍ إلى يَدٍ . وفى الْحَقِّ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَنْظُرُ فى التاريخِ مُنْذُ ابْتِداءِ عَصْرِ القياصِرَةِ حتَّى تَسْتَيقِنَ أَنَّ شَيْئَيْنِ قَدْ فَشِلا فَشَلاً مُطْلَقًا ، وآنَ أَنْ يَقُومَ مقامَهما شيْئان آخَرانِ : فأَمَّا الشَّيْئَانِ اللَّذَانِ فَشِلا فهُمَا الدِّيموقراطيَّةُ والفَلْسَفةُ . وأَمَّا الشَّيْئَانِ اللذانِ قُدِّرَتْ لهُمَا السِّيادةُ وكُتِبَ لهُمَا الفوْزُ ، فهُمَا الأُوتُقْراطيَّةُ والدِّينُ . وقَدْ يكُونُ مِنَ الحَقِّ والصَّوَابِ أَيْضاً أَنْ نَقُولَ إنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَدُلُّ فِى ذلك الوقتِ عَلَى أَنَّ الغَرْبَ قد فشِل ، وعَلَى أَنَّ الشَّرْقَ قد قُدِّرَ له الفَوْزُ والِانتصارُ ؛ ومعَ ذلكَ فَقَد كانَ الغرْبُ مُنْتَصِراً والشَّرْقُ مُنْهَزِمًا ؛ أَلَمْ تكُنْ جُيوشُ الرومانِ قَدْ وَطِئَتْ أَقطارَ الشَّرْقِ وَأَخَذَتْ

تَسْتَعْمِرُه وتَسْتَذِلُّه ؟ أَلَمْ يكُنْ أُغُسْطُسْ قد محَا استقلالَ آخرِ البلادِ الشَّرْقيَّةِ المستقِلَّةِ وهى مِصْرُ ؟ كانَ الغَرْبُ مُنتصِراً مِنَ الوِجْهَةِ العَسْكَرِيَّةِ ولـكِنَّ الشَّرْق كانَ يَنْتَصِرُ مِنَ الوِجْهَةِ العَقْلِيَّة والشُّعورِيَّةِ . أَتَظُنُّ مِنَ المصادَفَةِ المُطْلَقَةِ أَنْ تَنشأَ الأَمبراطوريَّةُ فِي رُوما ويَثْبُتَ سُلطانُها فى نَفْسِ الوَقْتِ الَّذى يَظْهَرُ فِيهِ الدِّينُ المَسِيحِىُّ فِي الشَّرْقِ وتبْدَأُ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ ؟ وهَلْ كَانَ النِّظَامُ الأَمْبرَاطُورِىُّ فِي الغَرْبِ إلاَّ نحْواً مِنْ نِظَامِ المُلْكِ الشَّرْقِيِّ ؟ لقَدْ عرَضْنَا أَمَامَكَ فِي الفُصُولِ الماضِيَةِ أَلْوَانَ الْحياةِ اليُونانيَّةِ الرُّومَانيَّةِ ، وَصُوَرَ الْحُكْمِ فى هذهِ الحياةِ ، فَما رَأَيْتَ فِيماَ عَرَضْنَا عَلَيْكَ نِظَاماً أُوتُقْراطِيًّا صَحِيحاً ، وَإِنَّما رَأَيْتَ حُكْماً مُقيَّداً يَنْتَقِلُ بَيْنَ المَلَكِيَّةِ والأَرستُقْراطيَّةِ والدِّيمُقراطيَّةِ ، ولـكنَّهُ

مقيَّدٌ دَستوريٌّ عَلَى كُلِّ حالٍ . وَرأيتَ فيما عَرَضْنَا عليكَ أَنَّ اليونانَ والرُّومانَ لَمْ يعْرِفوا نِظامَ الدُّوَلِ الضَّخْمَةِ والأَمْبراطورِيَّاتِ الواسِعَةِ فى أُورُبَّا ، وَإِنَّما عَرَفوا فى جَميعِ أَطوارِهِمْ نِظَامَ المُدُنِ الصَّغيرةِ المُنْفَصِلةِ المُسْتَقِلَّةِ ، التى تَأْتَلِفُ مِنْ حينٍ إلى حينٍ ولَـكِنْ كَما يَأْتَلِفُ الأَحرارُ المُتحالِفونَ ، ورأيتَ كَيفَ فَشِلَ الإِسكندرُ حينَ أَرَادَ أَنْ يُحقِّقَ النِّظَامَ الأُوتُقْرَاطىَّ ويُكوِّنَ مِنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ دَولَةً تَخْضَعُ لِهَـذَا النِّظامِ . أَمَّا الآنَ ، فَقَدْ كانَ نِظامُ الْحُـكْمِ الْمُقَيَّدِ قَدْ فَشِلَ ، وكانَ نِظامُ المدُنِ الْمُنفَصِلةِ قد فَشِلَ أَيْضاً ، وكان الاتِّصالُ بينَ الشَّرْقِ والغَرْبِ قَدْ قَوِىَ واشْتَدَّتْ أَوَاصِرُهُ وأَخذَتْ تَظْهَرُ نتائجُه ، فمَا الَّذى يَمْنَعُ قياصِرَةَ الرُّومانِ أَنْ يَحْـكُمُوا العَالَمَ كَما كَانَ يَحْـكُمُ الفَرَاعِنَةُ فى مِصرَ

والمُلوكُ في بِلادِ الفُرْسِ ؟ عَلَى أَنَّ انتِصارَ الشَّرْقِ ، عَلَى وُضُوحِهِ وظُهورِه ، لَمْ يَكُنْ كامِلاً مَوْفوراً . ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يَتِمَّ الجِهادُ وتَنْتَهِيَ التَّجْرِبَةُ إلى أَقْصاهَا ويَنْهارَ النِّظامُ الغَرْبِيُّ القَديمُ أمامَ النِّظامِ الشَّرقيِّ الجَديدِ. ولَمْ يَكُنْ ذلِكَ مَيْسُوراً إلاَّ بعدَ أنْ يَمْضِيَ وَقْتٌ طَويلٌ يَزْدادُ فيه الاتِّصالُ بيْنَ الغَرْبِ والشَّرْقِ شِدَّةً وقُوَّةً . ومهمَا يكُنْ مِنْ شَيْءٍ ، فقَدْ فازَ قَيْصَرُ ومذْهَبُهُ وانْخَذَلَ النِّظامُ الجُمهوريُّ وأنْصارُه . ولَمْ يَكُنْ فَشَلُ الفَلْسَفةِ بأقَلَّ مِنْ فَشَلِ هذَا النِّظامِ السِّياسيّ . وكيفَ لا تَفْشَلُ وقد كَثُرَ الفلاسِفةُ حتى جَاوَزُوا الإحصاءَ ، وكَثُرَتْ مذاهِبُهم واشْتَدَّ بينَها الخِلافُ والتَّقاطُعُ ، وعَجزَتِ الفَلْسفةُ ومذَاهبُها عَنْ أنْ تُحقِّقَ للنَّاسِ ما كانوا يُرِيدون أوْ بَعْضَ ما كانوا يُرِيدونَ ؟ وأيْنَ هي

آثارُ سُقْراطَ وأفلاطونَ وأرسطَطاليسَ فى الحياةِ السياسيَّةِ والاِجتماعيَّةِ ؟ ألَمْ تحتَفِظِ المدُنُ اليونانيَّةُ التى كانتْ تُدْرَسُ فيها هذه الفَلسفَةُ بنُظُمِها القديمةِ التى اُنْدَفعَتْ بها إلى الفَوْضى والاِضطرابِ ، وقادَتْها إلى الذِّلَّةِ والْخُضُوعِ ؟ وهَلْ تُرِيدُ دليلاً عَلَى فَشَلِ الفَلسفةِ مِنَ الوِجْهة النَّظرِيَّةِ الخالِصةِ أكثرَ مِنْ هذا الخِلافِ بيْنَ الفلاسفةِ ، ومِنِ اُضطِرارِ فَريقٍ مِنْهُمْ إلى أنْ يَستأْنِفُوا الشَّكَّ فى كُلِّ شَىْءٍ كما كانَ يَشُكُّ السوفِسطائِيَّةُ فى القَرْنِ الخامسِ قبلَ المَسيحِ ، واُضطرارِ فريقٍ آخَرَ إلى أنْ يَنْصرِفَ عَنِ الفَلْسَفَةِ النَّظرِيَّةِ إلى الفَلسفةِ الْخُلقيَّةِ ، واُضطرارِ نَفَرٍ مِنْ هؤلاءِ إلى أَنْ يَزْهَدُوا فى اللَّذةِ ، ونفَرٍ آخرِينَ إلى أَنْ يَتهالَكوا علَيْها ؟ عَجزَتِ الفَلْسفةُ إذاً عَنْ إرضاءِ الْحاجاتِ السِّياسيَّةِ

للنَّاسِ ، كما عَجَزَتْ عَنْ إرضاءِ العَقْلِ والشُّعُورِ . فلمْ يكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تنزِلَ عَنْ قِيادَةِ الفِكْرِ ، ولَمْ يكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يتوَلَّى الدِّينُ هذِهِ القِيادَةَ . وأَىُّ دِينٍ هذا الَّذِى يجِبُ أَنْ يَخْلُفَ الفَلسفةَ عَلَى قيادةِ الفِكْرِ ؟ ليسَ هو الدِّينَ الوَثَنِىَّ القديمَ ، فقَدْ جَدَّتِ الفَلسفةُ فى هَدْمِ هـذَا الدِّينِ ووُفِّقَتْ إلى تَشْكِيكِ النَّاس فِيه ؛ وقَدْ عَجَزَ الغَرْبُ عَنْ أنْ يَسْتَبْدِلَ بهذَا الدِّينِ الوَثَنِىِّ دِيناً جَدِيداً يَستمسك به ، واُضطرَبَ الغَرْبُ بين هذِه الوَثَنِيَّةِ المُضحِكةِ ، وبَيْنَ إباحِيَّةٍ هادِمةٍ لـكُلِّ شَىْءٍ مُقوِّضَةٍ لـكُلِّ سُلطانٍ . وإذاً فلِمَ لا يَنْتَشِرُ فى الغَرْبِ دِينٌ شرْقِىٌّ كما اُنْتَشَرَتْ فى الغَرْبِ سياسيَّةٌ شرقِيَّةٌ ؟

٢ — كانَ هذا كلُّه ظاهراً بَيِّناً فى العَصرِ الذى

وَلِيَ أَيَّامَ قيصرَ ، ولكنَّه مَع ذلك لَمْ يتَحقَّقْ إلاَّ بَعْدَ جِهادٍ طويلٍ عَنيفٍ . فقـدْ ناضَلَ القديمُ فأَحْسَنَ النِّضالَ : لَجَأَتِ المُدُنُ الْجمهوريَّةُ الى مجلس الشُّيوخِ فى رُوما ، فناضَلَتِ القياصِرَةَ ما أُتِيحَ لهَا النِّضالُ ، وَلجأَتِ النُّظُمُ الوَثَنِيَّةُ إلى مجلِس الشُّيوخِ وقُصُورِ القَياصِرَةِ ، فجَاهدَتِ المَسيحيَّةَ ما أُسْتَطاعَتِ الْجهادَ . ولكنَّ القرنَ الثالثَ للمَسيحِ لَمْ يَبْلُغْ آخرَهُ ، حتَّى كانَ إنتصارُ الشَّرْقِ عَلَى الغَرْبِ تامًّا شامِلاً . فأَمَّا آثارُ النِّظامِ الْجمهوريِّ فمُحِيَتْ مَحْواً . وأَمَّا القياصرةُ فقَدْ أَصْبَحُوا فرَاعِنَةً يُعْبَدُونَ فى العالمِ كلِّهِ ، عَلَى نَحْوِ ما كانَ يُعْبَدُ الفَرَاعِنَةُ فى مِصْرَ . وأَمَّا الوَثَنِيَّةُ فَقَدْ كانَتْ تُنْفِقُ أَقْصَى ما تَمْلِكُ مِنْ عُنْفٍ لتَحْتَفِظَ بالبقَاءِ ، ولـكنَّ البَقاءَ لمْ يكُنْ قدْ قُدِّرَ لهَا . وإذا القرنُ الرابعُ قدِ

انتصف، وإذا المسيحيّةُ هي الدّيانةُ الرّسميّةُ للأمبراطورية الرّومانيّة كلّها، وإذا المسيحيةُ تضطهدُ الوثنيّةَ بعدَ أنْ كانت الوثنيّةُ تضطهدُها، وإذا الشّرقُ قد سيطرَ على الغربِ بنُظُمِهِ السّياسيّةِ ومُيُولِه الدّينيّة.

٣ — وأنتَ تعفيني طبعًا مِنْ أنْ أتحدّثَ إليكَ عَنِ المسيحِ كما تحدّثتُ إليكَ عَنْ سُقْراطَ وأفلاطونَ والإسكندرِ وقيْصرَ. فليسَ المسيحُ في حاجةٍ إلى أنْ تُدْرَسَ شخصيّتُهُ وآثارُهُ وقيادتُه للفكْرِ في فصلٍ مُوجَزٍ كهذَا الفصْلِ، أوْ كِتابٍ مُجْمَلٍ كهذَا الكِتابِ.

هناكَ شيءٌ لا سَبيلَ الى الشكِّ فيهِ؛ وهُوَ أنَّ المسيحَ قد قادَ الفِكْرَ الإنسانيَّ دَهْراً. وقد لقِيَتْ قيادتُه للفِكْرِ صِعاباً أزالَتْها، وعِقاباً ذلّلَتْها، وأُتيحَ لَها أن تَسْتأثِرَ وحْدَها بالسُّلطانِ في الشّرْقِ والغرْبِ حِيناً،

ولكنَّ هذا الحِينَ لمْ يَتَّصِلْ . وقَدْ أَخْرُجُ عمَّا رسمتُه لِنَفْسِي إنْ حاوَلتُ أنْ أُفَصِّلَ الأَسبابَ التى حالَتْ بينَ الدِّينِ المَسيحىِّ وبينَ الِاحتِفاظِ بمَا كانَ قَدْ وَصَلَ إليهِ مِنْ سَيْطَرَةٍ عَلَى العالَمِ القديمِ كلِّه أَوْ أَكْثرِه . وإنَّما أُلاحِظُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ الْمَسِيحىَّ هُوجِمَ فى وَقْتَيْنِ مُتقارِبَيْنِ ، مِنْ ناحِيَتَيْنِ مُتَباعِدَتَيْنِ . وقد أُتيحَ لهُ الِانتصارُ فى إِحدى هاتَينِ النَّاحِيتينِ ، وقُدِّرَ له الِانقباض فى النَّاحيةِ الْأُخرَى .

لَمْ يَكَدْ ينتَصِرُ فى الغَرْبِ حتى أَخذَتِ القبائلُ الوَثنِيَّةُ الْمُتَبَرْبِرَةُ تُهاجِمُ العالَمَ الرُّومانىَّ القديمَ . وقدِ اسْتطاعَ الدِّينُ الْمَسيحىُّ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى هذهِ القبائلِ الْمُهاجِمَةِ ويُظِلَّها بِلوائهِ شَيْئًا فَشَيئًا ، حتَّى سلَّمَتْ لهُ أُورُبَّا . ولكنَّهُ بينَما كانَ يسُودُ فى أُروبَّا ويبسُطُ لِواءَهُ

عَلَى هؤُلاءِ الوَثنيِّينَ قلِيلاً قلِيلاً ، كانَتْ حركَةٌ أُخْرَى تَحْدُثُ فى آسيا ، فى هذِه الصحراءِ العرَبيَّةِ التى لمْ يَكَدْ يُظِلُّهَا القَرْنُ السابِعُ للمَسيحِ حتى كانَتْ كلُّها مَائِجَةً بظُهورِ الإِسلامِ . ولمْ يَكَدْ يَنْتَصِفُ عَلَيها هذَا القَرْنُ حتَّى كانَتْ قَدْ دَفَعَتْ بأَهلِها فى أَقطار الأَرْضِ المجَاورةِ ، فإِذَا هُمْ يفْتَحُونَ ويُمْعِنُونَ فى الفَتْحِ وينْشُرُونَ دينَهُمُ الْجديدَ ؛ وإِذَا الْمَسيحيَّةُ تَنْقَبِضُ أَمامَهم فى الشَّرْقِ كمَا يَنْقَبِضُ أَمامَهم النِّظَامُ السِّياسىُّ القَيْصَرىُّ أيضاً . ولستَ فى حاجةٍ إِلى أَنْ أُفَصِّلَ لكَ الصِّراعَ بيْنَ الإِسلامِ والْمَسِيحيَّةِ ولستَ فى حاجةٍ إِلَى أَنْ أَذكرَ لكَ أَنَّ ظُهورَ الإِسلامِ ، مع أنَّهُ قَدِ احتفَظَ للدِّينِ بقيادةِ الفِكْرِ الإِنسانِىِّ ، قَدْ قُسِّمَتْ بهِ هذِه القيادةُ بينَ دِينَيْنِ . فأَمَّا أَحدُهما فاسْتأْثَرَ بهَا فى الشَّرْقِ وهُوَ الإِسلامُ ، وأَمَّا الآخرُ

فاستأثر بها في الغرب وهو المسيحية .

٤ — وقد استقر الدينان كل في موضعه مع انبساط وانقباض من حين إلى حين؛ وتمت لهما قيادة الفكر عصوراً لا يكاد ينازعهما فيها منازع .

وإذا تبينت أمر الفلاسفة الذين ظهروا في الشرق والغرب في ظل الإسلام والمسيحية، وتبينت حظوظهم المختلفة من نعمة وبؤس ومن سعادة وشقاء، وتبينت أسباب هذا كله، فأنت مضطر إلى أن تلاحظ أن هذه الأسباب متشابهة وإن اختلفت أطوارها وبيئاتها وأنها راجعة كلها أو أكثرها إلى فهم الناس للدين والفلسفة أكثر من رجوعها إلى الدين والفلسفة في نفسهما ؛ راجعة إلى مقدار ما كان للناس من علم يعظم معه نصيبهم من حرية الرأي، أو جهل

يَضْعُفُ معَه نَصِيبُهم مِنْ هذِه الْحُرِّيَّةِ .

ومِنْ غَرِيبِ الأَمْرِ أَنَّ ما يُسَمِّيهِ النَّاسُ اُضْطِهاداً لِلفَلْسَفَةِ فِي ظِلِّ الإِسلامِ أَوِ المَسِيحِيَّـةِ لَمْ يَحْدُثْ إِلَّا مِنْ قَوْمٍ كانَ جَهْلُهُم بِالإِسلامِ والمَسيحيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِهمْ بِهِمَا ، وكَانَ تَعَصُّبُهُمْ لِلمنَافِعِ والأَطْمَاعِ أَشَدَّ منْ تَعَصُّبِهم للدِّينِ . مَاذَا نَقُولُ ؟ بَلْ مِنْ غَرِيبِ الأَمْرِ أَنَّ اُضطِهادَ الفَلسفةِ هَذَا لَمْ يَحْدُثْ فى ظِلِّ الإِسلامِ والمَسيحيَّةِ وَحدَهُما بَلْ حَدَثَ فى ظِلِّ الوَثَنِيَّةِ أَيْضًا ولِنَفْسِ الأَسْبَابِ الَّتى أَحْدَثَتْهُ عِنْدَ المُسلمين والمَسيحيِّينَ ، وَهِىَ الْجَهْلُ مِنْ ناحِيةٍ ، والمَطَامِعُ والمَنَافِعُ مِنْ ناحِيةٍ اخْرَى . ولقَدْ يَكُونُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اُضْطِهادَ اُبْنِ رُشْدٍ عِنْدَ المُسْلِمِينَ ، وتَحْرِيقَ مَنْ حُرِّقُوا عِنْدَ المَسيحِيِّينَ أَلاَّ يَنْسَوْا مَقْتَلَ سُقراطَ وَهَرَبَ

أرسْطَاليسَ عِنْدَ الوَثنيِّينَ ، وألاَّ يَنسَوْا أنَّ هَؤُلاءِ الفَلاسفةَ جَميعاً إِنَّمَا نُكِبُوا فى أَيَّامِ فِتْنَةٍ ومِحْنَةٍ وجَهْلٍ وانحِطاطٍ فى السِّياسَةِ والأَخْلاقِ .

٥ — اِستقَرَّتْ قِيادَةُ الفِكْرِ للإِسلامِ والمَسيحيَّةِ طَوَالَ القُرُونِ الوُسطى ؛ ولَـكِنَّ اللهَ كانَ قَدْ أرادَ أَنْ تَسْتَرِدَّ الفَلسفةُ والسِّياسةُ قِيادَةَ الفِكْرِ مَرَّةً أُخرَى ؛ وقَدَّرَ للإِسلامِ والمَسيحيَّةِ أَنْ يدَعَا قِيادَةَ الفِكْرِ بَعْدَ ما استأثَرَا بهَا هذِه القرونَ الطِّوالَ .

لستَ فِى حَاجَةٍ إِلَى أَنْ أُفَصِّلَ لكَ تاريخَ النَّهْضَةِ الأورُبيَّـةِ الحَدِيثةِ ، ولا مَا كانَ مِنَ اسْتِـكْشَافِ الـكُتُبِ الفَلْسَفيَّةِ والآثارِ الأَدَبيَّـةِ والفَنِّيَّـةِ التى تَرَكَهَا اليُونَانُ والرُّومانُ ؛ فأَنْتَ تَعْرِفُ هَذَا مِثْلَ مَا أَعْرِفُهُ ؛ ولـكِنِّى أُحِبُّ أَنْ تُفَـكِّرَ مَعِى قلِيلًا فِى هَذِهِ الآثارِ اليُونانيَّـةِ

الرُّومانيَّةِ ، التى كانَ كلُّ شىْءٍ فِى القَرْنِ الْأَوَّلِ للمَسيح يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا قد فَشِلَتْ وأَصْبَحَتْ لا تَصْلُحُ قِوَاماً لِلْحَيَاةِ العَامَّةِ : ما بَالُهـا فِى القَرْنِ الْخَامِسَ عَشَرَ والسَّادِسَ عَشَرَ قَدْ أَخَذَتْ تَفْتِنُ النَّاسَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ودِيانَتِهِمْ وعادَاتِهِمْ وأَخْلاقِهِم ومُيُولِهِم ؟ وما بَالُهَا قَدْ أَخَذَتْ تَسْتَأْثِرُ بِقُلُوبِ النَّاسِ ، حتى إِنَّهم لَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فى سَبِيلِهَا لِمِثْـلِ ما كانَ يَتعَرَّضُ لَهُ المَسيحيُّونَ فِى مُحَارَبَتِهَا : مِنْ سِجْنٍ وَمَوْتٍ ، ومِنْ أَلْوَانِ التَّنْـكِيلِ والتَّمْثِيلِ ؟ بلْ ما بَالُها قَدْ أَخَذَتْ تُثْمِرُ فى هذا العَصْرِ الْحَديثِ ما لَمْ تَستَطِعْ أَنْ تُثْمِرَهُ فى العَصْرِ القَديمِ ؟ لقد كانَتِ الفَلسفةُ اليونانيةُ قَدِ انتهتْ إِلى الشَّكِّ فِى العَصْرِ القَدِيمِ ، وعَجَزَتْ عَنْ إِصْلَاحِ النِّظَامِ السِّيَاسِىِّ والِاجْتماعىِّ حَتَّى سَئِمَهَا النَّاسُ وزَهِدُوا فِيهَا . ولَكِنَّ

النّاسَ لَمْ يَكَادُوا يَدْرُسونَها فى العَصْرِ الحديثِ حتّى فتَحَتْ أَمامَهُم أَبْوَابَ الأَمَلِ والعَمَلِ ، ومَكَّنَتْهُم مِنَ اسْتِحْدَاثِ الْعِلْمِ وتَغْييرِ نُظُمِ الحياةِ ؛ وانْتهَتْ بِهِم إلى ما هُمْ فِيهِ الآنَ مِنْ رُقِيٍّ . ما بالها فَشِلَتْ قَدِيماً وفَازَتْ حَدِيثاً ؟ قُلْ فى تَعْلِيلِ ذَلِكَ ما شِئْتَ ؛ فقَدْ تُصِيبُ وقد تُخْطِئُ . ولكنَّكَ مُصِيبٌ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ إِنْ لاَحَظْتَ مَعِى أَنَّ هؤُلاءِ الفَلاَسِفَةَ مِنَ اليُونانِ ، كانُوا أَرْقَى مِنَ الأَجْيَالِ التى عَاشُوا فِيهَا ، وكانُوا قَدْ سَبَقُوا هَذِهِ الأَجْيالَ إلى حَيْثُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُدْرِكَهُم . ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَنْتَظِرَ فَلسفَتُهُم قُرُوناً طِوالاً ، حتَّى يَتِمَّ نُضُوجُ الْعَقْلِ الإِنْسَانِيِّ فَيُحْسِنَ إساغَتَها واسْتِثْمَارَهَا . وهَذَا هُوَ الَّذِى كانَ : لَمْ تَكَدْ تَظْهَرُ هَذِهِ الفَلْسَفةُ وتَشِيعُ بينَ المُحدَثِينَ حتى آتَتْ ثَمَرَهَا طَيِّباً مُنْتِجاً ؛ وإِذَا

هِيَ تُوجِدُ نَفَراً مِنَ الفلاسِفةِ والسَّاسَةِ تَوَلوْا قِيادَةَ
الفِكْرِ حتى انْتَهَوْا بِهِ إلى الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ ثُمَّ إلى
مَا نَحْنُ فِيهِ الآنَ .

العصر الحديث

١ — أَمَّا فى هذَا العَصْرِ، فيَجِبُ أَنْ يَتَغَيَّرَ مَذهبُنا فى البَحْثِ ، لِأَنَّ مَوْضوعَ هذا البَحْثِ نَفْسِه قد تَغيَّرَ ؛ ولِأَنَّ الظُّروفَ الَّتى تُحِيطُ بالعَقْلِ الإنسانىِّ قد تغَيَّرتْ تَغيُّرًا عَظِيماً ، وظَهَرَتْ فُرُوقٌ كثيرةٌ بينَها وبينَ تِلْك الظُّروفِ التى كانَتْ تُحِيطُ بهذَا العَقْلِ ، أَثْناءَ العُصورِ القديمةِ والقُرونِ الوُسطَى .

كانتْ قِيادةُ الفِكْرِ للشِّعْرِ ، أَوْ لِلْفَلسفةِ ، أَوْ لِلسِّياسَةِ ، أَوْ لِلدِّينِ . وكانَ مِنَ الغَريبِ أَوْ مِنَ النَّادِرِ أَنْ تَشترِكَ هـذهِ الأَشياءُ اشْتِراكاً ظاهِرًا فى توْجيهِ شَعْبٍ مِنَ الشعُوبِ ، أَوْ عَصْرٍ مِنَ العُصورِ ، وإِنَّما كانَتْ حَياةُ الأُمَمِ المُتَحَضِّرَةِ فى هــذه العصورِ

تَصطَبِغُ صِبْغَةً ظاهِرةً جَلِيَّةً : هى الصِّبغَةُ الأدَبِيَّةُ ، أَوِ الْفَلْسَفِيَّةُ ، أَوِ السِّياسِيَّةُ ، أَوِ الدِّينِيَّةُ ، أَمَّا فى هذا العَصرِ الحديثِ ، فأَنْتَ تُضيعُ وَقْتَكَ وقُوَّتَكَ إنْ حَاوَلْتَ أَنْ تجِدَ لشَعْبٍ مِنَ الشُّعوبِ أَوْ قَرْنٍ مِنَ القُرُونِ صِبْغةً واحِدةً تَستَأْثِرُ بِهِ وتَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ أَطْرَافِهِ ؛ وإِنَّما أَنْتَ مُضْطرٌّ حينَ تَبحَثُ عَنْ قِيادَةِ الفِكْرِ أَثْناءَ العَصْرِ الْحديثِ إلى أَنْ تُوَزِّعَها بينَ أُمُورٍ مُخْتَلِفةٍ ؛ لأَنَّ ظُروفَ الحياةِ نَفْسِها قد وَزَّعَتْها بينَ هذه الأمورِ ؛ فَلمْ تَسْتأْثِرِ الفَلْسفةُ ، ولم يَسْتَأْثِرِ الشعْرُ ، ولَمْ تَسْتَأْثِرِ السِّياسةُ ، ولَمْ يَسْتَأْثِرِ الدِّينُ بقيادَةِ الفِكْرِ فى فَصْلٍ مِنْ فصُولِ هذِه القِصَصِ الَّتِي يُكَوِّنُها العَصْرُ الْحديثُ ، وإِنَّما اشتَرَكَتْ هذِهِ الأمورُ كلُّها فى قِيادَةِ الفِكْرِ ، وإنْ شِئْتَ التَّحقِيقَ والدُّنُوَّ مِنَ الإصابَةِ ، فَقُلْ إنَّ

هذه الأمورَ كلَّها قدْ تنافسَتْ ، واشتدَّ بينها النِّزاعُ فى قِيادةِ الفِكْرِ ، فقهرَ بعضُها بَعْضاً ، وأخذَ كلٌّ مِنها بنصيبٍ مِنْ توْجيهِ الْعَقْلِ الإنسانىِّ والتأثيرِ فى حياةِ الشُّعوبِ . وآيةُ ذلك أنَّكَ تنْظُرُ فى أىِّ وقتٍ مِنْ أوْقاتِ هذا العَصْرِ الْحديثِ ، فإذَا أنْتَ أمامَ فَلْسفةٍ تُجاهِدُ لتُسَيْطِرَ عَلَى الحياةِ ، وسِياسةٍ تُجاهِدُ لتَصُوغَ الحياةَ كَما تُحِبُّ ، ودينٍ يُنَاضِلُ ليحْتَفِظَ بمكانَتِه وسُلطانِهِ ، وأدبٍ يَجِدُّ ليكُونَ له التَّفوُّقُ والفوْزُ . ولِكلِّ واحدٍ مِنْ هذه الأشياءِ زُعَماؤه ومُمَثِّلوه ، والدَّاعونَ إِليهِ ، والذَّائِدُونَ عَنْهُ ، حتَّى فى الأَوقاتِ التى يُخَيَّلُ اليكَ فيهَا أنَّ أمْراً مِنْ هذِهِ الأُمورِ قدْ ظَهرَ تفوُّقُهُ واسْتأثَرَ بالفوزِ والغَلَبَةِ . فقدْ يُخَيَّلُ اليكَ أنَّ عَصْرَ الثَّوْرَةِ الفرَنْسيَّةِ مَثَلاً كانَ عَصْرَ سِياسةٍ ليسَ غَيْرُ ؛

ولـكن فـكّر قليلاً ، وأتقن درس هذا العصر تجده عصر سياسة ، وعصر حرب ، وعصر علم ، وعصر فلسفة ، وعصر تشريع ، بل عصر دين أيضاً ؛ وتجد كل هذه الأمور تزدحم وتتنافس وتستبق الى قيادة الفكر ، تريد أن تستأثر بها وتسيطر عليها .

٢ — وقد يكون من الحق أن نلتمس العلة لهذه الظاهرة الجديدة ، التى وزعت قيادة الفكر بين طائفة من المؤثرات ولم تقصرها على مؤثر واحد ، كما كان الأمر فى العصور الأولى .

ولعلنا لا نتكلف كثيراً من العناء فى التماس العلة لهذه الظاهرة ؛ فقد نلاحظ أن المطبعة اخترعت فى هذا العصر ، وأنها أثرت فيه آثاراً لا سبيل إلى تقديرها ؛ فأذاعت كتب القدماء والمحدثين ، ومضت

فِى هذِه الإِذَاعَةِ لا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ ، ولا تَنْتَهِى إِلى غايَةٍ ؛ ولا تَسْتَطِيعُ القَوانِينُ والنُّظُمُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنْ تُقَيِّدَهَا . فبينَما كانَتْ تُذِيعُ فى هـذَا البَلَدِ الكتُبَ الدينيةَ ، كانَتْ تذِيعُ فى ذلك البَلَدِ الكتُبَ الفَلْسَفِيَّةَ ، وكانَتْ تُذِيعُ فِى بَلَدٍ آخَرَ كُتُباً أَدبِيَّةً وعِلْمِيَّةً وفَنِّيَّةً ؛ وبينَما كانَ القانونُ يُضَيِّقُ عليها فى هذا البَلَدِ ، فلا يُبِيحُ لها إذاعةَ كلِّ شيءٍ كانَ القانونُ يُرَخِّصُ لهَا فى ذلكَ البلدِ فيَترُكُها تُذِيعُ ما تشاء ؛ وكانَ الكاتِبُ أَوِ العالِمُ أَوِ الفِيلسُوفُ لا يَظْفَرُ بانْتشارِ كتُبِه فى العُصُورِ الأُولى ، إلاَّ إذا ظَفِرَ بشيءٍ مِنَ الشُّهْرَةِ وبُعْدِ الصِّيتِ يُرَغِّبُ النَّاسَ فى آثاره ؛ ولَمْ يَكُنِ الظَّفَرُ بهذِهِ الشُّهْرَةِ سهلاً ولا يسيراً . أمَّا الآنَ ، فَقَدْ يَسَّرَتِ المطبعَةُ علَى كلِّ ذِى رَأْيٍ أَنْ يُذِيعَ رَأْيَهُ ويُناضِلَ عَنهُ ، وعَلَى كلِّ باحثٍ

أَنْ يَنْشُرَ ثمرات بَحْثِهِ بينَ النَّاسِ . ولَمْ تَكَدْ تَظْهَرُ المطبعةُ ، وتأخُذُ فِيما أَخَذَتْ فيهِ مِنَ النَّشْرِ والإِذَاعةِ ، حتَّى ظَهَرتْ آثَارُ ذلكَ قَوِيَّةً فى حياةِ العصرِ الْجَدِيدِ ؛ فكثُرَتِ الآراءِ واْختَلَفَتْ ، أَوْ قُلْ ظَهَرَتْ كثرةُ الآرَاءِ واُختلافُهَا ، واستطاعَتْ أَنْ تُجاهِدَ وتَخْتَصِمَ وتَتنافَسَ فى قُوَّةٍ وسُرْعةٍ لمْ يكُنْ لِلنَّاسِ بِهما عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ .

ومِنْ هُنا اُستَطاعَتْ كلُّ هذِه الأُمورِ الَّتى ذَكرْناها آنِفاً ، وهىَ الفلسفةُ والأدبُ والسياسةُ والدِّينُ والعِلمُ ، أنْ تَظْهَرَ وتَلْتَمِسَ حقَّهَا فِى الوُجُودِ وتَظْفَرَ بهذا الحقِّ . ومِنْ هُنا لَمْ يَكُنِ الْعَصْرُ الْحديثُ مُصْطَبِغاً بِصِبغَةٍ واحدةٍ ظاهرةٍ كالْعُصُورِ التى سَبَقَتْه . ومِنْ هُنا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحَقِّ ولا مِنَ الصَّوَابِ أَنْ تَبْحَثَ فِى هذا العَصْرِ عَنْ قِيادَةٍ واحِدةٍ لِلفِكْرِ ، أَوْ عَنْ نوْعٍ واحِدٍ

مِنْ قادةِ الفِكْرِ ؛ إِنَّما أَنْتَ مُضْطَرٌّ إِلى أَنْ تبْحَث عَنْ قِيادات للفِكْرِ ، وعَنْ أَنواعٍ مِنْ قادةِ الفِكْرِ .

وخُذِ الْقَرْنَ السَّابعَ عشَرَ مثلاً ، والْتمسْ فيهِ المُؤَثِّرَ فِي قيادةِ الفِكْرِ ؛ فلَنْ تَستطيعَ أَنْ تقولَ إِنَّهُ كانَ عَصْرَ فلسفةٍ خالصةٍ أو عَصرَ سياسةٍ خالِصَةٍ ، أو عَصْرَ أدبٍ خالِصٍ ، أَو عصرَ دينٍ خالصٍ ، وَإِنَّما كانَ عَصْرَ هذه الأشياءِ جَميعاً . بَلْ هُناكَ ظَاهِرَةٌ أُخْرَى ليسَتْ أَقلَّ مِنْ هذه الظاهِرةِ خَطراً ، وهى تُمثِّلُ الِاختلافَ العنِيفَ بينَ العَصْرِ الحَديثِ والعُصُورِ التي سَبَقَتْهُ ، ولا سيَّما العصرَ الْقَدِيمَ .

فقدْ كانَتْ قيادةُ الفِكْرِ فى العُصُورِ الْأُولَى لِأَمْرٍ مِنْ هذه الأُمُورِ التى أَشَرْنَا إِليها ، وكانَتْ فى الوَقْتِ نَفْسِهِ لِأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ، أَوْ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ .

كانَتْ لليُونَانِ ، ثُمَّ كانَتْ لِلرُّومَانِ ، ثُمَّ كانَتْ لِلعَرَبِ ، ثُمَّ عادَتْ إِلى أُوربَّا فكانَتْ للكَنِيسَة ، أَىْ لمدينةِ رُومَا . أو قُلْ : كانَتْ قِيادةُ الفكْرِ لمدينةٍ مِنَ المُدُنِ — لِأثينا ، وللإِسكَندريَّةِ ، ولرُوما ، ولمكَّةَ ، وللمَدينةِ ، ولبَغْدادَ ، وللقاهرةِ ، ولقُرْطُبَةَ ، ثُمَّ لرُوما . أَمَّا فى العَصْرِ الحديثِ ، فقد تَغَيَّرَ هذا كلُّه . وكما أَنَّ قيادةَ الفِكْرِ لَمْ تَكُنْ إِلَى الدِّينِ ، أَوِ الفَلْسَفةِ ، أو الأدبِ ، أو السياسةِ ، وإِنَّمَا كانَتْ لهَا كلِّهَا ؛ فهى لَمْ تكُنْ لِأُمَّةٍ بعينِها ولا لمدِينةٍ بِعَيْنِهَا ، وإِنَّما كانَتْ للأُمَمِ المُتحضِّرةِ جميعاً ، وللمدن الظاهرةِ فِى هذه الأُمَمِ ؛ وذلك كلُّه أثرٌ من آثارِ المَطبعةِ .

وخُذْ هذا القَرنَ السابعَ عشَرَ ، وابْحَثْ عَنِ الفَلسفةِ فيه ؛ فقَدْ كانَتْ فِى العُصُورِ الأُولى يُونانيَّةً ، أو

إسكندريةً ، أو عربيةً . أمّا الآنَ فلنْ تكونَ فرنسيّةً ، ولا إنجليزيّةً ، ولا ألمانيّةً ؛ وإنّما لكلِّ أُمّةٍ مِنْ هذه الأُممِ فلسفتُها . والأمْرُ كذلكَ في الأدبِ ؛ وهو كذلك في السِّياسةِ ؛ وهو كذلك في الفنِّ والعِلْمِ . ونوشِكُ أَنْ نقولَ إنه كذلك في الدِّين أيضاً .

للفرنسيِّينَ ديكرْت ؛ وللأنجليز باكون . للفرنسيين شُعَراؤُهم المُمثِّلونَ ، ولِلأنجليزِ شكسبير . للفرنسيين لويس الرابعَ عشرَ وريشليو ، وللأنجليز كرمويل . ونستطيعُ أَنْ نذكُرَ في الفَلسفةِ والأدبِ والسياسةِ والدينِ والعِلْمِ والفنِّ ، أسماءَ إيطاليّةً وألمانيّةً وهولَنْديّةً .

وعلَى هذا النَّحوِ اشْتَدَّ توزُّعُ قِيادةِ الفِكْرِ بينَ المُؤثِّراتِ المخْتلِفةِ مِنْ جهةٍ ، وبينَ الأُممِ والمُدنِ مِنْ جِهةٍ أُخْرى ، وأَخذَ يَزْدادُ شِدّةً كلّما كَثُرتِ

المطابعُ وكثُرتْ آثارُها المنشورةُ ، حتى انتهى الأمْرُ في القرْنِ الثامنَ عشرَ ، إلى شيءٍ يُشْبهُ الفوضى ، بلْ إلى الفوْضى . وما أظنُّ أنّي أقولُ جديداً إنْ زعمْتُ أنّ المطبعةَ مِنْ أهمّ المؤثّراتِ في الثّورةِ الفرَنسيَّةِ التي لمْ يُفِقْ منها العالَمُ بعْدُ .

٣ — ولم يَقِفِ الأمْرُ بالمطبعةِ عِنْدَ نشرِ الكُتُبِ والرّسائِلِ ومَا إليها ، وعندَ استحْداثِ مَا استَحْدَثتْ مِنَ الآثارِ في القرْنِ السادسَ عشَرَ والسابعَ عشَرَ ، ولكنَّ المطبعةَ استَتْبَعَتْ شيئاً آخرَ غيرَ الكُتُبِ والرّسائِلِ ، استَتْبَعَتِ الصُّحُفَ اليوميّةَ والدّوريّةَ كَمَا يقولونَ .

وما أظنُّ أنكَ في حاجةٍ إلى أنْ أدُلّكَ علَى أنَّ ظُهورَ الصُّحُفِ السياسيَّةِ والعلْميَّةِ والأَدبيَّةِ ، قد قوَّى

توزُّعَ قيادةِ الفِكرِ ، وانتهى بهِ إلى حدٍّ غريبٍ ، فقد كان العُلَماءُ والكتّابُ والفلاسفةُ والسّاسةُ يُنشِئون كُتُبَهم وينشُرونَها ، فيستغرِقُ ذلك منهم الأشهُرَ والأعوامَ ، ويستتبِعُ ذلك بُطْئاً فيما يكونُ بينهم مِنَ النِّزاعِ والنِّضالِ والاستباقِ إلى قيادةِ الفِكْرِ . أَمّا بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتِ الصُّحفُ ، فالنِّزاعُ يَوْمِيٌّ ، أو أسبوعيٌّ ، أو شهريٌّ . هو عنيفٌ ، وهو سريعٌ ، وهو متّصِلٌ ، وهو مُؤثِّرٌ فى توزيعِ قيادةِ الفِكْرِ ، بمقدارِ ما يشتدُّ ويُسرِعُ ويَستمِرُّ .

والنّتيجةُ الظاهرةُ لهذا كلِّه ، هو أنّنا كنّا نجدُ فى العُصورِ الأُولى رَجُلاً يَقودُ شعباً ، وشَعباً يقودُ العالَمَ . أمّا الآنَ ، فقلّما يظْفَرُ الرَّجُلُ بقيادةِ مدينةٍ ، أو فِرْقةٍ فى مَدينةٍ . وهو إنْ ظَفِرَ بذلك ، فانما يظفَرُ به إلى حَدٍّ ،

وعَلَى مَشَقةٍ وجَهْدٍ ، إلاَّ أنْ يكُونَ فَذّاً مِنْ أَفْذَاذِ التارِيخِ حَقًّا ، أَو يكونَ فى أُمَّةٍ جاهلةٍ لم تَظْفَرْ المطبعةُ فيها بهَـذَا السلطانِ العَظيمِ ، ولَمْ يَكْثُرْ فِيها القُرَّاءِ والـكاتبون .

أُحِبُّ أنْ تَلْتَمِسَ قيادةَ الفِكْرِ — لا أَقُولُ فى العالَمِ ، ولا أقولُ فى أوربَّا وأمريكا ، وإنَّما أقولُ فى فَرَنْسا وحدَها الآن — لأَىِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ المؤثِّراتِ هى ؟ أَللفَلسفةِ ؟ . ولِأَىِّ فلسفةٍ ؟ : أَلِفلسفةِ الوَضْعِيِّينَ أَمْ لِأَصحابِ ما بَعْدَ الطبيعةِ ؟ . ولأَىِّ فريقٍ مِنْ هؤلاءِ ؟ . أَمْ هى للدِّينِ ؟ ، ولأَىِّ دينٍ ؟ : أَلِلـكاثوليكيَّةِ أَمْ للإنجيليَّةِ ؟ . أَمْ هى للأَدبِ ؟ ولأَىِّ مَذهبٍ مِنْ مذاهبِ الأَدَبِ ، فقد يكونُ إحصاءِ هذه المدارسِ عسيراً ؟ أَمْ هى للسياسةِ ؟ . ولأَىِّ لونٍ من ألوانِ السياسةِ ؟ :

للجُمهوريَّةِ المعتدلةِ ؟ أم للديمقراطيَّةِ المتطرِّفةِ ؟ أمْ للمَلَكيَّةِ ؟ أمْ للامبراطوريَّةِ ؟ أمْ للشُّيوعيَّةِ ؟ أمْ لِلاُشْتراكية ؟ . . .

وتَستطيعُ أنْ تسألَ هذا السُّؤالَ بالقياسِ إلى كل بلدٍ مِنْ بلادِ أوربَّا الراقيةِ .

٤ — وكأَنَّ المطبعةَ وما اُستَتْبَعَتْ مِنَ النَّشرِ والإذاعةِ ، والصُّحُفَ وما اُستَتْبَعَتْ مِنَ الإلحاحِ فى النَّشرِ والإذاعةِ ، لمْ تكُنْ تكْفِي لتَوزيعِ قيادةِ الفِكْرِ بينَ المؤثِّرَاتِ المختلفةِ ، والأُمَمِ المختلفةِ ، والفرَقِ المختلفةِ ، فاُستَحْدَثَ هذا العَصْرُ الْجديدُ شيئًا آخرَ أَوْ أَشياءَ أُخْرَى ، يُخَيَّلُ الينَا فى ظاهرِ الأَمْرِ أَنَّها تُعِينُ عَلَى تَوحيدِ الكَلِمَةِ ، وجَمعِ الرَّأْيِ ، وقَصْرِ قِيَادةِ الفِكْرِ عَلَى مُؤَثِّرٍ بِعَيْنِهِ أَوْ أُمَّةٍ بعيْنِهَا ، ولكنَّها فِي حقيقةِ الأَمْرِ تَجْمَعُ

النَّاسَ ، وتُقَرِّبُ ما بينَهُم مِنَ المسافاتِ المادِّيَّةِ والمعنويَّةِ ، وهى فى الوقتِ نَفْسِه تُمْعِنُ فى توزيعِ قيادةِ الفِكْرِ إمعاناً غريباً ! ؛ هذه الأشياءُ هى ما اتَّفَقْنا عَلَى تَسْمِيَتِهِ أَسْبَابَ المواصلاتِ .

أُلغيتِ المسافاتُ أَوْ كادَتْ تُلْغَى ؛ لا نَقُولُ : بينَ الأُمَمِ والشُّعوبِ ، بلْ نقولُ : بينَ القارَّاتِ إلى أَنْ يأْتِىَ اليومُ الَّذِى تَقُولُ فيهِ الأَجيالُ المقبلةُ : بينَ الأَفلاكِ والكواكبِ . وأَصْبَحْنَا بفضلِ البُخَارِ والكَهْرُباءِ ، وبفَضْلِ التلغرافِ والتليفون ، نَستطيعُ أَنْ نَعرفَ فى مِصرَ آخِرَ النهارِ ، ما يَقَعُ فى أَقْصَى الغَرْبِ ، أَوْ أَقْصَى الشَّرْقِ ، أَوْ أَقْصَى الشَّمالِ والجَنوبِ فى أَوَّلِهِ ؛ وأَصبحَ الفيلسُوفُ ، أَوِ الأَديبُ ، أَوِ العالِمُ ، لا يكادُ يُخْرِجُ كتابَهُ للنَّاسِ فى بَلدِهِ الذى يَعِيشُ فيهِ ، حتى ينتشِرَ هذا الكتابُ فى

أَطرافِ الأَرْضِ ، فإِذا هو يُدْرَسُ ، ويُلخَّصُ ، ويُترْجَمُ ، ويُفَسَّرُ ، ويُناقَشُ فى البلادِ الأَجنبيَّةِ ؛ وإِذا هو يُحْدِثُ آثاراً مُخْتَلِفَةً فى البلادِ والبيئاتِ المختلِفةِ ؛ وإِذا آثارُه تُمْعِنُ فى التَّغَلْغُلِ ، وتتعَمَّقُ فى حياةِ الشُّعوبِ — كلُّ ذلك ولَمْ يَمْضِ عَلَى ظُهورِ كتابهِ عامٌ أَوْ بَعْضُ عامٍ — وإِذَا أَصْدَاءُ هذا الكتابِ المختلِفةُ تَتجاوَبُ فى أَقطارِ الأَرضِ ، وتَرْتَدُّ إِلى حيثُ ظهرَ الكتابُ ؛ وأَصبحَ الرجلُ مِنْ رجالِ السياسيةِ ، لا يكادُ يكتبُ فَصْلاً ، أَوْ يُلْقِى خُطْبَةً ، أَوْ يُفْضِى إِلى أَحَدٍ بحديثٍ ، حتى يَتَنَاوَلَ البَرْقُ ما قالَ أَوْ ما كَتَبَ ، فينشرَه فى جميعِ أطرافِ الأَرْضِ ولَمْ يَمْضِ عَلَى قولهِ أَو كتابتهِ ساعاتٌ . ولعلَّكَ تُلاحِظُ أنَّ الصِّلةَ بيننَا وبين المُدنِ الكُبرى فى أوربَّا وأَمريكا ، قد أَلْغَتِ المسافةَ بالفِعْلِ فيما يَتَّصِلُ بالسِّياسَةِ ؛ فنَحْنُ نَقْرَأُ

ما تكتبُه الصُّحُفُ الإنجليزيَّةُ مثلاً في اليومِ الَّذي تكتبُه فيهِ، والإنجليزُ يقرءونَ ما نكتُبُ وما نقولُ كذلكَ، بلْ تجاوزَ الأمرُ هذا الحدَّ، وأصبحَ الخُطباءُ السياسيُّونَ في الأحداثِ الكُبرَى يُلقُونَ خُطَبَهُم، لا نقول في المئاتِ والآلافِ مِنَ الناسِ، بلْ نقولُ في مئاتِ الآلافِ.

وظاهرُ هذا كلِّه أنْ قدِ اشتدَّتِ الصِّلةُ بينَ الجماعاتِ، فقرُبَ بعضُها مِنْ بعضٍ، واستطاعَ بعضُها أنْ يفهمَ بعضاً. وكانَ مِنَ المعقولِ أنْ يكونَ هذا كلُّه سبباً في توحيدِ قيادةِ الفِكرِ، وقصرِها على شعبٍ مِنَ الشُّعوبِ، أوْ مدينةٍ مِنَ المُدنِ، أوْ لونٍ مِنْ ألوانِ المفكِّرينَ. ولكنَّ هذا ليسَ مِنَ الحقِّ في شيءٍ، وإنَّما الحقُّ أنَّا لا نعرفُ عصراً مِنَ العُصورِ توزَّعتْ فيهِ قيادةُ الفِكرِ، كما توزَّعتْ في هذا العصرِ.

ومَصْدَرُ ذلِك أَنَّ اُصطِناعَ المطبعةِ والصُّحُفِ والبَرْقِ والتليفونِ وأدواتِ البُخارِ والكهرُباءِ ليسَ مقصوراً عَلَى شَعبٍ مِنَ الشُّعوبِ ، ولا عَلَى مَدينةٍ مِنَ المُدنِ ، ولا عَلَى فِرْقةٍ من الفِرَقِ المفكِّرةِ ، وإِنَّما هو شائعٌ بينَ أُمَمِ الأَرضِ . وهذه الأُمَمُ كلُّها تجاهِدُ وتُناضِلُ لتحيا وتَسُودَ ، والأَفْرَادُ فى هــذه الأُمِمِ يناضلونَ ويُجاهِدونَ ليحيَوْا ويَسُودوا ، وهُمْ يَصْطَنِعُونَ هذهِ الأَدَواتِ ، ويَستَعِينُونَ بِهَا عَلَى ما يُرِيدونَ مِنْ سِيَادةٍ وقيادةٍ للفِكْرِ .

والأَفرادُ يتنافسونَ ، والشعوبُ تتَنافسُ ، والنتيجةُ الظاهِرةُ لهذا التنافُسِ أنَّ قيادةَ الفِكْرِ موزَّعةٌ فى الشُّعوبِ بينَ الأَفرادِ النابِهينَ ، وهِىَ مُوَزَّعةٌ فى العالَمِ بينَ الشُّعوبِ النابِهةِ .

وإِذاً فكلُّ شيءٍ يدُلُّ عَلَى أنَّه لَمْ يبْقَ أَملٌ فى أَنْ نَحْصُرَ قِيادةَ الفِكْرِ فى مُؤَثِّرٍ بعيْنِهِ، ولاَ فى شَعْبٍ بعَينِهِ، ولا فى فِرقةٍ بعَينِها مِنْ فِرَقِ المفكِّرِينَ؛ وإِنَّما السبيلُ هو أَنْ نَبْحَثَ عَنْ قيادةِ الفِكْرِ فى كُلِّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الحياةِ العَقْليَّةِ عَلَى حِدَةٍ، بل أَنْ نُوَزِّعَ هذا البَحْثَ عَلَى الأُمَمِ النَّابهِةِ والشُّعوبِ المتازَةِ.

٥ — ومَعَ هذا كلِّه، فقدْ أَرادَ اللهُ أنْ يَخْضَعَ النَّوْعُ الإِنسانِيُّ لظاهرةٍ لَمْ يَجِدْ إلى الآنَ سَبيلًا إِلى أَنْ يَخْلُصَ مِنها، وليسَ هو فى حاجةٍ إِلى أنْ يَخلُصَ مِنْها؛ والخيرُ كُلُّ الخيرِ هوَ أَنْ يَسْتَمِرَّ خُضوعُه لَها وتأثُّرُهُ بها.

هذه الظاهِرَةُ، هى ظاهِرَةُ النُّبُوغِ، التى تُكْرِهُ الأُمَمَ والشُّعوبَ والإِنسانيَّةَ كلَّها أحْياناً، عَلَى أَنْ

تعترفَ بفَرْدٍ مِنَ الأفرادِ ، وتُذعِنَ لقوّتهِ العقليَّة أوِ الفنيَّةِ أوِ السياسيَّةِ ، رغم مَا فِيهاَ مِنْ قُوًى وكِفاياتٍ ، ومِنْ جهادٍ بينَ هذه القُوَى والكِفاياتِ .

وليسَ هُنا مَوْضِعُ البحْثِ عن النُّبوغِ والْتماسِ أُصولهِ والمؤثِّراتِ فيهِ ، وإنَّما يَكْفِي أنْ نُلاحِظَ أن النُّبُوغَ ظاهرةٌ اجْتماعيَّةٌ عرَفَها أكْثرُ العُصورِ ، ولَمْ يستَطِعْ تَغَيُّرُ الظُّروفِ واستِحالةُ أطوارِ الْحياةِ أنْ يَمْحُوَها أو يُزِيلَها أو يَضَعَ مِنْ قَدْرِها .

فقد تَستَطيعُ المطبعةُ أن تنشُرَ وتُذِيعَ ، وتُسْرِفَ فى النَّشْرِ والإذاعةِ ، وقد يَسْتَطِيعُ الناسُ أنْ يُجاهِدوا ويناضِلوا ، ويَستَحدِثوا الآثارَ المختلفةَ فى ألوانِ الحياةِ وفُروعِها ، ولكنَّ شيئاً مِنْ هذا لَنْ يَسْتَطيعَ أنْ يَمْحُوَ نُبوغَ ديكرت ، وأنه قَدْ صَبَغَ الفلسفةَ الحديثةَ صِبْغةً

خاصَّةً مُمتازةً ، ووجَّهها وِجهةً خاصَّةً ، مَكَّنتْها مِنَ الإنتاجِ والإثمارِ .

ولَنْ يستَطيعَ شيءٌ مِنْ هذا أن يمحوَ ما كان لرُسُّو مِنْ أَثَرٍ في حيـــاةِ الشُّعوبِ وفي سياسَةِ العَصْرِ الحديثِ . ولَنْ يستَطِيعَ شيءٌ مِنْ هذا أَنْ يَمْحُوَ ما كان لفكتور هوجو : مِنْ أثرٍ في الشِّعرِ الفرَنسيِّ والأدبِ الفرنسيِّ الحديثِ بوجهٍ عامٍّ .

النُّبوغُ إذاً ظاهرةٌ اجتماعيَّةٌ واقِعَةٌ ، نشهَدُها مِنْ حِينٍ إلى حِين . والأَفرادُ النابغونَ مهما تَعْتَرِضْهُمُ العِقابُ ، ومهما يَكْتَنِفْهُمْ مِنَ الظُّروفِ ، فَلهُمْ مِنْ قِيادةِ الفِكْرِ والسَّيطرةِ عليهِ حَظٌّ يلائمُ نصيبَهم مِنَ النُّبوغِ .

فإذا قُلْنا إنَّ قيادَةَ الفِكْرِ في القَرْنِ السابعَ عَشَرَ لَمْ تَكُنْ إلى الفَلسفةِ وَحْدَها ، فنحنُ مضطَرُّونَ

إِلى أَنْ نقولَ : إِنَّ قيادةَ الفِكْرِ الفَلْسَفيِّ في هذا العَصْرِ ، كانت إِلى ديكرت . وإِذا قُلنا إِنَّ قِيادةَ الفِكْرِ في هذا العَصْرِ لم تَكُنْ للسياسةِ وحدَها ، فنحن مُضطَرُّونَ إِلى أن نقولَ : إِنَّ قيادةَ الفِكْرِ السِّياسيِّ في هذا العَصْرِ ، كانت لريشليو وكرمويل ولويس الرابعَ عشرَ .

وقُلْ مثلَ ذلك في الأدبِ والفَنِّ والعِلْمِ والدِّينِ .

وكُلُّ ما بينَ هذا العَصْرِ والعُصورِ السابقَةِ مِنَ الفُروقِ ، هو أَنَّ قِيادةَ الفِكْرِ قد تنوَّعَتْ وتوَزَّعَتْ في العَصْرِ الحديثِ ، فأَصْبَحْتَ مُضْطَرًّا إِلى أَنْ تُقَسِّمَ البَحْثَ عنها إِلى فُصُولٍ ، وتَلْتَمِسَها عندَ كثيرٍ مِنَ الناسِ في كثيرٍ مِنَ الأُمَمِ ، بعدَ أنْ كُنتَ تستَطِيعُ أَنْ تجمَعَ البَحْثَ عنها في فَصْلٍ واحدٍ ، وتَلْتَمِسَها عِنْدَ رجلٍ واحدٍ ، في شعبٍ واحدٍ ، أو مدينةٍ واحدةٍ .

وبينَ يدَيْنا كتابٌ « لَامِيل فاجيه » حاوَلَ فيهِ أنْ يُدْرِكَ قادةَ الفِكْرِ فى الأَخْلاقِ والسِّياسةِ وحدَهما ، وفى فرنسا وحدَها ، وفى القرْنِ التاسعَ عشرَ وحدَه ، فلم يستطِعْ أنْ يكتُبَ أقلَّ من ثلاثةِ أسفارٍ ضِخامٍ .

٦ — وكمْ كُنتُ أُحِبُّ أَنْ أَمْضِىَ فى هذا الحديثِ ، فأَدْرُسَ النابهينَ مِنْ قادةِ الفِكْرِ المحدَثين ، كما دَرَسْتُ النابهينَ مِنْ قادةِ الفِكْرِ القُدَماء ؛ ولكنَّكَ ترَى مَعى أنَّ هذا السِّفْرَ قد طالَ ، وانتَهى إلى غايَةٍ يَحْسُنُ الانتهاء إليهَا والوُقُوفُ عندَها ، وأَنَّ دَرْسَ المحدَثينَ مِنْ قادةِ الفِكْرِ ، عَلَى اختلافِ ما تفوَّقوا فيهِ مِنْ فروعِ حياةِ العَقْلِ والشُّعورِ ، يحتَاجُ ، لا أقولُ إلى سِفْرٍ آخَرَ ، بل إلى أسفارٍ .

وأنا أتمَنَّى — وما أكثرَ ما يتمنَّى الإنسانُ — أنْ

يُتيحَ اللهُ لى مِنْ سَعَةِ الوَقتِ وفرَاغِ البالِ والنشاطِ لمثلِ هذا البَحْثِ، ما يُمَكِّنُنى مِنَ المُضِىِّ فيهِ حتى أُتِمَّهُ، عَلَى النَّحْوِ الذى قدَّمْتُه، فى سِفرٍ أوْ أسْفارٍ، ولكنَّ عِلْمَ هذَا كُلِّهِ عندَ اللهِ .

فأنَا أُقدِّمُ إليكَ هذَا السِّفْرَ الذى قَدَرْتُ عليه، ولستُ أَطمَعُ فى أَنْ يَبْلُغَ مِنكَ مكانَ الرِّضَا، وإِنَّما أَرجُو أَنْ يقعَ مِنْكَ موقِعَ النَّفعِ فى غَيْرِ مَشَقَّةٍ ولا إِملالٍ .

وأَظنُّكَ تأذنُ لى فى أَنْ أَعتذِرَ اليكَ ممَّا قدْ تَجدُ فى هذَا الكتابِ مِنْ تفاوُتٍ واختلافٍ، فقد كنتُ أُريدُ أَنْ أَفرُغَ لكِتابَتِهِ حِيناً، ولكنَّ ظروفَ الحياةِ أَرَادَتْ غيرَ هذَا، فكَتَبْتُ بعضَ فُصُولِهِ فى بريطانيا، وكتبتُ بعضَ فُصولِهِ الأُخرى فى باريسَ، وأَتْمَمْتُه فى القاهرةِ، وكنتُ فى بعضِ هذه الأوقاتِ راضياً

مُطمئناً ، مستريحاً إلى الحياةِ والأَحْياء ، فارغَ البالِ إلاَّ مِمَّا يَلَذُّ ويَسُرُّ ، وكنتُ فى بَعْضِها الآخَرِ ساخِطاً أو كالسَّاخِطِ ، مَكْدوداً ، مُوَزَّعَ القُوَّةِ بيْنَ أعمالٍ مُختلفةٍ مِنَ الدَّرْسِ والكتابةِ ، وغيرِ الدَّرْسِ والكتابةِ .
ولَعلِّى لا أُجَاوِزُ الحقَّ إن قلتُ إنِّى قَدِ اُخْتَلَسْتُ هذا الكتابَ اُخْتلاساً : اختلَسْتُ بعضَه مِنْ أوقاتِ راحتِى فى فرنسا ، واختلستُ بعضَه الآخَرَ مِنْ أوقاتِ عَنائى فى مصرَ . وأنا أتمنَّى لهذا الكتاب ألاَّ يَخْتَلِسَ قُرَّاؤُه قراءَته ، كما اُختلَسَ كاتِبُه كِتابَتَهُ ، وأن يُتِيحَ اللهُ لقُرَّائِهِ ما لَمْ يُتَحْ لى مِنَ الرَّاحةِ والنَّشاطِ وفَراغِ البالِ .

﴿ انتهى ﴾